فالس الوداع

تأليف : ميلان كونديرا
ترجمة : محمد عيد ابراهيم

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

The Farewell Party

للروائى

Milan Kundera

الغلاف للفنان

حلمى التونى

اليوم الأول

(١)

حل الخريف . كانت الأشجار في الوادي البديع تستحيل إلى الأصفر والأحمر والبني ، ويبدو على البلدة المنتجع الصحي الصغيرة أنها قد أحيطت بالمشاعل . تتوقف النسوة اللاتي يتنزهن تحت أشجار نبع الماء المعدني بين الحين والآخر للانحناء على الينابيع المنبجسة . وهناك نسوة عقيمات حللن النبع على أمل الإخصاب .

يوجد حفنة رجال من بين المرضى ، كذلك ، لأنه بجانب معجزاته النسوية فإن علاج النبع ناجع كما هو مفترض لاعتلالات القلب . وبشكل عام ، فإن النساء يفقن الرجال بمقدار تسع إلى واحد - وهي نسبة تحنق ممرضة شابة مثل روزينا، تقوم على رعاية طلبات العقيلات المجدبات طوال اليوم .

وقد ولدت روزينا في البلدة المنتجع ، ولازال كل من والديها يعيش هناك ، وكانت دوماً تتساءل إن كان بمقدورها الهرب من ذلك العش المزدحم بالنساء .

كانت ظهيرة الاثنين ، قرب نهاية مناوبتها . فقط يتبقى أواخر النسوة الممتلئات القليلات كي تلفها في الملاءات ، ترقدها ، ثم ترتاح .

« لأي شيء تطلبين التليفون ؟ » تستحث زميلات روزينا . إحداهن في حوالي الخامسة والثلاثين ، بدينة ، والأخريات أكثر شباباً وأنحف .

ردت روزينا «هو طبعاً . ولم لا ؟» .

قالت الممرضة الأكبر مؤكدة «لا شيء تخشينه» ، وهي تقود روزينا إلى ظهر غرفة الملابس حيث يوجد للهيئة خزانات ثياب ومائدة وتليفون .

قالت النحيفة فى خبث «عليك أن تتصلى به فى منزله» ، وانفجر ثلاثتهن فى الضحك .

وبعد أن همد مرحهن ، قالت روزينا : «أعرف رقم صالة الرقص التى يعزف فيها . سأتصل به هناك» .

(٢)

كان الحوار مفزعاً . لقد انزعج لحظة أن تعرف على صوتها . دائما ما كان يخشى النساء لكنهن لم يكن يصدقنه حين يبلغهن بهذا ، مفضلات أن يعتبرن اعترافه هذا نوعاً من مزحة زير النساء .

سألها «كيف أحوالك ؟» .

«ليس على ما يرام»

«ما الذى ينتابك ؟»

قالت بعاطفة جياشة «أحتاج أن أتكلم معك» .

كانت هذه النبرة العاطفية على وجه الدقة هى التى يرتقبها بشكل مميت منذ أعوام .

«تحت أمرك» قالها بصوت خاضع .

كررت : «ضرورى فعلاً أن أتكلم معك» .

«ما الحكاية ؟» .

«حدث لى شىء منذ أن رأيتك»

تمكن من الرد بصعوبة . بعد صمت قال بنعومة : «ماذا تقصدين ؟»

«مرت ستة أسابيع الآن» .

حاول أن يتحكم فى نفسه : «يحدث ذلك أحياناً . أحياناً تتأخر قليلاً ، وهذا هو كل شىء» .

«لا ، هذه المرة حدث شيء حقيقى» .

«مستحيل . ببساطة ، مستحيل . عموماً ، هذا ليس خطئى ، بالتأكيد ! » .

اندلعت فى غضب : «ولماذا أخذتنى ، بحق الرب ! » .

كان خائفاً منها ، خاف أن يجعلها تغضب : «لا تحملينى وزراً ، لم أقصد إهانتك . ولماذا أهينك ؟ أحاول فقط أن أقول إنه لا يمكن أن يكون خطئى . لم أنلك بأى شيء تقلقين بشأنه لأنى لا يمكن أن أفعل شيئا كهذا ، فهو مستحيل فسيولوجياً ببساطة » .

ردت ببرود شديد «فى هذه الحالة اعتبر أنه لا شيء قد حدث» ، «وسامحنى على إزعاجك» .

قال بسرعة «آه ، لا ، من فضلك !» ، خائفاً أن تنهى المكالمة معه . «أنت على حق تماماً فى الاتصال بى ! وسوف أكون سعيداً فعلاً أن أساعدك . هذه الأشياء يمكن ترتيبها ، طبعاً . »

«ما الذى تعنيه بـ (ترتيبها) ؟» .

وقع فى حيرة ، لم يكن يجرؤ على الإفصاح بالاسم الحقيقى لذلك : «حسناً ، أنت تعرفين ، نرتبها ! » .

«أعرف ما تفكر فيه ، ومن الأفضل أن تطرد هذه الفكرة من رأسك . لن أفعلها أبداً ، سأدعهم يقتلوننى فى البداية» .

أحاطه الفزع ثانية ، لكنه حاول شيئاً كالهجوم المضاد : «إذا لم تطلبى رأيى ، فلماذا تكلفت الاتصال بى ؟ ألست تريدين الكلام معى بخصوص هذا أم أنك اتخذت رأيا ؟» .

«أريد الكلام معك بخصوص هذا » .

«حسناً إذن ، سوف أخرج لأراك» .

«متى ؟ » .

«سأعرّفك » .

«طيب » .

«حتى ذلك الوقت ، اعتنى بنفسك ».

«وأنت ، أيضا » .

أغلق الخط وعاد إلى المسرح ، حيث تنتظر فرقته استئناف العزف . قال «هذا كاف اليوم ، يازملاء» .

(٣)

وضعت السماعة ، فاض وجهها بالنقمة . إن طريقة كليما فى التعامل مع أخبارها قد أهانتها . وفعلياً ، أحست بالامتعاض لفترة .

لقد تقابلا منذ شهرين ، حينما كان عازف البوق الشهير يسلى الحضور فى النبع مع فرقته . بعد العزف ، أقيم حفل على شرف الموسيقيين ، كانت مدعوة إليه . كان عازف البوق مهتماً بها فوق كل النسوة الحاضرات ، وقضى الليلة معها .

من ذلك الحين لم تسمع كلمة منه . أرسلت له بطاقتى معايدة مع أطيب التمنيات ، تجاهل كلاً منها . ومرة ، حين كانت تزور العاصمة ، اتصلت به فى صالة الرقص المفترض بأنه يعزف فيها . رد رجل على التليفون ، طلب اسمها ، وقال سوف يبحث عن كليما . فى دقائق معدودات عاد بأخبار أن العزف انتهى وعازف البوق قد رحل .

شكّت بأنه يحاول أن يتجنبها ، وقد زاد امتعاضها منه مع الشك المتزايد بأنها حامل .

« يقول إن ذلك مستحيل فسيولوجياً ! هل تغلبت هى على ذلك ؟ مستحيل فسيولوجياً ! أتساءل ما الذي سيقوله حين ينتفخ البطن بالجنين ! » .

أومأت صديقتاها منفعلتين . فى الصباح التالى لليلتها المذهلة مع العازف الشهير ، أخبرت زميلاتها بكل شيء عما حدث وانتشرت الحكاية خلال بخار الهواء بغرفة العلاج . من ذلك الحين ، صار عازف البوق ملكية مشاعاً لهيئة التمريض . واعتلت صورته حائط غرفة الهيئة ، وحين يطفو اسمه يبتسمن كلهن مع أنفسهن كما لو كان من المعارف الحميمة . عندما علمت المرضات بأن روزينا حامل امتلأن ببهجة غريبة ، لأنه قد أسس الآن رابطة ملموسة وطويلة المدى معهن، ثمرة مغروسة عميقاً فى بطن روزينا .

ربتت المرضة العجوز على ظهر روزينا : «الآن ، الآن ، يا عزيزتى ، تحلى بالهدوء . عندى شيء أود توضيحه لك »، وأسرعت تتصفح مقالاً على صفحته علامة بمجلة مصورة . «هنا ، أنظرى !» كانت الصفحة تشغلها صورة شابة سمراء جذابة تقف على منصة وتمسك بميكروفون .

حدقت روزينا فى الصورة ، حاولت أن تقرأ مصيرها فى مستطيل تلك الورقة المصقولة . «لم أكن أعرف بأنها صغيرة هكذا» . قالتها بقلق .

«واصلى !» ضحكت صديقتها متوسطة العمر . «أخذت هذه الصورة منذ عشر سنين ! كلتاهما فى نفس العمر ، هل تعرفين ذلك . إنها لا تستطيع أن تقيم لك شمعة !» .

(٤)

أثناء حواره التليفونى مع روزينا ، أدرك كليما أن صوتها هو صوت القدر الذى يرتعد منه منذ سنوات . ليس لديه سبب عميق للاعتقاد بأنه قد جعل روزينا

تحبل تلك الليلة المصيرية (على النقيض ، كان متيقناً أن اتهامها باطل) ، لكنه منذ فترة طويلة كان يتوقع هذا النوع من الأخبار ، من سنين حتى قبل أن يلتقى روزينا .

كان فى عمر الحادية والعشرين حين جاءته فتاة شقراء مخبولة بفكرة حمل مزعوم كى تبتزه للزواج منه . كانت هذه الأسابيع مفزعة ، فى النهاية أصابته تقلصات بالمعدة وعانى من انهيار كامل . من ذلك الحين عرف بأن الحمل عاصفة سوف تنسفه فى أى وقت وبأى مكان ، صاعقة بلا أدنى بريق يعرض عليه حماية ما . جاءت العاصفة تحملها نبرة عاطفية مؤكدة من صوت عبر التليفون (نعم ، تلك المرة ، كذلك ، كانت الصدمة الأولى للأخبار السيئة تأتيه عبر التليفون) . ومنذ تجربته الشابة تلك ، رغم أن أموره مع النساء لم يكن ينقصها الحماسة ، فقد كان يصحبها مشاعر من القلق ، وبعد كل علاقة غرامية كان يرتقب بخوف عواقب وخيمة . وعلى المستوى العقلانى ، ظل يريح نفسه بفكرة أن ذلك عائد إلى حذره العاطفى الحميم ، وأن إمكانية الكارثة على التقريب هى واحد بالألف ، لكن حتى هذه الفرصة لا متناهية الصغر تجعله يرتعد .

ذات مرة ، وجد نفسه فى مساء خال ، اتصل بفتاة لم يكن قد رآها منذ شهرين ، بمجرد أن تعرفت صوته هتفت : «حبيبى ، أهو أنت ! كنت أضرع إليك أن تتصل بى ! إنى أحتاج حقيقة للكلام معك ! » قالت ذلك بنفس منقطع ، وفى عجلة زائدة ، حتى أن غصة القلق الشائعة قد اخترمت صدره ، وأحس فى صميم روحه بأنه هالك .

رغم أنه كانت تحكمه العجلة فى معرفة الحقيقة بسرعة على قدر الإمكان ، فقد صاح دون وعى : «ولماذا تتحدثين بمثل هذه النبرة الدرامية فى صوتك ؟» .

ردت «ماتت أمى بالأمس » .

تنهد بارتيــاح ، لكنه عرف بأن اللحظـة المميـتة سـوف تأتيه بالتــأكيد عاجــلاً أم آجلا .

(٥)

«حسناً الآن . أفق ! ما الحكاية ؟» كان سؤال عازف الطبلة الملحاح قد أعاد كليما أخيراً إلى أحاسيسه . فرأى الوجوه القلقة لعازفيه وأخبرهم بما جرى . ركن الأولاد آلاتهم وتجمعوا حول قائدهم .

كانت أول نصيحة ، قدمها عازف الجيتار ذو الثمانية عشر ربيعاً ، قال متطرفاً بأن ذلك النوع من النساء لابد أن تضعه فى حجمه . «أخبرها أن تذهب للجحيم . إنه ليس طفلك ، ولا تهتم . عموماً ، سوف يوضح اختبار الدم فوراً من قَلَبها » .

عارضه كليما بأن اختبارات الدم عموماً لا تثبت شيئاً من الجانبين ، ولذلك فى النهاية يبقى اتهام المرأة صامداً .

رده إلى نحره عازف الجيتار بأنه لا حاجة لاختبار دم فعلى : إن عاملت هذا النوع من الفتيات بحزم ، فلن تتكلف هى اللعنة باختلاق مزيد من المتاعب لنفسها . بمجرد أن تعرف أن رجلها المتهم ليس مخنثاً رعديداً ، فهى تتخلص من ذلك الشىء على نفقتها الخاصة . «عموماً ، لو لم تفعل وجاءها الوليد ، فإن كلاً منا حتى آخر واحد فينا سوف يقسم بأنه قد ضاجعها . عندئذ دعهم يخمنون عمن يكون الأب الحقيقى ! » .

لكن كليما قال : «أعرف أنه يمكننى الاعتماد عليكم جميعاً . لكن حتى تحين هذه اللحظة فسأكون قد متّ من القلق والرعب . حين تصل الأمور إلى هذا الحد فإنى أجبن رجل فى العالم ، وعلىّ أن أملك بعض الثقة بقدر الإمكان» .

أومأوا جميعاً موافقين . إن مقاربة عازف الجيتار كانت سديدة من حيث المبدأ ، لكن ليست للجميع . وليست موائمة بالتأكيد لرجل أعصابه ضعيفة ، ولا لرجل ثرى

ومشهور تنوى النساء القيام بمغامرات حمقاء لأجل خاطره . لذلك انضوى الفريق للرأى المعبر عن الرفض برمته ، وكان ينصح أكثر بإقناع الفتاة للقيام بعملية إجهاض . ولكن أى البراهين يمكن توظيفها ؟ هناك ثلاث خطط أساسية طرحت نفسها :

كان الاتفاق الأول مصوباً إلى قلب الفتاة الرحيم . وطبقاً لهذه الخطة ، يجب على كليما أن يعاملها كصديقة بحميمية أكثر ، يفضى بروحه لها ، ويعهد إليها بكل إخلاص أن زوجته فى أشد حالات المرض ولسوف تنهار بالتأكيد لو علمت أن امرأة أخرى سوف تجلب لزوجها طفلاً . ولا يستطيع كليما أن يتحمل هذه النكبة ، لا أخلاقياً ولا نفسياً، ولسوف يرجو الممرضة أن ترحمه .

وكان هناك ، عموماً ، اعتراض أساسى على هذه النقطة من الهجوم : فمن الحمق أن نبنى خطة كاملة على شىء غير مؤكد وغير مختبر وهو رقة الممرضة . إن لم يكن للفتاة قلب طيب وشفوق ، فلسوف يرتد هذا السلاح ضده هو . وبعد أن يهينه الاهتمام غير الفاعل ، لا يجد أب الطفل المختار أمامه سوى امرأة أخرى ، تقيم دعواها ببرود وبشكل مزعج .

وتقصد الطريقة الثانية لمناشدة الحس العام للفتاة : يحاول كليما أن يوضح لها أن ليس عنده توكيد كاف فى أن الطفل يخصه بالفعل ، وهذا الشك ينتابه دائماً فى باله . عموماً ، فهو قد قضى ليلة واحدة فحسب مع الممرضة ولم يعرف عملياً أى شىء عنها . ليس لديه أدنى فكرة عن رفقائها الذكور الآخرين . لا ، إنه لا يتهمها بالخداع المدروس ، لكنها يجب ألا تكرر أنه كان الرجل الوحيد فى حياتها ! وحتى لو صممت بأن ذلك هو الصحيح ، فكيف يمكن لكليما أن يجد قناعة تمنحه سلام الضمير ؟ وهل من الحكمة أن يمنح اسمه لطفل ينتاب والده الشكوك دوماً تجاه أبوته له ؟ هل من المتوقع أن يهجر كليما زوجته لأجل خاطر

وليد لا يقتنع حتى بأبوته ؟ وبالتأكيد فلن تجد روزينا القلب كى تربى طفلاً قدره أن لا يجد أباه ؟

إن عوائق هذه المقاربة لها أيضاً طبيعة أساسية . أوضح عازف الباص (*) (أكبر الفريق سناً) أن من شدة الحمق الاعتماد على الحس العام لفتاة أكثر من عاطفتها . فمنطق هذا البرهان ينقصه الهدف بالتأكيد ، حيث أن قلب الفتاة يعصبه جرح الشك من المحبوب . وهذا سيدعم فحسب عنادها الدامع ويستفزها إلى أكثر من التصميم الصفيق .

كانت هناك خطة ثالثة ممكنة : يؤكد كليما للفتاة الحامل أنه أحبها ذات يوم ولا يزال على حبها . وبعيدا عن اتهامها بالنفاق ، فإنه سيمطرها بالثقة والرقة . سيعد بكل شيء من ضمنه طلاق عاجل من زوجته ، ويلمح إلى مستقبل باهر لهما معاً . ولخاطر هذا المستقبل ، سيطلب منها التخلص من حملها . سيوضح أن هذا ليس هو الوقت الملائم لكليهما للحصول على طفل ، وأن هذه الأبوة المبتسرة ستحرمهما جمال السنين الأولى من سعادتهما الزوجية .

إن خط هذا البرهان تنقصه صفة وحيدة كانت لدى البرهانين الآخرين بوفرة : وهى المنطق . فلو أن كليما كان مجنوناً بالمرضة ، إذن لماذا حاول أن يتجاهلها تماماً طيلة الشهرين الماضيين ؟ لكن عازف الباص واصل بأن المنطق والحب لا يجتمعان ، وأن على كليما استنتاج تفسير معقول . فى النهاية ، وافق الجميع على أن هذه الخطة الثالثة هى أفضل المقاربات جميعاً من جهة الاحتمال ، لأنها تنتفع بالعنصر المؤكد المعقول فى الأمر كله – وهو عاطفة الفتاة .

(*) الباص bass : الطبلة الكبيرة . (م)

(٦)

أنهى الفريق الموضوع خارج المسرح ، لكن عازف الجيتار اصطحب كليما معه فى طريق العودة . كان هو المنشق الوحيد على الخطة المقترحة ، والتى بانت له عديمة الجدوى بالنسبة لقائد الفريق ، بطله ووثنه .

«حين تتعامل مع النساء ، امتشق سوطك» استشهد بنيتشه ، ذلك الفيلسوف الذى يجهل مقولاته الأخرى على الإطلاق .

تنهد كليما «زميلى العزيز» ، «لسوء الحظ لست أنا الذى يملك يد السوط ، لكنها تلك المرأة» .

عرض عليه عازف الجيتار عندئذ أن يقودا السيارة إلى النبع ، ويغريا الممرضة بالخروج إلى الطريق السريع ، ثم يدهساها بسيارته. قال «لا أحد بإمكانه أن يثبت غير أنها حادثة» .

عازف الجيتار هو أصغر عضو فى الفريق ، كان يحب كليما وقد تأثر كليما بكلماته، أخبره : «شكراً للطفك معى» .

دافع عازف الجيتار عن خطته بحماسة منقطعة النظير ، حتى التهب خداه .

أفحمه كليما «هذا لطف بالغ منك ، لكنه لا يجدى» .

«ولماذا التلكؤ؟ إنها قحبة! » .

رد كليما «لا . أنت زميل لطيف للغاية . شكراً . لكنه لا يجدى» ، ثم اتخذ طريقه .

(٧)

حين وجد نفسه لوحده ، فكر كليما فى خطة الزميل الشاب وفى أسباب رفضه لها . ليس هو بأقل فعالية من عازف الجيتار – لكنه أكثر جبنا . خاف من اتهام

القتل كخوفه من الأبوة . تصور سيارة تصدم جسم روزينا ، تخيلها راقدة على الطريق فى بركة دم ، وأحس لحيظات بنعمة الراحة . لكنه أدرك أن لا فائدة من هدهدة نفسه بهذه الخيالات الممتعة . وعلى أية حال ، فقد وجد لنفسه مشكلة عاجلة : غداً عيد ميلاد زوجته !

كانت دقائق قبل السادسة ، والمحلات على وشك الإغلاق . فاندفع إلى أقرب محل أزهار واشترى أكبر باقة من الورد . خطر له أن الغد بالتأكيد سيكون يوم كرب . فعليه أن يتظاهر أنه مع زوجته قلباً وقالباً ، عليه أن يخضع بلطف جوارها، يسليها ، يضحك معها ، رغم أن أفكاره فى الواقع ستكون منغمرة تماماً مع البطن المنتفخ للغريبة البعيدة . لسوف يثرثر جذلان ، لكن باله سيكون فى شرود ، مسجوناً فى الأغوار المظلمة ببطن امرأة أخرى .

أدرك أن ذلك سيكون فوق احتماله أن يقضى عيد ميلاد زوجته بالمنزل ، وقرر ألا يؤجل من بعد زيارته لروزينا .

وبالطبع ، لم تكن صورة هذه الرحلة مغرية له ، أيضاً . هلت عليه فكرة النبع النائى مثل نفحة من صحراء مضجرة . فهو لم يتعرف على أحد هناك ، عدا أمريكى واحد أعطاه انطباعاً عن ثرى بليد فى عش ريفى . بعد العزف المنحوس لكليما ، كان هذا الأمريكى هو الوحيد الذى استضاف الفريق فى شقته ، أتخمهم بطعام فاخر وشراب وعرّفهم بكل المرضات الجميلات . ولذلك فهو المسئول غير المباشر عن حكاية كليما وروزينا . آه ، لو الأمريكى لازال هناك ، لقد عامله بحرارة بالغة ! تشبث كليما بهذه الصورة كأن نجاته تتوقف عليها . فى المآزق مثل هذه التى يتعرض لها كليما ، فلا يطمئنه شيء أكثر من تفاهم عاطفى مع رجل آخر .

عاد إلى صالة العزف وطلب من البواب أن يرتب لمكالمة طويلة مع روزينا . فوراً سمع صوتها . أخبرها بأنه آت غداً . لم يصرح بكلمة تخص الأمر

الذى استدعته هى من قبل . كان يتكلم معها كعاشقين دون همّ فى هذه الدنيا .

بالمصادفة سألها : «على فكرة ، هل لازال هناك ذلك الأمريكى الثرى ؟» .

ردت روزينا «نعم ، لازال» .

شعر بارتياح ، وردد شيئاً ما فى ابتهاج كبير عما قبل ، كم أنه يشتاق لرؤياها . سألها «قولى لى ، ماذا ترتدين الآن ؟ » .

«لماذا؟»

تلك كانت إحدى مهاراته المفضلة التى يلعبها فى التليفون ، وقد ظل يستخدمها بنجاح لعدة سنين . «أريد أن أعرف ماذا تلبسين . أريد تكوين صورتك فى بالى».

«أرتدى فستاناً أحمر » .

«أراهن أن الأحمر يأكل من جسمك حتة» .

«أتظن» .

«وماذا عما تحته ؟ » .

ضحكت . كانا يضحكان دائماً لدى هذه النقطة .

«ما لون الكيلوت؟ » .

«أحمر ، أيضاً » .

«لا أستطيع الانتظار حتى أراك فيه » .

أنهى المكالمة . بدا له أنه قد وجد مباشرة النغمة الصحيحة التى سيستخدمها معها ، ولفترة أحس بالراحة . لكن فقط لوهلة . أدرك على الفور أنه غير قادر على تخليص باله من مشكلة روزينا ، وأن أى محاولة للاستمرار فى حوار قصير مع زوجته قد تحتاج لإجهاد بالغ . توقف عند شباك تذاكر سينما وابتاع تذكرتين لفيلم كاوبوى .

(٨)

رغم جمال مسز كليما الواضح والذى يفوق صحتها البائسة ، فهى تبذو متوعكة . كانت صحتها المتقلقلة هى التى أجبرتها على التخلى عن مهنة الغناء ، تلك المهنة التى ألقت بها بين ذراعى الرجل الذى صار زوجها .

بعد نوبة مرض ، كانت المرأة الشابة الجميلة التى تألف الإعجاب قد وجدت نفسها فجأة فى عالم موحش ترشح بالسأم والمطهرات ، عالم يبتعد تماماً عن ذلك العالم المتألق الذى كانت تشارك زوجها فيه .

كان كليما متعاطفاً . رؤية وجهها المتأسى يحطم قلبه ، ومن بين عالمه الساحر كان يسعى للوصول إليها بالشفقة (عبر تلكم العوالم المتخيلة) . وعلى الفور أدرك كليما أن حزنها ينطوى على قوة موثوق بها للجذب والحركة . وبدون دهشة ، بدأت تستثمر هذه الميزة المكتشفة بالصدفة (وربما بلا وعى ، لكن بلا أدنى ألفة) . عموماً ، كان ذلك فحسب حين رأته يحدق فى وجهها الشاحب لدرجة أنها تأكدت بدرجة معقولة أن باله ليس فى امرأة أخرى .

كانت هذه السيدة الجميلة تخاف من النساء ، وتراقبهن فى كل مكان . لم يكن يفوتها امرأة واحدة . عرفت كيف تكشف عنهن من نبرة صوت كليما وهو يحييها عند الباب وحتى من رائحة ملابسه . وحديثاً وجدت فى مكتبه قصاصة من صحيفة ممزقة عليها تاريخ مدون فى عجلة بخط يده . وطبيعياً ، فهذا قد يشير إلى أى رقم لمواعيد محتملة ، مثل عزف فى حفلة أو لقاء زبون ، لكنها ولشهر كامل لم تكن تفكر إلا فى هوية المرأة التى يوشك كليما أن يقابلها فى ذلك التاريخ ، ولشهر كامل لم تنل حظاً من النوم .

إن كانت ترتعب من عالم النساء الخائن ، فلماذا لا تجد العزاء فى عالم الرجال ؟

بمشقة . فالغيرة تلقى ببقعة ضوء ضيق ملحوظ على رجل واحد ، بينما يسبح كل الرجال فى كتلة معتمة خلفها . إن مسز كليما ، وهى منومة مغناطيسياً بهذه البقعة الضوئية المعذبة ، كانت تعمى عن كل الرجال فى العالم غير واحد : زوجها .

سمعت الآن مفتاحاً يدار والرجل واقف على الباب ، يمسك باقة من الورد .

كان رد فعلها الأول هو البهجة ، لكن الشكوك ساورتها على الفور : لماذا جلب أزهاراً الآن ، حيث أن عيد ميلادها لم يزل بعد يوم ؟ ماذا يحدث ؟

كانت تحيتها «لن تكون موجوداً هنا فى الغد ؟ » .

(٩)

إن أزهاره التى جلبها ليلة عيد ميلادها ، بالطبع ، لا تعنى بالضرورة أنه سيغيب عن البيت فى اليوم التالى . لكن هوائياتها الممتدة ، المراقبة دوماً ، والغيورة دوماً ، كانت قادرة على كشف خطط زوجها السرية مسبقاً . حينما صار كليما على علم بهذه الهوائيات المفزعة المركزة عليه ، للتجسس على حاله ، وتجريده عارياً ، طوّقه حس غامر بالتعب . كان يكره تلك الهوائيات ، وكان مقتنعاً بأنه لو تهدد زواجه أى شىء ، فذلك بسبب هذه الملامس الحوامة اللعينة . ظل على يقين دائم (بوعى صاف مستنفر) أن أى خدعة سيلعبها على زوجته قد يكون دافعها وحده هو رغبته فى حمايتها وإبعادها عن أى قلق ، وكان مقتنعاً بأن معاناة زوجته هى من أصل فعلها .

لمح وجهها ، ينبعث منه الشك ، الكآبة ، والدعابة المريضة . ماذا لو طرح الباقة على الأرض ، لكنه سيطر على نفسه . عرف بأنه فى الأيام القليلة القادمة سوف يجد اختبارات أشد جهامة لسيطرته على نفسه .

قال «ألا يعنيك أنى بكرت قليلاً بالأزهار؟» . لاحظت زوجته التوتر فى صوته . فهزت رأسها وبدأت تملأ مزهرية بالماء .

قال كليما «اللعنة على الاشتراكية» .

«ماذا تقصد؟» .

«إنه ألم ممض . يتوقعون منا أن نقيم حفلات الموسيقى مجاناً ، بدون مقابل . وكل يوم يأتون بذريعة جديدة . مرة من أجل الكفاح ضد الامبريالية ، وأخرى للعيد السنوى للثورة ، والمرة التالية نحتفل بميلاد ذاك العظيم ، إذا أردت الاحتفاظ بالفرقة معاً ، فلابد أن أساير كل شىء . ليس عندك أى فكرة بماذا ضغطوا علىّ اليوم ».

سألته راضية «ما هو ؟» .

«امرأة من المجلس المحلى حضرت العزف وبدأت تحاضرنا عن المفروض أن نعزفه والمرفوض ، وفى النهاية مالقتنا بحفل موسيقى بالمجان للجنة الشبابية . وذلك لم يكن أسوأ ما حدث – فسوف أقضى طول يوم غد فى مؤتمر غبى ، يثرثرون فيه عن دور الموسيقى فى بناء الاشتراكية . يوم كامل ذهب إلى الجحيم ! وبالطبع ينشلون عيد ميلادك !» .

«لا أصدق أن يحتجزوك هناك حتى المساء! »

قال «لا ، أظن لا . لكن عليك أن تتخيلى كيف سيكون مزاجى وأنا عائد للبيت . ذلك هو السبب أنى أردت أن نتمتع ببضع لحظات سارة هذه الليلة» ، وتناول يد زوجته .

قالت مسز كليما «أنت لطيف» ، وأدرك كليما من صوتها أنها لم تصدق كلمة واحدة من قصته عن مؤتمر اليوم التالى . لم تجرؤ على إظهار ذلك مباشرة ، لأنها تعرف أن شكوكها تدفعه للغضب . لكن كليما كان قد كف عن تصديق ثقتها الظاهرية . فإن كان يكذب أو يقول صدقاً ، فهو يشك دائماً فى شكها به . لم يعد بإمكانه أن يفعل شيئاً بخصوص ذلك ، وعليه أن يستمر فى الكلام وكأنه يصدق

أنها تصدقه ، وهى (بتعبير شارد حزين) سألته عن المؤتمر المزعوم كى توضح له أنها لا تشك فى صحته .

ثم ذهبت إلى المطبخ لإعداد العشاء ، ملحته بزيادة ، كانت تحب الطبخ وتجيده (لم تدللها الحياة ولم ترغّبها بعيداً عن الواجبات المنزلية) وعرف كليما أن التفسير الممكن الوحيد لهذه الوجبة الفقيرة هو تعاستها . رأى ببصيرته الحركة العصبية الحادة ليدها وهى تضع ملحاً كثيراً فى الطعام ، فآلمه قلبه ، فى كل لقمة بدا أنه يتذوق دموعها ويطعم مِّن ذنبه ، عرف بأن كاميلا تعانى برح الغيرة ، وأنها لن تستطيع النوم هذه الليلة ، كان يريد أن يقبلها ، يلاطفها ، يريحها ، لكنه عرف أيضاً أن ذلك دون جدوى ، لأن هوائياتها لن تكشف رقته فحسب بل وضميره الفاسد أيضا .

فى النهاية خرجا إلى السينما ، وجد كليما فرصة جديدة فى مشاهدة بطل الشاشة ، الذى نجح فى الهروب من كل أنواع المؤامرات الغادرة برباطة جأش مذهلة. توحد مع بطل واثق من نفسه ، وتسامى بإحساس أن الكلام مع روزينا عن الإجهاض لن يبدو إلا تحدياً عابثاً ، لأنه بسبب من حظه وساحريته فلن يحرز إلا النصر ببساطة .

رقدا أخيراً جنب بعضهما البعض فى السرير الواسع . كان يرقبها . وهى ترقد على ظهرها ، رأسها منضغط فى المخدة ، ذقنها مرفوعة طفيفاً وعيناها مثبتتان فى السقف . فى توتر جسمها المميز (كانت تذكره دوماً بوتر مشدود ، وقد قال لها مرة إن بها روحا من الكمان) لمح فجأة كل جوهر كيانها . نعم ، تصادف أحياناً (كانت هذه لحظات ملغزة) : حركة أو لمحة واحدة منها كانت تكشف له فجأة كل تاريخ جسمها وروحها . بانت هذه اللحظات بنوع من الاستبصار الحاد والعواطف المجردة . إن هذه المرأة التى أحبته حين كان امرأ غفلا ، كانت مستعدة

دوماً للتضحية بكل شيء من أجل خاطره ، تتصفح باله وتفهم كل أفكاره حتى كان يكلمها عن أرمسترونج أو ستراڤنسكى ، عن الأمور الجادة والتافهة ، كانت أقرب إليه من أى امرىء آخر على الأرض ... كان يتخيل هذا الجسم اللذيذ ، هذا الوجه اللذيذ على أفضل صورة ، وأحس بأنه غير قادر على إنقاذ موتها ولو بيوم واحد . كان يعرف أنه مستعد للدفاع عنها حتى آخر نفس ، وأنه قادر على التضحية بحياته من أجلها .

لكن فورة هذا الحب غير المحدود كانت تتلاشى ، لأن باله مشغول تماماً من القلق والخوف . وهو يرقد جنب كاميلا ، عرف بأنه يحبها كثيراً . لكن روحه لم تكن ماثلة . مسّد وجهها ، لكنه أحس به على بعد أميال وأميال .

اليوم الثانى

(١)

كانت حوالى التاسعة صباحاً حين ارتكنت سيارة بيضاء أنيقة فى مكان الوقوف على حافة النبع (غير مسموح للسيارات بالدخول إلى النبع ذاته) .

شريط من الخضرة يمتد على منتصف الطريق الرئيسى مع أشجار قليلة ، ومدقات رملية ، وأفرع بألوان زاهية . وهناك عدد من النزل يحد الطريق الرحب من كلا الجانبين . كارل ماركس هاوس أحدها ، وفيه كانت لروزينا الممرضة غرفة صغيرة . فى تلكم الغرفة قضى عازف البوق ذات مرة ساعتين مصيريتين . وبمواجهة كارل ماركس هاوس، على الجانب الآخر من الطريق ، ينتصب أكثر النزل جاذبية فى النبع ، وهو منشأ على نسق العصر ، يغطيه زخرف من الجص ، ويزهو مدخله بموزاييك بديع . هذا هو المبنى الوحيد الذى سمح له بالاحتفاظ باسمه الأصلى : رشموند هاوس .

سأل كليما البواب «هل السيد برتلف ما يزال يعيش هنا ؟ » ، ولدى تلقيه الرد المؤكد هرول صاعداً السلالم ذات السجاجيد الحمراء إلى الطابق الثانى . طرق الباب .

جاء برتلف لتحيته وهو فى بيجامته . محرجاً بعض الشىء ، طلب كليما الصفح لاندفاعه على غير استئذان ، لكن برتلف قاطعه :

«صديقى العزيز ! لست بحاجة لاستئذان ! فلا يسعدنى أكثر من رؤياك هنا ثانية فى هذه الساعة المبكرة» .

وقال بعد أن صافح كليما : «فى هذه البلدة لا يقدّر الناس الصباحات . فهم يصحون فجأة ، على جرس منبه يقطع نومهم مثل ضربة فأس ، ثم يدفعون

بأنفسهم فجأة فى نشاط صاخب كئيب . قل لى ، كيف يمكن ليوم لطيف أن يبدأ بمثل هذه الوتيرة العنيفة ، الخرقاء ! ماذا يحدث للناس الذين يبدأون الحياة كل صباح بصدمة إزعاج صغيرة بشكل ملائم يسمونه جرس منبه ؟ فى كل يوم يصيرون أشد تكييفاً مع العنف ، ومعتادين بصورة أقل على البهجة . صدقنى ، إن مصير شخصيات الخلق يتحدد بصباحاتهم .» .

وضع برتلف يده على كتف كليما ليريحه فى كرسى وثير . واصل : «إنى أحب ساعات الصباح بلا فعالية ، كجسر بخط نحت جميل أتهادى فوقه من الليل نحو النهار ، من الحلم نحو الحقيقة . وخلال هذه الساعات ، كم أتوق لمعجزة ! معجزة صغيرة ، لقاء غير متوقع قد يقنعنى بأن أحلامى الليلية لا تنتهى مع الفجر ، وأنه لا توجد هوة ما بين مغامرات النوم ومغامرات اليقظة» .

راقب عازف البوق برتلف وهو يخطو جيئة وذهاباً فى الغرفة ، ممسداً شعره الأشهب بيده ، وأثناء سماعه لصوته الرخيم أدرك اللكنة الأمريكية العصية على الاستحواذ لبرتلف . اختياره للكلمات له سحر معين ، من طراز قديم ومستعد للإسهاب بحقيقة أنه لم يعش أبداً أى فترة من الزمن فى أرض أسلافه ، وأنه قد تعلم لغته الأم أساساً من والديه .

أضاف «وهل تصدق هذا ، يا عزيزى» ، منحنياً على كليما بابتسامة واثقة «فلا أحد فى هذا المكان بعازم على التكيف معى . حتى الممرضات ، اللطيفات على نحو ما ، يحدجننى بنظرات قاسية حين أحاول إغواءهن بقضاء ساعة متعة معى على الإفطار ، ولذلك فأنا مضطر لتأجيل هذه المناسبات إلى المساء ، حيث أصير بالفعل متعباً قليلاً ».

سار إلى التليفون ، القائم على منضدة صغيرة ، وسأل : «متى وصلت؟» .

رد كليما «هذا الصباح» ، «وصلت لساعتى» .

قال برتلف «لابد أنك جوعان» . التقط السماعة وطلب إفطارين كاملين : «أربع بيضات نصف تسوية ، جبنة ، زبدة ، خبز ، لبن ، لحم خنزير ، شاى» .

وبهذه الأثناء ، تفحص كليما الغرفة . مائدة مستديرة واسعة ، كراسى ، فوتيه وثير ، مرآة ، كنبتان ، باب يفضى إلى الحمام وآخر إلى الغرفة الملحقة التى هى – كما تتذكر – غرفة نوم صغيرة . وهنا ، فى هذه الشقة الساحرة ، بدأ كل شىء . هنا جلس مع زملائه العازفين سكارى حين أقام هذا الأمريكى الثرى حفله المميت للفرقة والممرضات .

قال برتلف : «هذه الصورة فى مواجهتك جديدة منذ آخر مرة كنت هنا » .

الآن فقط لاحظ عازف البوق اللوحة ، والتى تصور رجلاً ملتحياً مع قرص أزرق باهت غريب خلف رأسه ، يمسك فرشاة ولوح الألوان . بدت غير بارعة ، لكن عازف البوق أدرك أن كثيراً من اللوحات التى تبدو ثقيلة الوطء هى من فعل فنانين مشهورين فعلاً .

«من رسمها؟» .

رد برتلف «أنا» .

قال كليما «لم أعلم بأنك فنان» .

«أحب أن أرسم» .

«ومن ذلك الرجل؟» أحس كليما بجرأة السؤال .

«القديس لازاروس» .

«لكن لازاروس لم يكن فناناً بالتأكيد ؟» .

«هذا ليس لازاروس الإنجيلى ، لكنه القديس لازاروس . كاهن كان يعيش بالقرن التاسع فى معتزل . إنه قديسى الراعى» .

قال عازف البوق « أرى » .

«كان قديساً غريباً للغاية . فهو لم يضح بالأوثان لأنه آمن بالمسيح ، لكن ضحى بالمسيحيين الأشرار لأنه كان يحب أن يرسم. وكما قد تعلم ، ففى القرنين الثامن والتاسع اكتسب الزهد الصارم هيمنة على الكنيسة الأرثوذكسية ، زهد يعادى كل مباهج الدنيا . دمر الامبراطور تيوفلوس آلافاً من الصور البديعة ، ومنع معشوقى لازاروس من الرسم . لكن لازاروس عرف بأن الرسم ما هو إلا مديح للرب ورفض أن يخضع . فسجنه تيوفلوس وعذبه ليجبره على التخلى عن فرشاته ، لكنه الرب كان رحيماً ومنح لازاروس القدرة على تحمل أشد العذابات قسوة».

قال عازف البوق بتهذيب «هذه حكاية بديعة» .

«صحيح . لكنى متأكد أن لديك سبباً أفضل للمجيىء عندى من أن تتطلع إلى صورى» .

فى تلك اللحظة كان هناك طرق على الباب ودخل النادل حاملاً صينية كبيرة . وضعها على المائدة وشغل نفسه بترتيب أطباق الإفطار للرجلين .

طلب برتلف من عازف البوق أن يجلس إلى المائدة وقال : «هذا الطعام لم يُعدّ كى يلهينا عن متابعة حوارنا . قل لى ماذا يشغل بالك؟» .

وبهذا ، بين مضغ الأكل ، حكى عازف البوق قصته . وبين الحين والآخر ، كان برتلف يقاطعه بأسئلة دامغة .

(٢)

بادىء ذى بدء ، تحير برتلف من برود كليما تجاه روزينا : لماذا تجاهل كل بطاقات دعوتها ، لماذا تظاهر بالغياب حين اتصلت ، لماذا فشل فى إظهار ولو لمحة طيبة واحدة قد تعطى ليلة حبهما القصيرة صدى واهناً ، ملطفاً ؟

اعترف كليمـا أنه لم يتصرف برقة ولا بكياسة . لكنه ادعى بأنه لم يقو على ذلك . بدا أن أى اتصال آخر مع الفتاة قد يكون منفراً له .

وهذا لم يرض برتلف . «أى أحمق بإمكانه أن يغوى فتاة . سهل . لكن أن تعرف كيف تتركها – فهذا يتطلب رجلاً ناضجاً » .

«أنت محق» اعترف عازف البوق بحزن «لكن كرهى ، ونفورى الذى لا يقهر ، كان أقوى كثيراً من كل نواياى الطيبة» .

استوضح برتلف «لا تقل لى بأنك تعاف النساء !» .

«ذلك ما يقولونه عنى»

«لكنك لا تبدو من ذلك النوع . لا يبدو أنك عاجز أو شاذ جنسياً !» .

«هذا صحيح . مشكلتى ليست فى العجز أو الشذوذ الجنسى ، إنها فى شىء أسوأ كثيراً» قالها كليما فى نبرة مكتئبة . «إنى أحب زوجتى . هذا هو سرى الشهوانى ، الذى يجده معظم الناس غير مفهوم تماماً .»

وكان هذا الاعتراف باعثاً لكلا الرجلين للوقوع في الصمت . بعد لحظات استمر عازف البوق : «لا أحد يفهم هذا ، وأدناهم زوجتى . فهى تظن أن العلامة الناجعة على حب رجل ما هو نقض اهتمامه بالنساء الأخريات . لكن هذا هراء . فهناك ما يدفعنى دوماً تجاه امرأة ما أخرى ، لكن بمجرد أن أملكها ، فإن نوعاً من القوة المرنة يقذفنى عائداً إلى كاميلا . وأحياناً ينتابنى الشعور بأننى أطارد تلكم الأخريات لصالح الارتداد ، طيران العودة الباهر نحو زوجتى (محتشداً بالرقة ، والشوق ، والخزى) ، التى أحبها أكثر فأكثر مع كل خيانة زوجية جديدة » .

«إذن فالأمر مع روزينا لمجرد توكيد حبك الراسخ لزوجتك» .

قال عازف البوق «بالضبط» ، «وهو توكيد مبهج للغاية ، أيضاً . فإن روزينا ساحرة تماماً للوهلة الأولى ، ثم يتبخر سحرها كلية خلال ساعتين . وهذه ميزة عظمى لأى رجل كى لا يمكث أطول ، ويمكنه أن يتطلع إلى إقلاع بديع برحلة العودة لمنزله» .

«صديقى العزيز ، أنت مثال تام على إثم الحب الزائد».

«كنت أظن أن حبى لزوجتى هو كنزى الثمين فحسب» .

«أنت مخطىء . فإن حبك المفرط لزوجتك ليس تبرئة لانعدام وفائك بل هو مصدره . لأن زوجتك تقصد كل شىء تقوله لك ، إن كل النساء الأخريات لا يعنين شيئاً ، أو لكى توضحه بعبارة أخرى ، إنهن عاهرات تقريبا . لكن هذا تجديف كبير ، وانعدام توقير لمخلوقات الله . صديقى ، مثل هذا الحب بدعة» .

(٣)

أفرغ برتلف فنجان شايه باندفاع ، نهض عن المائدة ، ذاهباً إلى الحمام . سمع كليما صوت الماء الجارى وبعده صوت برتلف : «هل تظن بأن الناس لديهم الحق فى وأد طفل لم يولد؟».

كان كليما مأخوذاً ثانية تماماً برسم القديس ذى الهالة . نظر إلى برتلف وكأنه چوبيتر المولع بالترف ، ولم يخطر بباله قط أن للأمريكان عقائد متدينة . وقد جبن الآن ، لأنه خشى أن برتلف على وشك الدخول فى الموعظة وأن واحته الوحيدة فى هذه الصحراء المعادية قد تنقلب لسراب . فقال بصوت غير مرتاح : «أأنت من الذين يسمون الإجهاض (قتلاً) ؟» .

مكث برتلف فى صمت طويل . ثم انبعث أخيراً من الحمام مرتدياً ملابسه وشعره ممشط .

قال «إن كلمة (قتل) تثير الكثير لدى أنف الجلاد» ، «وأنا مهتم بشىء آخر ، فأنت تعرف ، إنى أومن بأن الحياة لابد من قبولها بشكل تام وعلى إطلاقها . هذا هو الأمر الأول الذى له أسبقية على العشر الأواخر . كل شىء قريب الحدوث اليوم هو بين يدى الله ، ونحن لا ندرى شيئاً عن الغد . ما أسعى لقوله هو أن ذلك القبول التام للحياة يعنى التسليم بالغيب . والطفل هو جوهر الغيب ، أو هو الغيب نفسه . وأنت لا تملك أدنى فكرة عما سيؤول إليه الطفل ، ماذا سوف يعنى لك ، وهذا هو السبب الذى يدعوك للترحيب به . وإلا ستعيش نصف حياة ، تحيا مثل سباح بائس يجذف فى الماء الضحل قرب الشاطىء ، بينما البحر يبدأ حقاً حيث تكون المياه عميقة» .

اعترض عازف البوق بأن الطفل ليس يخصه .

رد برتلف «لا أدرى كيف تتأكد» ، «لصالح النقاش دعنا نزعم أنك على حق ، لكن عندئذ عليك الاعتراف بكل سماحة بأنك حاولت جاهداً أن تحادث روزينا فى أمر الإجهاض لأنك تعلم بأن الطفل يخصك . لقد فعلت ذلك لصالح زوجتك ولصالح عشقك الزوجى المفرط للغاية» .

رد عازف البوق «نعم ، أعترف» ، «إنى أستحثها على الإجهاض تحت أى ظرف» .

انحنى برتلف على إطار باب الحمام وابتسم : «إنى أفهمك ولن أحاول تغيير رأيك . فأنا عجوز علىّ اتخاذ مهمة إصلاح العالم . لقد أسديت لك رأيى ، وهذا كل شىء . وسأظل صديقك حتى لو لم تعتبر بنصيحتى ، ولسوف أساعدك حتى لو لم أكن متفقاً معك» .

نظر عازف البوق إلى برتلف ، الذى وهبه آخر الكلمات فى نبرات طنانة كأنها من نبى حكيم، بل وعطوف . هناك شىء مهيب به . بدا لكليما أن كل شىء قاله

برتلف هو عظة ، خرافة ، مَثَل ، إصحاح خرج من طبعة حديثة للإنجيل . أحس بأنه يود الانحناء أمامه (دعنا نتذكر بأنه كان تحت تأثير توتر انفعالي ، وتعرّض لإيماءات مبالغ فيها) .

ردد برتلف «لسوف أبذل كل ما فى استطاعتى كى أساعدك» ، «فى ومضة عين سوف نستدعى صديقنا القديم دكتور سكريتا ، والذى سيعالج الجانب الطبى من المشكلة . عليك فقط أن تخبرنى كيف تنوى التغلب على الاعتراضات التى سترفعها عليك روزينا» .

(٤)

كان هذا هو الأمر الثالث الذى ناقشاه . بعد أن شرح عازف البوق خطته ، قال برتلف : «إن هذا يذكرنى بشىء حدث لى فى غمرة شبابى ، حينما كنت أشتغل عاملاً فى الميناء . كانت هناك فتاة اعتادت أن تجلب لنا القهوة ، فتاة لها قلب عطوف بشكل استثنائى لم تكن تقول لا لأى واحد . كان الرجال عادة يقابلون رقة القلب هذه (والجسد) بوقاحة أكثر منها عرفاناً بالجميل . كنت الوحيد الذى أظهر لها احتراماً ولطفاً ، رغم أنى كنت الوحيد الذى لم يذهب معها للفراش ، رقتى هذه جعلتها تقع فى غرامى ، ولسوف يكون إهانة مخزية وتحقيراً لها لو لم أنم معها . فعلتها ، لكن لمرة واحدة فقط ، وبعدها شرحت لها أنى أحمل لها حباً روحياً كبيراً ، لكن ذلك العشق الجسدى بعد قد صار مستحيلا . انفجرت فى البكاء وابتعدت تجرى . حين تجاوزتنى فى الشارع كانت تنظر للناحية الأخرى ، ووهبت نفسها تماماً بكل اعتزاز للرجال الآخرين. مر شهران ، وبعدها أخبرتنى إنها حامل» .

«إذن حكايتك مثلى بالضبط!»

قال برتلف «يا صديقى» ، «ألا تدرك بأن قصتك هى ذات التجربة التى عاشها كل الرجال؟»

«ماذا فعلت ؟»

«لقد تصرفت بنفس الطريقة التى تخطط لها . هناك فرق وحيد . أنت تخطط بزعم أنك تحب روزينا ، بينما كنت بالفعل أكن حباً صادقاً للفتاة . بالنسبة لى ، كانت فتاة جديرة بالشفقة ، مستَغلة ، ومستَذَلة ، فهى مخلوق بائس لم يُظهر لها امرؤ أى إحساس بالعطف ، ولم تكن تريد أن تخسرنى . أدركت أنها تريد إظهار ذلك بإحدى الطرق ، بالطريقة الوحيدة التى انفتحت لإدراكها البرىء . لم أغضب منها بخصوص ذلك . ها هو ما قلته لها : «أعلم علم اليقين أن شخصاً آخر قد جعلك حبلى . لكنى أعرف أيضا أنك اتخذت هذه الحيلة بسبب مشاعرك الحارة نحوى ، وأنك ترغبين فى رد حبك لى . أنا لا يعنينى لمن هذا الطفل . ولو كانت هذه رغبتك ، فسوف أتزوجك » .

« هذا هو الجنون ! »

« ربما . وقد يكون هـذا أشـد تأثيراً من خطتـك المقصـودة . ظللت أؤكد لهـا أنى مغرم بها لدرجة كبيرة وأنى جاد بـشأن الزواج منها ، والطفل وكل شىء . وأخيراً انفجرت الشحرورة الصغيرة فى البكاء واعترفت أنها تكذب علىّ . قالت إن رقتى جعلتها تعى بأنها غير جديرة بى ، وأنها لن تفكر مطلقاً فى الزواج منى » .

لبث عازف البوق فى صمت متأمل ، وأضاف برتلف : «آمل أن تعتبر هذه الحكاية بغـرض الأمـثـولة عندك . لا تحـاول التظاهر بحب روزينا . بالعكس ، حاول أن تنمى غراماً صادقاً معها . حاول أن تحس بعاطفة ما . حتى لو كانت

تخدعك ، فحاول أن تنظر لخديعتها كأنها أداة لحبها . أنا متأكد أنها لن تقدر على مقاومة مقدار عاطفتك ، وهى بنفسها سوف تتخذ الخطوات الضرورية لتجنب إيذائك.»

تركت كلمات برتلف تأثيراً كبيراً على عازف البوق . لكن ما أن استحضر روزينا بحيوية فى باله ، حتى أدرك أن درب الحب الذى أوضحه له برتلف كان شاقاً عليه ، إنه درب القديسين لا الرجال العاديين .

(٥)

كانت روزينا تجلس وراء منضدة فى غرفة العلاج الواسعة . والنساء اللاتى أجرين فحوصات علاجية متنوعة كن يرتحن فى أسرة تصطف على الحوائط . كانت تفحص بطاقات العلاج لمريضتين وصلتا حديثاً . كتبت تاريخ الدوام على البطاقتين ، وأعطت المرأتين مفاتيح خزانتين ، مناشف ، وملاءات بيضاء طويلة . ثم نظرت فى ساعتها وراحت إلى الحوض فى ظهر الصالة (كانت تلبس فقط معطفاً أبيض على جسمها العارى لأن الصالات المبطنة كانت دافئة بالبخار) . حوالى عشرين امرأة عارية كن يرشرشن بالماء فى احتفال بحوض الاستشفاء. نادت على أسماء ثلاث منهن ، كى تعلمهن أن فترة استحمامهن المقررة قد انتهت. تدافعت السيدات للخروج من الحوض فى طاعة ، وهززن أثداءهن المتبخترة التى تنقط وراء روزينا مرحات ، ثم قادتهن إلى غرفة العلاج أماماً . رقدت السيدات هناك على الأسرة الفارغة وشرعت روزينا للعناية بكل واحدة على حدة : لفت كلاً منهن فى ملاءة ، مستخدمة طرفاً منها لمسح عينى المريضة ، وتلقى أخيراً بالبطانيات الدافئة عليهن . ابتسمن لها ، لكن روزينا لم تبادلهن الابتسام .

لم يكن مبهجاً أن تولد فى بلدة صغيرة يغزوها كل عام عشرة آلاف امرأة ويكاد ينعدم الرجال الشبان . لو خططت امرأة أن تعيش هناك على الدوام ، فإنه بمرور الوقت حين تبلغ الخامسة عشرة يصير من المحتمل أن تأخذ صورة واضحة تماماً لكل الاحتمالات الغرامية التى قد تهبها لها الحياة . وبالنسبة للتنقل هنا وهناك – فإن النبع الذى تعمل فيه روزينا يمانع تماماً فى إراحة أى من مستوظفيه كما أن والدى روزينا ، كذلك ، ينفجران حنقاً لدى أى لمحة للتنقل المحتمل . ومن المفهوم إذن أنه رغم أن روزينا على وجه العموم تشبع واجباتها فى أداء مسئول ، فلم تكن تنغمر تماماً فى عاطفة تجاه مرضاها . دعنا نورد ثلاثة أسباب لمنهجها :

الحسد : إن النساء يأتين للمنتجع الصحى بدون صحبة أزواجهن وعشاقهن ، بعيداً عن العالم الزاهى الذى تظن روزينا أنه يزدهر بآلاف الفرص دائماً وليس فى متناولها ، على الرغم أن لها ثديين أكثر وسامة ، وساقين أطول ، وملامح منتظمة أكثر بكثير من كل مرضاها .

وبالإضافة للحسد ، الصبر : فهن يأتين بتواريخهن الملونة ، بينما تظل هى من دون تاريخ ، مصيرها لا يتغير من عام إلى عام . وكان يفزعها أن تعيش بدون حياة فى البلدة الصغيرة زمانها فارغ من الأحداث ، ورغم أنها لا تزال شابة فهى مشغولة البال دوماً بفكرة أن حياتها سوف تنتهى قبل أن يتاح لها فرصة أن تبدأ الحياة .

وثالثاً : فقد كانت تحس بنفور غريزى من الحشد النسائى الذى يقلل من قيمة المرأة الفرد على هذا النحو . كانت محاطة بوفرة كئيبة من الأثداء ، مجرد انتفاخات تجعل صدراً مدبباً كالذى تملكه يفقد قيمته .

وبتعبير ممتعض انتهت تواً من تقميط آخر السيدات الثلاث ، حينها أسندت زميلتها النحيلة رأسها بجدار الغرفة ونادت : «تليفون !»

كانت تنظر وهى مستثارة حتى عرفت روزينا على الفور من على التليفون ، توردت وهى تلتقط السماعة .

حياها كليما وسألها متى تفرغ .

ردت : « فى الثالثة » ، « ويمكن أن نصير معاً حوالى الرابعة » .

ثم ناقشا أفضل مكان للقاء . اقترحت روزينا أكبر خان فى البلدة ، فهو يظل مفتوحاً طوال اليوم . أومأت بالموافقة عندئذ زميلتها النحيلة والتى كانت تستند بقربها وظلت عيناها تتابعان فم روزينا . قال عازف البوق إنه يفضل رؤية روزينا فى مكان آخر ، بمفردهما ، واقترح أن يذهبا بسيارته إلى الريف .

سألته روزينا «ماسبب ذلك ؟ أين يمكننا أن نذهب ؟» .

«على الأقل نصير بمفردنا»

قالت روزينا «لو كنت تخجل منى فيمكنك أن تظل بالبيت؟» . أومأت صديقتها بتأكيد .

قال كليما «لم أقصد ذلك أبدا» ، «حسناً إذن ، لسوف أنتظرك فى الرابعة تماماً أمام الخان» .

«عظيم» قالت الممرضة النحيلة بعد أن أغلقت السماعة : «إنه يود لقاءك فى ثقب الحائط المظلم ، لكن عليك التأكد من أن كثيرا من الناس سوف يرونك بقدر المستطاع» .

كانت روزينا مرتبكة وعصبية بشأن اللقاء . فهى لا تستطيع تذكر الكثير عن كليما . ما شكله ، كيف يبتسم ، ما الذى ينطوى عليه ؟ إن مصادفتها الواحدة والوحيدة معه تركت فحسب ذكرى مبهمة . وقد استفهمت زميلاتها بشغف عن عازف البوق الشهير ، أردن معرفة كل شىء عنه : ماذا قال ، كيف بدا بدون

ملابس ، وكيف مارس الحب . لكنها لم تكن قادرة على إخبارهن بأى شىء محدد، وظلت تردد فقط إن ذلك كان حلماً .

لم يكن هذا مجرد فكرة غائمة . فإن الرجل الذى قضت معه ساعتين فى الفراش كان مثل صورة على ملصق استعاد حياته فجأة ، آخذاً أبعاده الثلاثة ، والدفء ، والوزن ، فقط لينحل مرة أخرى فى صورة مسطحة بدون ألوان جمعتها آلاف النسخ وبهذا صارت كلها مجردة أكثر وغير حقيقية .

نعم ، لقد تملص منها ، فإن حقيقته المتلاشية قد انتقلت إلى أيقونة تركت روزينا بإحساس غير مريح عن كماله . لم تستطع القبض على أى تفصيل متماسك قد يجعله ينزل قربها . ولطالما ظل بعيداً ، فسوف تمتلىء بتصميم روحى، لكنها الآن وقد استبقت قربه ، فقد شعرت بنفسها وهى تخسر الشجاعة .

قالت المرضة النحيلة «حظ سعيد» ، «سأظل على جعل أصابعى فى وضع متقاطع !» .

(٦)

بعد أن أنهى كليما محادثته التليفونية مع روزينا ، أخذه برتلف من ذراعه وقاده إلى ماركس هاوس ، حيث مكتب الدكتور سكريتا وشقته . نساء كثيرات يجلسن فى غرفة الانتظار ، لكن برتلف ذهب دون تردد ومباشرة إلى باب غرفة الفحص وطرق أربع طرقات قصار . وفى لحظات خرج رجل طويل ذو معطف أبيض ، ترتاح نظارته على حافة أنف ناتىء بشكل غير معتاد . قال «لحظة واحدة ، رجاء» إلى السيدات فى غرفة الانتظار وقاد الزائرين صاعداً السلالم إلى شقته بالدور الثانى .

«كيف حالك ، يا مايسترو ؟» حيا عازف البوق بعد أن ارتاح ثلاثتهم . «متى سوف تعالجنا بحفل موسيقى آخر ؟»

رد كليما «لن أكررها ، ما حييت» ، «هذا المكان يجلب لى سوء الحظ» .

بعد أن أوضح برتلف وربطة عازف البوق للدكتور ، قال كليما : «سأمتن كثيراً لمساعدتك . أولا ، أريد أن أتأكد أنها حامل فعلاً . قد تكون الدورة تأخرت قليلا . أو قد تكون تريد توريطى . حدث ذلك لى مرة من قبل . كانت شقراء تلك المرة ، أيضا» .

قال دكتور سكريتا «لابد أن تبتعد عن الشقراوات» .

وافقه كليما «أنت على حق» ، «الشقراوات سبب خرابى . يا دكتور سكريتا ، ليس عندك أى فكرة عن هذا الكابوس . لقد حرضتها أن تقوم بفحص طبى . لكن فى المراحل الأولى للحمل لا يقول الاختبار أى شىء. لهذا أريدهم القيام باختبار حمل . إنهم يحقنون الفأرة بالبول – »

أفحمه دكتور سكريتا «ولو بدأت مبايض الفأرة تزدهر ، فهناك مشكلة لدى السيدة» .

«كان لديها عينة من بول الصباح فى زجاجة صغيرة ، ذهبت معها ، وبمجرد وصولنا للعيادة أوقعت الزجاجة على الرصيف . انحنيت على هذه الشذرات كأنها من كأس القربان المقدس ، محاولاً إنقاذ هذه القطرات الثمينة . هى فعلت ذلك عمداً ، كانت تعرف تماماً أنها ليست حاملاً وأنها تحتاج فقط أن تمد من خيط لوعتى بقدر الإمكان» .

قال دكتور سكريتا بنبرة توكيد «سلوك الشقراوات التقليدى» .

«أنت تعتقد أن الشقراوات يتصرفن بشكل مختلف عن السمراوات ؟» سأله برتلف ، والذى لا يحترم بشكل واضح معرفة سكريتا عن النساء .

رد دكتور سكريتا «طبعا» ، «البياض والسمرة - هذان هما قطبا الشخصية الإنسانية . ذوات الشعر الأسود يظهرن الحمية ، والشجاعة ، والمباشرة ، ومبادرات ، بينما يرمز ذوات الشعر الأشقر للأنوثة ، والرقة ، والسلبية . إن الشقراء امرأة مضاعفة مرتين . ذلك السبب أن الأميرة لابد أن تكون بشعر أشقر. وذلك هو السبب فى أن النساء - كى يكن أكثر أنوثة بقدر الإمكان - يلون شعرهن بالأشقر لا بالأسود أبدا» .

قال برتلف «لدى فضول لمعرفة كيف يكون لخضاب الرأس تأثير على روح الإنسان» .

«ليس هذا أمر خضاب . فإن الشقراء ، حقيقية كانت أو ذات صبغ ، تكيف نفسها لا شعورياً مع شعرها . تحاول أن تغير نفسها إلى كائن هش ، دمية ، أميرة ، فهى تطلب الرقة والكياسة ، التودد والمديح ، لأنها غير قادرة على فعل أى شيء لنفسها ، كلها عذوبة من الخارج ورقاعة من الداخل. ولو ظهر الشعر الأسود موضة ، فإن العالم سيصير أكثر بهجة . وسيكون هذا هو أكثر إصلاح اجتماعى مفيد يمكن أن نجربه»

قال كليما«إذن أنت تعتقد أن روزينا تلعب علىّ فحسب» ، محاولاً إقحام بعض الأمل فى كلمات سكريتا .

رد د. سكريتا «لا . لقد فحصتها يوم قبل أمس ، هى حامل ، بالفعل » .

لاحظ برتلف امتقاع عازف البوق فقال : «يا دكتور ، أظن أنك رئيس اللجنة المرخص لها بالإجهاض ، أليس كذلك ؟»

قال سكريتا «نعم» ، «سنتقابل يوم الجمعة هذا» .

قال برتلف «عظيم» ، «هناك شيء لابد أن يتم حالاً ، قبل أن ينهار صديقنا تماماً هنا . وأعرف أن الحصول على إجهاض قانونى فى هذه البلدة أمر شديد الحساسية».

وافقه د. سكريتا «أمر بالغ الحساسية» ، «هناك امرأتان عجوزان في اللجنة من المفترض بأنهما يمثلان صوت الناس . قبيحتان هما مثل الخطيئة وتكرهان كل النساء اللاتي يأتين أمامنا . من أكثر بغضاً للنساء في العالم ؟ النساء ! لا الرجال – ولا حتى السيد كليما ، الذي ألصق مرتين بالفعل بتهمة الأبوة – أقول ، ليس هناك رجل يحس بمثل هذا الغيظ نحو النساء مثلما تحسه النساء تجاه بنات جنسها . لماذا تعتقد أنهن يطاردننا نحن الرجال ؟ لمجرد جرح وإذلال أخواتهن . وضع الرب كره النساء في قلوب النساء لأنه أراد من الجنس البشري أن يتكاثر» .

قال برتلف : «لسوف أسامحك لما قلته تواً ، لكن فقط لأن الوقت يمر وصاحبنا يريد المساعدة» ، «وبقدر ما نما لعلمي ، فأنت لديك الكلمة الأخيرة في هذه اللجنة، وهاتان الحيزبونان تستمعان لرأيك» .

«فعلاً لدي الكلمة الأخيرة ، هذا صحيح» رد سكريتا بحسم . «وعموماً ، فإني أود إسقاط الأمر كله . إنه مضيعة للوقت ، وأنا لا أتقاضى مليماً عليه . قل لي ، يا مايسترو ، كم تأخذ في أحد حفلاتك الموسيقية ؟»

أثار الدكتور المبلغ الذي ذكره كليما . «أتساءل غالباً إن كان بإمكاني كسب مال إضافي سهل كموسيقي لبعض الوقت . فأنا عازف درامز لطيف وبديع ، كما تعرف» .

«أنت عازف طبلة ؟» سأله كليما بمقدار الحماسة التي جمّعها في نفسه .

«نعم . في نادينا الاجتماعي عندنا بيانو وعدة طبول . وأنا أشد جلدها بين الحين والآخر ، حين يكون لدي فراغ من الوقت» .

صاح عازف البوق «شيء خرافي !» ، سعيداً بأن واتته الفرصة لتملق الدكتور .

«المشكلة أنه ليس هنا أحد لتكوين فرقة جاز مقبولة . هناك فقط صيدلى ، يعزف بيانو على قدر من الجودة . نكون زوجاً بكل دورة انعقاد معاً . قل لى ، عندى فكرة !» ثم سكت . «حين يأتى ميعاد روزينا مع اللجنة ...»

« آمل فقط أن تظهر الموافقة ! » وتنهد كليما .

لوح د. سكريتا بذراعه . «كلهن يظهرن الموافقة ، فلا تقلق . لكن اللجنة تتطلب وجود الأب ، أيضا ، إذن فسوف تأتى معها . وبهذا فلن تتكلف الرحلة لمجرد هذا الهراء ، أقترح بأن تأتى اليوم الذى يسبقه - ذلك سيكون الخميس - ونرتب لك حفلاً بتلك الأمسية . بوق ، وبيانو ، ودرامز . أوركستر ساحر فعلاً . وباسمك على الملصقات ، فإن القاعة ستمتلىء عن آخرها . ماذا تقول ؟» .

إن كليما يحرسه دائماً تلك النوعية الحرفية من عازفيه بتكريس متعصب تقريباً ، وفى اليوم السابق فحسب كان اقتراح الدكتور يبدو محالا له . أما اليوم ، عموماً ، فهو لا يهتم بأى شىء عدا أعضاء جسم المرضة المتكاثر، وقد استجاب لطلب الدكتور بحماسة مهذبة : «سيكون شيئاً خرافياً !» .

«حقيقى ؟ أعجبتك الفكرة ؟»

«بالتأكيد»

استدار سكريتا إلى برتلف : «وأنت ، ماذا رأيك» .

«أعتقد أنه مشروع عظيم . أنا قلق فقط بخصوص التوقيت - فإن يومين ليسا بالكثير على طريقة الإعداد» .

بنوع من الرد ، نهض سكريتا ومشى إلى التليفون. أدار رقما لكن لم يرد أحد، قال «الرقم - أمر تشغيل للملصق . يجب أن نبدأ به على الفور . لكن سكرتيرتنا خرجت للغداء» . «استخدام الصالة ليس مشكلة . إن جمعية التعليم

العام ترعى محاضرة عن الكحوليات يوم الخميس . من المفترض أن يتحدث أحد زملائنا تلك الليلة ، لكنه سيكون سعيداً وهو يلغى أمراً يتعلق بالمرض . بالطبع ، عليك أن تكون هنا حوالى الظهر ، لتمنحنا وقتاً لبروفة قصيرة . أو تظن أن ذلك غير ضرورى ؟» .

أجاب كليما «على العكس» ، «هى فكرة حسنة جدا . نحن نحتاج لتعارف دافىء قليلا معاً» .

قال سكريتا «ذلك ما فكرت فيه» ، «دعنا نستعد بذخيرة ألحان صادمة ، مع وقفات قليلة من مثل «سانت لويس بلوز (*)» و «حينما يأتى القديسون ...» وقد تدربت على أدوار فردية قليلة ، أيضا ، لدى فضول أن أراك تعجب بها ، وبالمصادفة ، ماذا سوف تفعل بعد هذه الظهيرة ؟ قد نستطيع أن نعطى الأمر دفعة» .

«لسوء الحظ ، هذه الظهيرة سوف أعقد لقاء مع روزينا للحديث معها حول أمر الإجهاض» .

لوح سكريتا بذراعه . «إلى الجحيم كل ذلك . سوف توافق بدون جلبة» .

«عموماً ، د. سكريتا» ناشده كليما «دعنا نترك ذلك للخميس ، لو لم يكن لديك اعتراض» .

جاء برتلف فى صف كليما : «أظن الخميس أفضل ، أيضاً ، فإن صديقنا اليوم بالكاد يجمع أفكاره عن الموسيقى . وبالإضافة ، فلا أعتقد أنه جلب آلته معه» .

اعترف سكريتا «أنت على حق» ، واستبق ليقود زائريه إلى مطعم عبر الشارع. لحقت بهم ممرضة سكريتا ، على أية حال ، وبلهجة عاجلة طلبت من الدكتور

(*) Blues : من أغاني الزنوج . (م)

العودة إلى المكتب . اعتذر سكريتا عن نفسه تاركاً المرضة تأخذه للعودة لإسعاف مرضاه العاقرات .

(٧)

كانت روزينا قد انتقلت إلى غرفتها فى كارل ماركس هاوس منذ ما يقربْ من نصف عام مضى ، وكانت تعيش سالفاً مع والديها فى قرية قريبة . وخلال هذه الأشهر الستة عرفت أن الاستقلال لم يجلب لها أى نوع من المغامرة أو البهجة التى توقعتها ولو فى الحلم .

الآن ، وهى تعود من العمل للبيت ، اندهشت فى غير بهجة حين وجدت أباها يستكن فى غرفة معيشتها الخاصة . جاءت هذه الزيارة فى وقت سيىء حيث كانت تتشوق لجعل نفسها جذابة بقدر الإمكان ، كى تهندم شعرها وتختار فستانا مشوقاً .

سألته بتوتر «ماذا تفعل هنا ؟» ، فقد كانت غاضبة من البواب الذى كان ودوداً مع والدها بل وعزم على السماح له بالدخول أثناء غيابها .

قال والدها «سنقوم بطرح البذور اليوم» ، «لدى راحة قصيرة الآن» .

كان عضواً فى الجمعية المدنية لمحاصيل المواطنين . وكانت الهيئة الطبية للنبع تسخر من هؤلاء المحاربين ذوى الستين أو السبعين عاماً بدواعى تجمّعهم وجلبتهم الطنانة ، وكانت روزينا خجلانة من انضواء أبيها تحت لواء هذه الجماعة .

دمدمت « إنى مندهشة من أنك تجشم نفسك عناء هذا الهراء » .

«لابد تفتخرى أن والدك لم يتبطل يوماً فى حياته ولن يفعلها ، قط . سنظل نحن العجائز نعلمكم أنتم الشبان شيئاً أو اثنين» .

قررت روزينا أن تجعله يتكلم وتركز فى ملابسها . ففتحت الدولاب .

«نعم ؟ مثل ماذا ؟»

«ستندهشين . خذى مثلا النبع الآن : إنه معروف على مستوى العالم . ومن المفترض أنه صار مقصد السياح . وانظرى فقط للفوضى بداخله ! فالأطفال تجرى سائبة على المروج ...» .

«ثم ماذا ؟» تنهدت روزينا ، وهى تنقب فى فساتينها . ولا واحد كان يعجبها .

«هؤلاء المزعجون أشرار ، لكن الكلاب ! هناك قانون بالكتب يفترض أن نوثق الكلاب ونكممها . لكن لا أحد يهتم ، فهم يفعلون ما يستهويهم . فى المرة القادمة عليك إمعان البصر فى الحديقة ! عار !» .

خلعت روزينا الفستان وبدأت تغيره خلف أبواب الدولاب نصف المفتوحة .

«هؤلاء المغفلون يبولون ويتغوطون على كل شىء ! حتى الرمل فى صندوق خزين الرمل ! فقط تصورى وليداً يلعب فى الرمل ويسقط «كعكة» على تلك الفوضى ! فلا عجب أن ينتشر المرض بالمكان . تعالى هنا !» أشار والد روزينا إلى النافذة . «انظرى فقط ! فى هذه اللحظة يمكن أن أعد أربعة كلاب تجرى بتوحش فى الحديقة» .

استكملت روزينا ارتداء فستانها ثم خطت للأمام كى تفحص نفسها فى المرآة المعلقة على الحائط . كانت المرآة صغيرة ، وكانت ترى بالكاد حتى خصرها .

قال أبوها «أعتقد أنك غير مهتمة بما أقول» .

ردت روزينا «نعم» ، وهى تبتعد عن المرآة على أطراف أصابعها كى ترى أثر الفستان الحادث على ساقيها . «من فضلك لا تغضب منى ، يا بابا ، لكن لابد أن أرى شخصاً خلال دقائق ولذا فأنا مستعجلة» .

قال أبوها «قدر ما نما لعلمي ، فإن الكلاب الشرعية فعلا هي كلاب الشرطة وكلاب الصيد»، «لكني لا أفهم لماذا يريد الناس تربية كلب في المنازل . النساء الجميلات الآن يتوقفن عن حمل الأطفال ويدفعن عربات الأطفال ملأى بكلاب البودل !» .

لم تكن روزينا راضية عن الصورة التي عكستها المرآة ، فعادت إلى الدولاب وبدأت تفتش عن فستان آخر .

«لقد قررنا أن يسمح للكلاب في شقة المنزل فقط على شرط أن تتربى وسط سكان لا وسط متاع السكان . واستوصينا كذلك برفع مبلغ رخصة الكلاب» .

قالت روزينا «أتمنى لو كانت عندي مشاكلكم» . خطر لها أنه من المستحسن ألا تعيش في بيت بعد الآن . فمنذ أن كانت صغيرة كان أبوها يفسد أعصابها بمواعظه ومحاضراته . وكانت تتوق لعالم يتحدث الناس فيه بلغة مختلفة .

«لا حاجة بك للسخرية . إن مسألة الكلاب أمر مهم . هذا ليس رأيي بالضبط ، إنه رأي بعض كبار رجال دولتنا . وأنا أخمن أنهم نسوا أن يسألوك عن رأيك المحترم . في الواقع ، لابد أن تخبريهم بأن أهم شيء في العالم هو اختيار الفستان الملائم» أضاف ، ملاحظاً أن ابنته قد خطت مرة أخرى وراء الدولاب كي تغير ثانية ملابسها .

«إن فستاني أهم بكثير من كلابك، هذا بالتأكيد» ردت بحدة ، وهي تمط نفسها أمام المرآة، لم تعجبها نفسها أكثر هذه المرة. لكن عدم الرضى عن نظراتها كان يتغير ببطء إلى الاستخفاف، فكرة أن عازف البوق سوف يراها في ملبس غير جذاب، وفقير، سيعجبه أم لا ، منحها رضى حقودا بشكل معين.

«هذا من شئون الصحة» واصل أبوها ، «فإن مدننا لن تصبح أشد نظافة طالما الأرصفة يملأها براز الكلاب. وهو كذلك من شئون الأخلاق. فليس صحيحا من الناس أن تصيح وتهدل على مجموعة من المغفلين الأغبياء».

شيء ما حدث لروزينا لم تدركه. فقد كان استخفافها ينبعث بشكل ملغز وضئيل مع سخط والدها. لم تعد تحس بنفور قوى نحوه، على العكس، فقد كانت تستخدم بلا وعى كلماته الغاضبة كمصدر للطاقة.

قال «نحن لم نرب كلبا فى البيت أبدا، ولم نفتقد ذلك» .

ظلت تحملق فى المرآة وأحست أنه مع حملها هناك مصدر للقوة ينمو بداخلها. مالم يكن يعجبها هو نظراتها؟ وظلت الحقيقة أن عازف البوق قد دفعها ليراها، وبذلة طلب لقاءها. وحقاً (لمحت ساعتها) فمن المحتمل بأنه ينتظرها فى هذه اللحظة.

«لسوف نرتب الأمر، فقط انتظرى وسترين!» ضحك أبوها، فردت بتهذيب، مع ابتسامة تقريبا:

«آمل ذلك ، بابا . لكن لابد أن أرحل الآن»

نزلا على السلالم سوية وودعها أمام مدخل كارل ماركس هاوس. سارت روزينا ببطء نحو الخان.

(٨)

لم ينجح كليما أبدا فى تعريف دور الفنان الشعبى الشهير بشكل كامل. ففى وسط مشاغله الخاصة الجارية، بدت شهرته الشعبية مثيرة للضيق نوعا : فمجرد أن دخل الخان ورأى صورته المكبرة تحدق فيه من ملصق كان معلقا منذ آخر حفل له، أحدق به إحساس من القلق الكئيب، قاد روزينا إلى غرفة الطعام، وهو يلمح بغير ارتياح حوله علامات تعرّف الضيوف عليه. كان يخشى عيونهم، بدا له أنه ملاحق بعيونهم، تعبير وجهه وملامحه لم يعد تحت كامل سيطرته. أحس بنفسه

أنه محك نظرات عديدة فضولية. حاول أن يتجاهلهم قاصدا مائدة فى الخلف، حيث كانت هناك نافذة كبيرة تطل على الحديقة .

مجرد أن اتخذا مقعديهما ابتسم لروزينا، دلك ذراعها، وقال إن فستانها كأنه هى. ترددت فى تواضع، وهو أصر مغازلا وحاول أن يفتتح الحديث عن سحرها . أخبرها أنه مشدوه بمظهرها . ولقد كان يفكر فيها طوال الشهرين الماضيين، وأن خياله انطبع بصورة لها كانت بعيدة فعلا عن الحقيقة. وقال رغم أنه كان يفكر فيها بعشق وسخونة، فقد كانت أجمل بكثير فى شخصها من خياله.

ردت روزينا إن عازف البوق قد تجاهلها كلية لمدة شهرين، وكان هذا غريبا نوعا، إذا أخذنا فى الاعتبار ادعاءه أنه يفكر فيها كثيرا.

جهز نفسه فى عمق لمثل هذا الاعتراض. لهث بتنهد عميق وأخبر الفتاة أن ليس لديها أى فكرة محتملة عن اللوعة التى اشتملته خلال هذين الشهرين. سألته أن يستوضح ، لكنه قال إنه يفضل ألا يدخل فى تفاصيل دنيئة. قال فقط بأنه هو الذى كان الضحية للجحود الفظيع، وأنه وجد نفسه فجأة لوحده فى كل العالم، دون صديق واحد.

كان قلقا من أن تضغط عليه روزينا لأجل تفاصيل أكثر عن عذاباته وقد ارتبك بسهولة فى أكاذيبه . لكن تورطه أثبت أنه دون جدوى. فقد استمعت إليه روزينا فى شغف وكانت سعيدة أن تجد استيضاحا لصمت كليما الذى دام شهرين، لكنها لم تتحيز لطبيعة سوء حظه الخالصة. الشىء الوحيد الذى كان يهمها بخصوص شهريه الحزينين هو الحزن ذاته.

قالت «فكرت كثيرا فيك وكنت أود أن أساعدك» .

«كنت مشمئزا من العالم كله حتى أننى لم أرغب فى رؤية أحد. فإن المكتئبين لا يقومون بصحبة جيدة».

« كنت وحيدة وحزينة، أيضا » .

دلك يدها. « أعرف » .

«عرفت من وقت طويل أنه سيكون لدينا طفل يجمعنا. وأنت لم تتصل. وسيكون لدى الطفل بأى شكل، لا تهتم ، حتى لو لم تأت، حتى لو لم تكن تريد أن ترانى ثانية. قلت لنفسى حتى لو كنت بمفردى تماما، فعلى الأقل عندى طفلك، ولن أتخلص منه أبدا. قط...»

أصابت كليما صدمة الفزع.

ولحسن الحظ، فإن النادل الذى كان يتسكع فى كسل بين الموائد، ظهر الآن وسألهما عما يطلبان.

قال عازف البوق بهدوء «براندى» ، ثم صحح نفسه بسرعة : «خله اثنين».

صمت أكثر.

همست روزينا : «لن أجعلهم يأخذون طفلى منى. ولا بأى مقابل فى العالم».

كشف عن مشاعره أخيرا: «لا تقولى ذلك. عموما، فلست الوحيدة التى تورطت، لأن الطفل ليس خطأ المرأة وحدها. فهو يخص اثنين.وعلى كل أن يتحمل شيئا مع الآخر، وإلا فكلاهما فى خطر حقيقى».

بمجرد أن خرجت الكلمات من فمه أدرك أنه اعترف بشكل غير مباشر بكونه والد الطفل، وأن كل حواره التالى مع روزينا سوف ينبنى على هذه الفرضية. كان يتصرف وفقا لخطة، وهذا الامتياز كان يضغط عليه بشكل كامل وهو يتقدم، على أية حال ، كان كليما مرتعبا من صوت كلماته.

جاء النادل باثنين من البراندى. قال «أنت السيد كليما، عازف البوق» .

«نعم»

«البنات فى المطبخ تعرفن عليك، فأنت هناك على الملصق!».

«نعم».

قال النادل «أسمع أنك معبود النساء من الثانية عشرة حتى السبعين» ، ثم استدار لروزينا : «ستموت النساء كلها من الحسد. لا تدعيهن يقلعن عينك!» وبينما كان يرجع للمطبخ استدار عدة مرات ، مبتسما بود وقح.

كررت روزينا : «لن أدعهم يأخذون الطفل منى، ويوما ما ستكون سعيدا، كذلك، أن لك طفلا. وأنا لا أريد شيئا منك . لا تفكر لحظة إننى سوف أضايقك. لا شيء تقلق منه. هذه مشكلتى أنا، ولو أردت فبإمكانك ترك كل شيء تماما لى».

لا شيء يجعل الرجل أكثر عصبية مثل هذا النوع من التأكيد. وأحس كليما أن قوته تنحسر بسرعة، يئس من إنقاذ أى شيء على الإطلاق فلبث فى صمت . تردد صدى كلمات روزينا الأخيرة خلال هذا الصمت كأنه يهزأ من عجزه البادى.

لكنه عندئذ فكر فى زوجته وأدرك أنه لابد ألا يستسلم. زلق يده من فوق المائدة الرخام حتى لامست يد روزينا . ضغط أصابعها وقال : «دعينا ننسى الطفل لحظة. إن الطفل ليس الشيء الأساسى، على أية حال. هل تظنين أن كليما ليس لديه أى شيء آخر للحديث حوله؟ تظنين أننى قدت السيارة إلى هنا لأراك من أجل خاطر الجنين؟»

هزت روزينا كتفيها.

«ليس عندك أى فكرة كم افتقدتك. شيء غريب، لقد عرفنا بعضنا الآخر لمدة قصيرة فحسب، ولم يكن هناك حتى يوم واحد لم أفكر به فيك».

سكت . فقالت روزينا : «ولا كلمة منك لمدة شهرين كاملين! وأنا كتبت لك مرتين!».

قال عازف البوق ، «لا تغضبى منى، حبيبتى» ، «فأنا لم أرد عليك عامدا . كنت خائفا من مشاعرى الفياضة بداخلى، وكنت أقاوم الوقوع فى الحب. أردت أن أكتب لك خطابا طويلا، وبالفعل سودت صفحات وصفحات من الورق، لكنى ألقيت به بعيدا، فأنا لم أقع فى الغرام بهذه الصورة من قبل، وهذا أفزعنى. فقد كان شيئا مختلفا. لماذا لم أعترف بذلك؟ أردت التأكد أن مشاعرى حقيقية، أنها ليست مجرد رقية سحرية سوف تتبدد سريعا كما جاءت. قلت لنفسى : لو ظللت حتى نهاية شهر واحد ممسوسا بهذا الحب، فسأعرف أنه حقيقى وليس سرابا».

قالت روزينا بنعومة : «وما رأيك الآن؟ أهو مجرد سراب؟»

بمجرد أن قالت هذا روزينا، أحس عازف البوق أن خطته شرعت تعمل. فظل يمسك يد الفتاة ويتكلم ويتكلم، براحة أكبر وأكبر. قال إنه فى هذه اللحظة، وهو يجلس هنا وينظر إليها، يدرك أنه لا حاجة به كى يعرض مشاعره لأى اختبارات أبعد، لأن كل شىء قد صار واضحا تماما فى باله. ليس هناك موضع للكلام عن الطفل، لأن روزينا هى المهمة بالنسبة إليه ، لا طفلها. إن هذا الطفل الذى لم يولد قد استدعاه فحسب إلى صف روزينا، تلك هى أهميته الفعلية. نعم، فالطفل داخلها هو الذى جلبه هنا إلى النبع وأظهر له مقدار حبه لروزينا، ولهذا السبب (رفع كأسه البراندى) فهو يشرب الآن فى صحة الطفل.

فورا، صار منزعجا من النخب المميت الذى أدت إليه حماسته اللفظية. لكن ذلك كان متأخرا للغاية، فقد خرجت الكلمات من فمه. رفعت روزينا كأسها، هامسة «نعم ـ فى صحة طفلنا!» وأخذت رشفة من البراندى.

حاول عازف البوق أن يدفن نخب سوء الحظ فى فيض من الكلمات وصرح من جديد بأنه كان يفكر فى روزينا كل ساعة من أيامه.

قالت إنها متأكدة أن هناك فى المدينة الكبيرة سرباً من النسوة الجميلات الساحرات يلاحقنه.

جابه ذلك بأنه قد شبع من غطرستهن، ومكرهن. هبت لفحة من هواء لكن روزينا كانت ملكة حقيقية، وأحس هو بشفقة فظيعة لأنه محكوم عليه أن يظل بعيدا عنها، ألا تستطيع الانتقال إلى العاصمة؟

قالت إنها تحب لو تفعل ذلك، لكن ليس سهلا أن تجد وظيفة فى المدينة.

ابتسم فى تسامح وقال إنه يعرف أناسا أصحاب نفوذ، وليس صعبا أن يجد لها مكانا فى عيادة أو مستشفى.

استمر يتكلم على هذه الوتيرة لمدة طويلة، مواصلا الاحتفاظ بيدها، لهذا فشل أن يلاحظ اقتراب فتاة صغيرة من مائدتهما. وبدون أن يعنيها أنها تزعجهما، صاحت فى تهور : «أأنت السيد كليما! لقد تعرفت عليك فى الحال! ممكن توقع الأوتوجراف؟».

استحى كليما. صار واعيا بأنه يزلق يده من يد روزينا ويعلن عن حبه لها فى مكان عام أمام عيون كل الحاضرين. أحس كأنه يجلس على مدرج مع العالم كله متحولا إلى علن مثير يراقب بحقد جذلان كفاحه الوجودى المستميت.

سلمته الفتاة ورقة. تاق كليما أن ينهى مسألة الأوتوجراف بسرعة بقدر الإمكان ، لكن لا هو ولا الفتاة كان لديه أى شىء يكتب به.

همس إلى روزينا «معك قلم؟»

هزت روزينا رأسها ، فعادت الفتاة إلى مائدتها. والآن فإن كل مجموعة رفيقاتها كن يغمطنها لفرصة لقائها بالعازف المشهور. تحلقن حول كليما، وسلمنه قلما جافا، وأخذن يمزقن قطعا من ورق كراسة ليوقعها كليما.

بخصوص خطته غير المعدة سلفا للتنفيذ، كان هذا حسنا : فكلما كبر عدد الناس الشاهدين على هذه الحميمية، كلما وثقت روزينا أن أمر حبها لكليما لازال بكامل قوته. لكن فى حالة كليما العقلية فإن هذه الأفكار المنطقية كان يغزوها هياج من القلق، وقد صار على شفير الذعر. تستحوذ عليه فكرة أن روزينا فى عصبية مع كل هؤلاء البشر، وكلهم سوف يتحمل الشهادة ضده فى أمر الأبوة : «نعم ، رأيناهما، كان يلتقيان سويا كزوج من العشاق، يدعك يدها ويحدق جذلان فى عينيها ...»

تفاقمت هذه المخاوف بغرور عازف البوق، فهو لم يعتبر روزينا جذابة بدرجة كافية تستحق هذا العرض العام لعاطفته. فى هذا المقام هو ظالم نوعا. فقد كانت فعلا أجمل بكثير مما كان يفكر فيه تلك اللحظة. ذلك لأن الحب يجعل المرأة المحبوبة أكثر جمالا، بينما ينتج القلق امرأة خائفة جاعلا كل معايبها تزداد إلى حجم غير متناسق ...

أخيرا تُركا لوحدهما فقال كليما : «أنا لا أحب هذا المكان على الإطلاق. ألا تحبين أن نتنزه فى السيارة؟»

كان لديها فضول بخصوص سيارته فوافقت. دفع كليما الحساب وخرجا. أمام المطعم حديقة صغيرة بأولها ممشى أصفر ترابى. حوالى عشرة رجال يصطفون على المدخل. معظمهم فى عمر متقدم. على أكمام جاكتاتهم المثنية شارات حمراء، وكل منهم يمسك عصا طويلة.

فزع كليما. «ماهذا الذى يدور فى العالم؟»

قالت روزينا بسرعة :«لاشىء . تعال، أرنى سيارتك» وحاولت جذبه بعيدا.

لم يستطع كليما، عموما، أن يحرف عينيه عن العجائز. لم يلمح ببساطة الغرض من العصى الطويلة المجهزة بأسلاك كهربية فى أحد طرفيها. قد يكون

الرجال من مشعلى المصابيح بالطراز القديم، أو صائدين للسمك الطائر، أو حراس بيوت مسلحين بسلاح سرى.

وبينما كان يراقب ، بدا له أن أحدهم يبتسم له. ذلك أخافه. كان يخاف بداية المعاناة من الهذيانات ويتصور أن الناس تتجسس عليه. وتحرك روزينا تقوده برشاقة بعيدا عن المكان إلى موقف الجراج.

(٩)

قال «أحب أن آخذك إلى مكان بعيد» . وضع يدا على عجلة القيادة، وذراعه الأخرى حول كتفى روزينا «الجنوب . أحب أن أقود بك على طول الطريق السريعة جنب البحر. هل تعرفين إيطاليا؟»

«لا.»

«عدينى أن تذهبى معى.»

«ألا تبالغ قليلا» ؟

قالت ذلك روزينا بحس بعيد عن التواضع، لكن عازف البوق انزعج من كلمة الفتاة «تبالغ» هذه والتى تشير إلى كل كلامه الغوغائى.

«نعم، أنا أبالغ. أفكارى دائمة متطرفة. ذلك هو أنا. لكن، بالخلاف مع الآخرين، أحاول أن أجعل أفكارى المتطرفة تبدو حقيقية . صدقينى، لا شىء جميل فى هذا العالم أكثر من حلم كبير قد يتحول إلى حقيقة. أتمنى لو كانت حياتى مجرد حلم واحد متطرف. أتمنى ألا نرجع أبدا إلى النبع، أتمنى لو يتاح لنا أن نقود السيارة قدما حتى نصل البحر. سأجد وظيفة فى أى فرقة ولسوف نهيم من بلدة إلى أخرى جوار البحر.

أوقف السيارة فى بقعة بمشهد طبيعى، نزلا منها، اقترح نزهة فى الغابة، لوهلة كانا يسيران على طول درب ثم جلسا على مقعد خشبى تخلف هناك من العصر الذى لم يكن الناس فيه يستخدمون السيارات كثيرا وكانت المتنزهات فى الريف أكثر شعبية، جعل ذراعه حولها، وفجأة قال فى صوت حزين :

«تعرفين، كل امرىء يظن أن حياتى كلها رقص، وهذا قد يكون أبعد شىء عن الحقيقة، ففى الواقع أنا أعيش تعسا، ليس فقط لمجرد الدقائق القليلة الماضية، لكن منذ وقت طويل ، طويل».

بدت كلمات عازف البوق عن الرحلة إلى إيطاليا غير حقيقية بالنسبة لها (عرفت أن السماح لها بالسفر للخارج فى حرية من الصعب للغاية الحصول عليه) وأثار لديها ريبة غامضة، وعلى النقيض ، فإن مسحة الحزن التى تتنسمها من كلماته تبدو ذات ريح طيبة عندها ، كانت تستطعمها مثل نكهة لحم خنزير مطهى تماما ،

«كيف يبدو، من بين جميع الخلق، أنك التعس؟»

«أنا هكذا، صدقينى» وتنهد عازف البوق.

«أنت مشهور، لديك سيارة باهرة، ومال، وزوجة جميلة،...»

قال عازف البوق فى مرارة «قد تكون جميلة،...».

قالت روزينا «أعرف» ، «فهى لم تعد شابة، هى كبيرة مثلك، أليس كذلك؟».

أدرك عازف البوق أن روزينا قد نجحت فى العثور على معلومة شخصية عن زوجته وأغضبه ذلك، فتحكم فى نفسه، عموما : «نعم، لنا نفس العمر».

«أوه، طيب، ليس هناك مشكلة من هذا المنطلق عندك، فلست عجوزا حقا ، تبدو بمظهر من الفتوة تقريبا».

قال كليما «لكن الرجل يحتاج امرأة أصغر منه» ، «خصوصا الفنان. أحتاج الشباب، ياروزينا، ليس عندك أى فكرة كم أحب شبابك. أحيانا أعتقد أننى لم أعد أتحمل ذلك، لدى رغبة أن أحرر نفسى، أن أبدأ كل شىء . روزينا ، إن المكالمة التليفونية بالأمس ـ قد جعلت قشعريرة تسرى بأعلى وأسفل عمودى الفقرى. كان عندى إحساس بأنها مكالمة من القدر نفسه».

قالت بنعومة :« هل ذلك حق ؟ » .

«لماذا تظنين أننى اتصلت لمجرد الرد؟ كان عندى إحساس قوى ألا يجب أن أتأخر، لابد أن أراك فورا، فى الحال، حالا...» وسكت محدقا فى عينيها . «هل تحبيننى؟»

«نعم. وأنت؟»

قال «أحبك كثيرا».

«وأنا، أيضا.»

انحنى عليها وقبل فمها. كان فما نظيفا، فما مفعما بالشباب، فما بديعا بشفتين ناعمتين محنيتين وأسنان نظيفة للغاية، كل شىء فيه كان يسر، عموما، الشهران الماضيان جعلاه يجد هذا الفم قابلا لكثير من القبل. لكن على وجه الدقة، ولأنه وجده مغريا تماما، فقد تفهم ذلك خلال غيمة من الرغبة ولم يعرف شيئا عن طعمه الحقيقى : طلع اللسان له مثل اللهب، ورضابها كان مثل جرعة مسكرة. إن مجرد فم ليس به أى جاذبية لهو فم حقيقى، فتحة تنشغل بعبور أحمال من الزلابية، والبطاطس، والحساء، فم بأسنان مجوفة كالجدرى وريق ليس هو الإكسير بل توأم بصاق منتفخ . إن اللسان الذى يملأ الآن فم عازف البوق هو لسان فعلا، لقمة كريهة لا يمكنه أن يبلعها أو يبصقها.

انتهت القبلة أخيرا . واستمرا فى السير. روزينا سعيدة تقريبا، وقد علمت أن المشكلة التى جعلتها تتصل بعازف البوق، المشكلة التى جلبته إلى هنا ، قد تم إهمالها بشكل غريب فى حوارهما. لم يكن عندها رغبة فى نقاشها طويلا. على العكس ، فإن موضوع حوارهما الحالى بدا أكثر متعة وأهمية. رغم ذلك، أرادت للمشكلة المهملة أن تكون معروفة، ولو بتحفظ، دون تطفل، وبتواضع. ولذا، فحين أكد كليما لروزينا - بعد إعلانات متعددة عن الغرام - أنه سوف يبذل ما فى وسعه لصنع حياة لها جديدة، عقبت :

«هذا من لطفك، لكن عليك أن تتذكر أننى لم أعد مجرد شخص واحد.»

قال كليما «نعم» . عرف بأن هذه هى اللحظة التى كان يخافها دوما، أكثر النقاط حساسية فى كل خطته الفوغائية.

رد هو «نعم، أنت على حق» ، «فقد صرت اثنين، وهذا غير مهم. فأنا أريد أن أكون معك لأننى أحبك، وليس لأنك حامل»

«نعم» تنهدت روزينا .

«لا شىء مفزع أكثر من اثنين يتزوجان لغير ما سبب عدا أنهما قد انزلقا ولهما طفل. وكأمر نقبله، ياعزيزتى، ونصرح به كالحقيقة - أريدك أن تكونى كما كنت من قبل ا ينبغى أن يكون هناك اثنانا فقط، دون أى آخر يأتى بيننا. هل تفهميننى؟»

احتجت روزينا «أوه لا، مستحيل! لا يمكن أن أفعل هذا! لن أفعل شيئا كهذا أبدا» .

قالت ذلك بعنف، لكن مقاومتها لم تكن نابعة عن أى اقتناع أساسى. وعموما فإنه فقط مجرد يومين مرا قد تثبت فيهما حملها وهذا بالتأكيد لازال طازجا للغاية

فى بالها حتى تعلن العصيان على أى خطة جديدة أو سبيل للحل. لقد كانت، عموما، تعى حملها كحدث كبير فى حياتها وكأنه فرصة لن تأتى عاجلا مرة أخرى. أحست كأنها بيدق ضعيف فى لعبة شطرنج، قد وصل إلى نهاية الرقعة، فأمكنه الترقية إلى ملكة. فتذوقت قوة جديدة غير متوقعة. رأت أن اتصالها قد وضع بحيز الفعل كل أنواع الأحداث : عازف البوق قد ترك منزله ليندفع إلى جانبها، ليرافقها فى سيارته البديعة، ليسدى لها صنيع الحب. وبوضوح، فقد كان هناك صلة بين حملها وهذه القوة المفاجئة، لتعلن الغرض الوحيد الذى قد يعنى خسرانها الآخر.

ولذلك فقد كان على عازف البوق أن يداوم دحرجة صخرته: «عزيزتى، إنى لا أشتاق لعائلة. أنا أشتاق للحب. أنت حبيبتى، والطفل يحيل كل حب إلى عائلة . إلى ملل. متاعب. روتين. المرأة المحبوبة تصبح أما عادية. لا يمكن أن أراك كأم. فأنت محبوبتى، وأنا لا أريد أن يشاركنى فيك أحد. حتى لو كان طفلا».

كانت هذه كلمات غزل، وروزينا سعيدة لسماعها، لكنها كانت تهز رأسها مع ذلك : « لا ، لا أستطيع فعل ذلك . إنه طفلك ! كيف يمكن أن أتخلص من طفلك؟»

لم يستطع التوصل إلى جدال جديد، لذلك ظل يردد نفس الكلمات، قلقا من أنها قد تصافح رياءه.

قالت «لقد اجتزت الثلاثين فعليا» ، «ألم تتمن مرة أن يكون لك طفل؟»

فى الحقيقة، الحق أنه لم يتمن، هو أحب كاميلا كثيرا لدرجة أن الطفل بدا وكأنه على الطريق. حين أوضح هذه الفكرة لروزينا منذ دقائق مضت، فهى لم تكن محض اختلاق خالص. فقد كان يقول نفس الشىء لزوجته عدة سنوات، بإخلاص وأمانة.

«أنت متزوج منذ ست سنين وليس عندك أطفال. وقد كنت في منتهى السعادة حين قدرت أن أهبك طفلا.».

أدرك أن كل شيء يتحول ضده. إن فيض حبه لكاميلا ظهر عند روزينا وكأنه نقص لخصوبة كاميلا وشجعها هذا على افتراض وقح.

كان الجو يزداد برودة، والشمس تدنو من المغيب، والوقت يتلاشى، واستمر هو يردد ما قد قاله لها بالفعل، بينما كانت تهز رأسها، (لا، لا، لا يمكنني). أحس بأنه في ممر معتم، لم يعرف أي طريق يروح وكل شيء بدا على حافة الكارثة. كان عصبيا للغاية حتى أنه نسي أن يحتضن يدها، أن يقبلها، أو يتحدث في نغمة صوت رقيقة. وكبداية أدرك ذلك وحاول إثارة نفسه. توصل إلى موقف ما، فابتسم لها، وحضنها . كان عناق التعب. ضغط عليها وقرب خده ليلامس خدها، وبالفعل، كان ينحني عليها، يرتاح، يلهث، لأن الطريق أمامه ظهر منحدرا تماما بالنسبة لقوته الشاحبة.

لكن روزينا كانت كذلك في نهاية قوتها. فهي لم تستطع جداله أكثر، وعرفت أن الرفض العنيد هو بالكاد الطريق للفوز بقلب رجل.

دام العناق وقتا طويلا ، وبعد أن أطلق كليما سراحها من ذراعيه، أحنت رأسها وقالت في لهجة مستسلمة : «طيب، قل لي ماذا أفعل.»

لم يجرؤ كليما على تصديق دموعه . فقد هلت فجأة وعلى غير توقع ، وكان ذلك راحة كبرى، كبرى لدرجة أنه تحكم في نفسه حتى لا يكشفها. دلك وجه الفتاة قائلا إن د. سكريتا من أعز أصدقائه، وكل ما عليها فعله هو أن تظهر نفسها خلال ثلاثة أيام في جلسة اللجنة. سيكونان هناك معا. ولا شيء يجب أن تخشاه.

لم تحتج روزينا، فاحتشد بتصميم جديد لإنهاء المعركة. وضع ذراعه حول كتفها، جذبها أقرب مرة أخرى، وقبلها ثانية (كان فرحه عظيما حتى أن شفتى روزينا قد حجبتها غيمة مرة أخرى). وظل يردد أمنيته بأن ينقل روزينا إلى العاصمة. وردد كلامه حتى عن رحلة إلى الجنوب.

حينذاك غطست الشمس وراء الأفق، وتحولت الغابة إلى ظلام، وارتفع القمر على رؤوس الأشجار. سارا عائدين إلى السيارة، وحين وصلا إلى الطريق السريع وجدا نفسيهما فجأة فى ضوء ذبذبة حادة من النور. ظنا فى البداية أنه قادم من النور الأمامى لسيارة عابرة، لكن النور بدا جليا أنه يتتبعهما. كان من دراجة بخارية واقفة على الطرف الآخر من الطريق. كان رجل يجلس عليها، يراقبهما بانتباه.

قالت روزينا «تعال، لنذهب سريعا» .

وبينما كانا يقتربان من السيارة نزل الرجل من على مركبته وسار متوجها نحوهما. رأى عازف البوق شبحا أسود يتحدد جنب نور الدراجة البخارية.

«انتظرى!» اندفع الرجل إلى روزينا. «أريد أن أتكلم معك! اسمعى منى! لقد جئت لأراك!» صرخ الرجل منفعلا.

كان عازف البوق عصبيا، كذلك ، ومنذهلا ولم يعد يحس بأى شىء عدا التوتر الغامض لدى الغريب ناقص التربية.

قال بشكل حاد «إن الشابة معى» .

«لدى كلمات قليلة معك أنت، أيضا!» صاح الرجل فى عازف البوق. «تظن لأنك مشهور فيمكنك الخروج مع من تريد ! تظن بإمكانك أن تسوق الفتيات لما تريد تحت أنوفنا! أكل ذلك سهل جدا لأنك فى غاية الشهرة!»

وبينما كان راكب الدراجة البخارية ينتبه هذه اللحظة إلى كليما، انتهزت روزينا فرصة الموقف بسرعة وزحفت إلى السيارة، أغلقت النافذة وأدارت الراديو، اندفعت موسيقى صاخبة في السيارة. زحف عازف البوق، أيضا ، ودخل صافقا الباب. خلال زجاج السيارة شاهدا بغموض الرجل وهو يصرخ بذراعيه الملوحتين.

قالت روزينا «إنه يتابعنا . مسعور» ، «دعنا نخرج من هنا!».

(١٠)

ارتكن بالسيارة، رافق روزينا إلى كارل ماركس هاوس، وقبلها مودعا. وبينما كانت تختفى فى المدخل أحس بأنه متعب وكأنه قضى دستة أيام دون نوم. كان الوقت متأخرا فى المساء، وقد جاع، وشعر بأنه لا يملك حتى القوة للجلوس خلف عجلة القيادة ليسوق. اشتاق لكلمات برتلف المريحة، فاستدار عبر الحديقة إلى رشموند هاوس.

أثناء ولوجه فى المدخل، لاحظ ملصقا كبيرا مضاء من نور الشارع. كان اسمه مكتوبا كبيرا وفى الأعلى، بحروف سمجة، مع أسماء سكريتا والصيدلى ظاهرة بحروف أصغر تحتها. كان الملصق مكتوبا باليد، ويظهر رسم بدائى لبوق بالذهبى.

إن العجلة التى نظم بها د. سكريتا الإعلان عن الحفل بدت كفأل حسن، يظهر أن الدكتور رجل يمكن الاعتماد عليه.

صعد كليما السلالم ودق على باب برتلف.

ليس من رد.

دق مرة أخرى، لا رد هناك.

قبل أن يتاح له الوقت ليفكر إن كان هو الأحمق (فالأمريكى معروف بأموره العديدة مع النساء) ، كانت يده تدفع بالفعل أكرة الباب لأسفل. لم يكن الباب مغلقا. دخل عازف البوق، ثم توقف لحظة، مجفلا. كانت الغرفة مظلمة تماما عدا نور ينبث من أحد الأركان، لم يكن النور شبيها بنور الفلورسنت الأبيض ولا نور المصباح الأصفر. كان أزرق ، هالة زرقاء غريبة.

في ذلك الوقت أخذ عقل عازف البوق البليد من يده المتهورة، وخطر له كم هو وقح فى دخول غرفة رجل آخر بدون استئذان، وفى ساعة متأخرة. ولأنه خجل من إساءة أدبه، فقد خطا عائدا إلى الصالة وبسرعة سك الباب وراءه. كان منذهلا، عموما ، فلم يرحل لكنه ظل واقفا عند الباب، محاولا أن يتبين أى ظاهرة ملغزة قد رآها توا. خطر له أن الأمريكى يجلد نفسه تحت نور فوق بنفسجى. لكن انفتح الباب فجأة وظهر برتلف. كان فى كامل ملابسه، ويرتدى نفس الملابس التى كان عليها فى الصباح. ابتسم لعازف البوق. «أنا سعيد لمرورك علىّ . ادخل».

دخل عازف البوق يملأه الفضول، لكنه وجد الغرفة مضاءة بمصباح عادى يتدلى من السقف.

قال عازف البوق «أخشى أن أزعجك» .

رد برتلف «لا على الإطلاق» ، مشيرا إلى النافذة، كانت من الناحية التى رأى فيها عازف البوق نفس النور منذ وهلة وهو ينبث. «كنت جالسا هناك، أفكر . وهذا كل شىء».

«حين خطوت للداخل من دقيقة - اعذرنى لإقحامى نفسى على هذا النحو - رأيت نوعا غريبا من الوهج».

«وهج» ضحك برتلف. «أتمنى ألا يكون الحمل قد أزعجك كثيرا. لأنه أصابك بالهلاوس.»

«قد يكون لأن عيني لم تأخذا وقتهما لضبط النظر. فقد كان الجو ظلاما دامسا بالصالة».

قال برتلف «ريما» ، «لكن قل لى ماذا حدث فى لقائك مع روزينا؟»

أعاد عازف البوق شرح الحكاية ، وبعد وهلة قاطعه برتلف : «لابد أنك جوعان!»

أومأ عازف البوق. فتح برتلف الدولاب وأخرج علبة بسكويت من الهش وقطعة من الخنزير، شرع فى فتحها مباشرة.

استمر كليما فى الكلام، شغوفا بازدراد عشائه وناظرا فى فضول على برتلف.

أكد له برتلف : «أظن أن كل شىء سينتهى على خير ما يرام» .

«وماذا تظنه ذلك الرجل الذى كان على الدراجة البخارية؟»

لم يبال برتلف . «لا أعرف. لكن لو معى ، فهو لا يعنى شيئا».

«هذا صحيح. إن مشكلتى الآن هى كيف أوضح لكاميلا لماذا أخذ المؤتمر وقتا طويلا».

كان الوقت متأخرا فعلا. وبينما كان عازف البوق منتعشا وهادئاً، فقد صعد لسيارته متوجها للعاصمة. وكان قمر كامل كبير ينير طريقه.

اليوم الثالث

(١)

كان صباح الأربعاء واستيقظ النبع مرة ثانية على دائرة نشاطه المنهمك. بدأت انبثاقات الماء تسرى فى الأنابيب، ثنى المدلكون أذرعهم، ومفارش جديدة تتجهز، ووقفت سيارة خاصة مباشرة إلى مكان الجراج. ليست السيارة المكشوفة الفارهة التى احتلت نفس المكان فى اليوم السابق، لكن سيارة مظهرها عادى وبسيطة. رجل فى الخامسة والأربعين حول عجلة القيادة، وكان بمفرده. المقعد الخلفى عليه أكوام عالية من حقائب السفر العديدة.

خرج الرجل، أغلق السيارة، سلم المنتظر بعض الفكة، ثم سار نحو كارل ماركس هاوس. دار فى طريقه عبر الصالة حتى وصل إلى مكتب د. سكريتا. بعد عبوره غرفة الانتظار، طرق باب حجرة الفحص. أخرجت ممرضة رأسها، قدم الرجل نفسه، وفى دقائق معدودات ظهر د. سكريتا :

«چاكوب! متى وصلت هنا؟»

«هذه الدقيقة».

قال بعد تفكير لم يدم لحظة «عظيم! لدينا وقت طويل حتى نفحص... اسمع» «لا يمكن أن أغادر الآن. تعال معى. سأعيرك معطفا».

لم يكن چاكوب طبيبا، ولم ير أبدا ما بداخل مكتب طبيب النساء. لكن د. سكريتا أمسكه من ذراعه توا وقاده إلى حجرة بحيطان بيضاء، حيث كانت امرأة عارية ترقد على ظهرها بساقيها مفتوحتين تماما.

قال سكريتا لمرضته «أعطى الدكتور معطفا» ، والتى فتحت دولابا وسلمت منه لجاكوب معطفا أبيض منشى نضرا. «تعال إلى هنا» استدار سكريتا إلى جاكوب. «أريدك أن تؤكد تشخيصى» . بدت المرأة سعيدة فعلا أن تنال خبيرا آخر ليكشف عن ألغاز مبيضيها، والتى رغم كل الجهود قد فشلت فى إنجاب الوريث.

استأنف د. سكريتا فحصه لأجزاء المريضة الحساسة، نطق بعدة تعبيرات لاتينية لجاكوب حيث غمغم بالإيجاب، ثم سأله : «ما مدة بقائك هنا؟»

«يوم .»

«فقط يوم واحد؟ هذا سيء للغاية، إنه لا يمنحنا حتى الوقت الكافى للكلام.»

قالت المرأة ذات الساقين المرفوعتين: «إنها تؤلمنى حين تلمسنى بهذا الشكل»

قال جاكوب ليسعد صديقه. «إنها تؤلم قليلا دائما ، هذا عادى فعلا» .

«نعم، الدكتور على حق» قال سكريتا «لا شيء عندك. عادى للغاية. سوف أكتب لك بعض الحقن، أريدك أن تأتى هنا كل يوم ، أول شيء فى الصباح، تعطيك المرضة الحقنة. يمكن أن تلبسى ملابسك الآن».

قال جاكوب «لقد جئت فعلا لتوديعك» .

«ماذا تقصد؟»

«أنا مسافر للخارج. أخيرا منحونى الإذن بالهجرة.»

أنهت المرأة المريضة ارتداء ملابسها ثم غادرت سكريتا وزميله.

صاح د. سكريتا «هذه مفاجأة قصوى ! لم تكن عندى فكرة! » ، «سوف أبعد هؤلاء النسوة حتى يتسنى لى الوقت ولو قليلا معك».

«لكن، يادكتور» تدخلت المرضة «لقد فعلت نفس الشيء بالأمس. مع نهاية الأسبوع سيتجمع لدينا ملحق!».

تنهد سكريتا «حسنا، أرسلى التالية» .

نادت الممرضة على المريضة التالية. نظر الرجلان لها غائبين عن الوعى، لكن لاحظا أنها أجمل من السابقة. سألها د. سكريتا إن كانت الحمامات قد جعلتها تتحسن، ثم طلب منها أن تتعرى.

«أخذ منى وقتا طويلا بشكل فظيع قبل أن يعطونى جواز السفر. حين تسلمته فى يدى، صرت مستعدا للرحيل خلال يومين. لن يضايقنى أن أودع أى أحد».

قال سكريتا «هذا يجعلنى سعيدا كل السعادة أنك مررت بى هنا» . طلب من المرأة الشابة أن تصعد على طاولة الفحص، ارتدى قفازا مطاطيا وأدخل يده فى رحمها.

قال چاكوب «لا أريد أن أرى أحدا عداك وأولجا». «آمل أن تكون بخير.»

قال سكريتا «هى بخير» ، لكن كان واضحا من صوته أنه يرد بطريقة آلية. كل تركيزه كان منصبا على المريضة ، قال «علينا إجراء عملية بسيطة . لا تقلقى، لن تتألمى البتة» . سار إلى دولاب يغطيه الزجاج وأخرج حقنة، بدلا من الإبرة ذات السن البلاستيكى القصير.

سأل چاكوب « ماهذا ؟ »

«بعد كل هذه السنين ولجت مدخلا جديدا له فعالية عالية. قد تظن بأن هذا يخصنى، لكن بالنسبة للوقت الحالى أفضل أن أستبقيه سرا لى»

«هل أنا فعلا بخير؟» سألت المرأة ذات الساقين المرفوعتين، بنبرة فيها خجل أكثر من الخوف.

رد د. سكريتا «تماما» ، حافرا طرف الحقنة فى أنبوب اختبار كان يمسكه بعناية شديدة، ثم خطا بالقرب من المريضة، أولج الحقنة مابين ساقيها، وضغط المكبس.

«هذا لا يؤلم، صحيح؟»

ردت «لا» .

قال جاكوب «السبب الآخر لمجيئى هو أن أرد لك الحبة.» .

مرة أخرى، استوعب د سكريتا بالكاد معنى ما يقصده جاكوب. كان انتباهه مشدوها تماما مع مريضته. كان يتفحصها من الرأس للقدم بوجه جاد مستغرق، ثم قال : «فى حالتك، من الأسف حقا ألا تنجبى أطفالا، لديك سيقان طويلة بديعة، وحوض بنيانه متين، وقفص ضلوع صلب، وملامح تسر للغاية».

ربت عليها تحت الذقن وأضاف : «وفك حازم لطيف، أيضا. كل شيء كأنه نموذجى فعلا.»

ثم قبض على فخذها «ولديك عظام صلبة رائعة. إنها تلمع فعلا من تحت عضلاتك.»

واستمر فى مديح قوام مريضته بالغ التناسق وهو يلامس جسمها. لم تحتج ولم تضحك فى غنج، لأن جدية اهتمام الدكتور تسامت بإيماءاتها فوق أى اقتراح ممكن لإساءة الأدب.

أخيرا أشار لها أن تلبس، واستدار إلى صديقه : «آسف، ماذا كنت تقول؟»

«إنى أتيت لأرد لك الحبة التى تخصك».

«أية حبة؟».

أثناء ما كانت تلبس قالت المريضة : «ألا تظن هناك أمل لى، يادكتور؟»

ردد د. سكريتا «أنا راض فعلا، كل شيء يأتينا فهو حسن، وكل منا - أنت وأنا - نتطلع للنجاح».

شكرت المرأة الطبيب ورحلت . قال چاكوب : «لقد أخذت يوما دواء مستحضرا منك لم يعطني أحد مثله. والآن لأني سأغادر البلاد، فلا أظن بأني أحتاجه من بعد وينبغي أن أرده إليك».

«حسنا، يمكنك الاحتفاظ بها. إن حبوبا مثل هذه قد تأتي لبدي من أي مكان».

«لا، لا. إن الحبة من صنع بلادنا هذه. لا أريد أن آخذ أي شئ معي لا ينتمي لي .»

قالت الممرضة «هل أستدعي المريضة التالية ؟» .

قال د. سكريتا : «اجعليهن كل هاته النسوة يرجعن» ، «لقد أديت ما عليّ من عمل اليوم . المريضة الأخيرة والتي خرجت للتو واثقة أن ستنجب ، أراهن على ذلك . هذا كاف من عمل اليوم ، هه ؟»

نظرت الممرضة للدكتور سكريتا نظرة حميمة أكثر منها حازمة . فهم الدكتور : «حسنا ، آه . لا تجعليهن يرجعن ، بل قولي لهن أني سأعود خلال نصف الساعة» .

«ذلك ما قلته بالأمس ، أيضا ، وكان عليّ أن أخرج ثم أقبض عليك في الشارع» .

قال سكريتا «لا تقلقي ، سوف أعود خلال ثلاثين دقيقة بالفعل» . علّق معطف صاحبه على الحاجز ، ثم قاده للخروج من الباب والعبور إلى الموقف تجاه رشموند هاوس .

(٢)

صعدا السلالم إلى الدور الثاني ثم سارا على سجادة حمراء طويلة حتى نهاية الصالة . فتح د. سكريتا الباب ثم دخل غرفة صغيرة لكنها مبهجة .

«رائعة طريقتك التى تتوصل بها كى تهيئنى لأى مكان»

«لقد جهزوا مجموعة من الحجرات على جانب فى نهاية هذه الصالة لمرضاى المحترمين . مباشرة جوارك هناك شقة على ركن بديع كانت تستخدم فيما سبق من قبل رجال الصناعة والوزراء . لقد وضعت فيها أحد مرضاى المبرزين هناك ، أمريكى ثرى جاءت عائلته من هذا الجزء من العالم . لقد صرنا أصدقاء مقربين» .

«وأين تعيش أولجا ؟»

«فى ماركس هاوس ، مثلى . ليس مكانا سيئا ، لا تقلق.»

«أنا سعيد بالتأكيد أنك أخذتها تحت جناحك . كيف حالها ؟»

«لديها المشاكل المعتادة التى تصحب النساء عاليات التوتر.»

«لا غرابة إذن . كتبت لك عما يدور فى حياتها» .

«معظم النساء يأتين إلى هذا المكان ليرجعن مخصبات . لكن التى تحت وصايتك من الأفضل لها أن تخرج دون إخصاب زيادة . هل رأيتها ذات مرة عارية ؟»

تعجب چاكوب «يا إلهى ، لا !» .

«إذن ألق عليها بنظرة متفحصة ذات يوم . إن ثدييها صغيران ومعلقان فى صدرها مثل زوج من البرقوق . يمكن أن تعد ضلوعها . من الآن فصاعدا عليها أن تولى اهتماما أكبر بقفصها الصدرى . إن القفص الصدرى السليم لابد أنه عدوانى ، منتصب أماما ، فسيح كأنه يريد أن يشتمل على فراغ أكبر بقدر الإمكان . لهذا ، فإن بعض الأقفاص الصدرية ، على سبيل الدفاع ، تنسحب من العالم . إنها تصير أضيق وأضيق مثل قميص المجانين الذى يخنق الشخص لدرجة الموت . ذلك هو شكل قفصها الصدرى . اسألها أن تريك إياه» .

«لا شئ عندى لمثل هذا النوع .»

«تخشى لو رأيت صدرها يوما ألا تعود تريدها تحت وصايتك» .

قال چاكوب «على العكس» ، «أخشى أن أحس بمزيد من الأسى عليها» .

قال سكريتا «على فكرة» ، «ذلك الأمريكى شخصية شائقة» .

سأل چاكوب : «أين يمكننى أن أجدها ؟»

«من ؟»

«أولجا» .

«لست بمستطيع أن تلحق بها الآن . فهى تتلقى علاجاتها . من المفترض أن تقضى كل الصباح فى الحمام» .

«أكره أن أفتقدها . ألا من طريقة للاتصال بالحمام ؟»

رفع د. سكريتا السماعة وضرب رقما دون أن يقطع حواره مع چاكوب : «سوف أقدمك إليه وأريدك أن تحلله لى . أنت محلل نفسى بارع . لدينا هو وأنا بعض الخطط ...»

سأل چاكوب «ما نوع هذه الخطط ؟» ، بينما كان سكريتا يتكلم فعلا فى التليفون :

«أنت الممرضة روزينا ؟ كيف حالك ؟ ... لا تقلقى بشأن ذلك ، فى حالتك هذا هو الأمر العادى . اسمعى ، أنا أتصل لأسأل إن كانت مريضتى هناك ، تعرفين ، التى تسكن مباشرة فى الباب التالى لك ... هل هى عندك ؟ إذن أخبريها أن شخصا هنا يريد أن يراها ... نعم ، رائع ، سوف ينتظرها أمام حمام السباحة فى الثانية عشرة بالضبط» .

وضع سكريتا السماعة : «سمعت ذلك . ستقابلك عند الظهر . اللعنة ، ما الذى كنا نتكلم فيه عندئذ ؟»

«عن الأمريكى» .

قال سكريتا «آه نعم» ، «إنه زميل باهر . لقد شفيت زوجته . كانت عاقرا» .

«وما هى مشكلته ؟»

«متاعب تخص القلب»

«قلت إنك وهو لديكما بعض الخطط ؟»

قال سكريتا بغضب «إنه عار مخجل» ، «ما الذى يملكه دكتور فى هذا البلد كى يواصل يمكن أن يجعله يحيا فى مستوى لائق ! غدا سوف يأتى عازف البوق الشهير كليما . ولسوف أزامله على الدرامز ، لمجرد الحصول على مبلغ ضئيل» .

فكر چاكوب أن سكريتا يمزح ، لكنه تظاهر بأنه يأخذ كلام صديقه مأخذ الجد: «ماذا تقصد ؟ هل تعزف على الدرامز ؟»

«تراهن . ماذا لدى من اختيار الآن وأنا على وشك تكوين عائلة ؟»

«ماذا ؟» هذه المرة كان چاكوب مندهشا حقا . «عائلة ؟ لا تقل لى بأنك تزوجت !»

«فعلتها .»

«كيفيتا ؟»

كانت كيفيتا طبيبة فى النبع . هى وسكريتا كانا صديقين حميمين لسنوات ، لكنه كان ينجح دائما فى الروغان من الزواج .

قال سكريتا «نعم ، كيفيتا» ، «تتذكر كيف كنا أيام الآحاد ، هى وأنا ، نتمشى دائما إلى المرصد ؟»

«إذن تزوجت فى النهاية» قال چاكوب وهو حزين .

«كل مرة ونحن نصعد برج المرصد ، كانت كيفيتا تحاول الكلام معى بشأن الدخول فى الزواج» استمر سكريتا . «وكنت أُصدم دائما ويلفنى الوقت حتى وصولى القمة لدرجة أنى أحس بالزمن والتعب وأتجهز لحالة الزواج . لكنى كنت أتوصل دوما للتحكم فى نفسى بالوقت المناسب ، وفى نزولى كنت أسترد كل طاقتى ونشاطى وأصير سعيدا تماما لأنى مازلت أعزب . فى يوم أحد مميت ، مع ذلك ، أخذتنى كيفيتا عبر طريق دائرى وكان الصعود مرهقا للغاية حتى أنى لهثت بـ «نعم» قبل أن نصل للقمة . الآن نحن ننتظر الوليد وعلىّ الآن أن أفكر بخصوص الفلوس . يرسم الأمريكى صورا دينية . يمكنها أن تجلب حزمة من المال . ما رأيك ؟»

«هل تظن بأن الصور الدينية يمكن أن تجد لها سوقا هنا ؟»

«بالطبع ! حينما يكون هناك حجيج فيمكن أن نشرع فى إنشاء موقف جنب الكنيسة وسوف نبيع مئات منها ! كلانا سيكون ثريا ! قد أكون وكيله وأقسم الأرباح معه.»

«وماذا قال ؟»

قال سكريتا «ذلك الأحمق لديه مال كثير حتى أنه لا يعرف ماذا يفعل به. لا يبدو أنى سأكلمه فى أى نوع من أمور البيزنس» . ثم شتم من وراء أنفاسه .

(٣)

رأت أولجا الممرضة روزينا تلوّح لها من حافة الحمام ، لكنها ظلت تسبح متظاهرة أنها لم تلاحظ .

لم تكن المرأتان تحب إحداهما الأخرى . كان د. سكريتا قد وضع أولجا فى غرفة جنب غرفة روزينا . وكان لرزوينا عادة أن تفتح الراديو عاليا ، أما أولجا

فهى تحبه هادئا . وكانت تدق على الحائط فى مناسبات عدة ، وتستجيب لها المرضة بجعل صوت الراديو يعلو أكثر .

تلوح روزينا الآن بذراعيها فى صبر ، حتى نجحت أخيرا فى لفت انتباه المريضة وأخبرتها أن ثمة زائرا من العاصمة وأنه سوف يلقاها فى الثانية عشرة .

خمنت أولجا على الفور أنه چاكوب ، لهذا امتلأت بسعادة غامرة . هذه السعادة أدهشتها ؛ فسألت نفسها لماذا سعدت حين عرفت بمجيئه . كانت أولجا واحدة من أولئك النسوة العصريات اللاتى يحببن أن يشطرن أنفسهن إلى كائن مجرب وكائن مراقب .

لكن الآن ، فحتى أولجا المراقبة كانت تستمتع بنفسها . كانت واعية تماما أنه غير صحيح بالنسبة للأخرى ، أولجا المجربة ، أن تكون سعيدة . ولأن أولجا المراقبة كانت حاقدة على هذا الخطأ الذى منحها سعادتها ، فقد سلّت نفسها بمحاولة تصور كم سيخاف چاكوب لو علم كثافة عملها .

كان عقربا الساعة على الحمام يشيران إلى الثانية عشرة إلا ربعا . حاولت أولجا أن تتصور وجه چاكوب لو رمت بنفسها حول رقبته وقبلته بحرقة . سبحت إلى حافة الحمام ، صعدت ، ثم راحت إلى الكابينة لتغير ملبسها . ضايقها أنها لم تعلم عن زيارته من قبل . كان يمكن أن ترتدى ملبسا أكثر جاذبية . وهى الآن ترتدى فستانا رماديا سخيفا أفسد عليها مزاجها .

أحيانا ، مثل الرجوع فى حمام السباحة ، تكون غافلة تماما عن مظهرها . لكنها تقف الآن أمام مرآة صغيرة وترى نفسها فى فستانها الرمادى السخيف . من عدة دقائق مضت فحسب كانت تبتسم بمكر لدى فكرة عناق وتقبيل چاكوب . لكن ذلك خطر لها فى الحمام ، حيث كانت تطفو كروح

طليقة غير متجسدة . الآن ، ومرة أخرى ، يغلفها جسد وفستان ، فأحست أنها قد نُزعت من تلك النفس الطافية . عرفت بأنها قد انقلبت إلى تلك الأولجا التى رآها چاكوب مرارا لسوء الحظ هكذا : فتاة بائسة فى حاجة للمعونة .

لو كانت أولجا أقل ذكاء لربما اعتبرت نفسها جميلة نوعا . لكن لأنها ذكية ، فقد رأت نفسها أقل جاذبية عما كانت عليه بالفعل . وفى الواقع ، فهى لم تكن جميلة ولا قبيحة ، وأى رجل بميزان متوسط من الوسامة يمكنه قضاء الليل معها فى سعادة .

كانت أولجا المراقبة توبخ أختها التى من لحم ودم : ما الفرق الذى يميز هيئة صورتها ؟ لماذا تعذب نفسها ، وفى قلق تحدق فى المرآة ؟ هل كانت لاشئ سوى موضوع فى عيون الذكور ؟ لماذا لا تستقل بنفسها عن مظهرها السطحى ؟ أليس للنساء نفس الحق كالرجال بخصوص هذه الحرية ؟

خطت خارج المبنى ورأت وجهه بوسع ابتسامة طبيعية كاملة . علمت أنه بدلا من مصافحتها لسوف يربت على رأسها مثل ابنة صغيرة طيبة - كابنته بالضبط .

سألها «أين سنتناول غداءنا ؟» .

اقترحت غرفة طعام المرضى ، لأن هناك مكانا شاغرا على مائدتها .

غرفة الطعام صالة كبيرة تمتلئ بالموائد والبشر . جلس چاكوب وأولجا وبعدها كان عليهما الانتظار طويلا قبل أن تقدم لهما الجرسونة الحساء . وكان اثنان آخران يجلسان على مائدتهما . افترضا على الفور أن چاكوب زميل من المرضى وبدآ الحوار معه . لذا اقتصر حديث چاكوب مع أولجا على أسئلة خاطفة قليلة ذات طبيعة عملية : ما نوع الطعام الذى تحبه فى النبع ،

هل هى راضية عن طبيبها ؛ راضية عن العلاج ؟ حين سألها عن مسكنها ، ردت إن لها جارة فظيعة . أشارت برأسها نحو روزينا ، التى كانت تجلس قريبا .

فى الآخر نهض رفيقا مائدة چاكوب راحلين . قال چاكوب ، ناظرا على روزينا : «إن هيجل له تعليق لطيف بشأن ما يسمى «البروفيل اليونانى» ، حيث يكون الأنف والجبهة على خط مستقيم واحد . وطبقا لهيجل ، فإن جمال هذا البروفيل يأتى من التوكيد الناجم عن الجزء الأعلى من الرأس ، قاعدة الذكاء والروح . كنت أراقب جارتك وبدا لى أنه بالنقيض مع اليونانيين ، فإن وجهها بكامله مركز على فمها . فانظرى كم هى مستغرقة فى المضغ ، بينما تتكلم بأعلى صوتها فى نفس الوقت . مثل هذا التوكيد ينصب على الجزء الأسفل ، الجزء الحيوانى من الوجه سوف يقرز هيجل - وهناك رغم ذلك شئ آخر بخصوص هذه المرأة يثيرنى ، فلابد أن أصرح بأنها جذابة نوعا .»

قالت أولجا «تظن ذلك حقا ؟» ، وصوتها يخونه الضيق .

قال چاكوب بسرعة : «لكنى مرتعب من ذلك الفم . أرتعب منه حتى لأحس بأنه قد يلتهمنى» . وأضاف : «لن يجد هيجل فيك أى شئ خطأ ، فعلا . الجزء المسيطر على وجهك هو جبهتك ، والتى تجعل أى امرئ يعرف فورا كمّ ذكائك.»

قالت أولجا بحدة «إن أفكارا من هذا النوع تثير أعصابى دائما» ، «فهى تعلق أهمية على ملامح الشخص الخارجية باعتبارها صورة لروحه . لكن ذلك محض هراء . فأنا أتصور روحى بذقن كبيرة وفم حساس ، رغم أن ذقنى الفعلى صغير وفمى دقيق ، كذلك . لو لم أر نفسى فى مرآة وأصف مظهرى بالطريقة التى أعرف

بها نفسى من الباطن ، فإن الصورة لن تشبهنى على الإطلاق ! ولن أكون الشخص الذى أنا عليه بتاتا !».

(٤)

سيكون من الصعب إيجاد كلمة ملائمة لوصف علاقة چاكوب بأولجا . هى ابنة صديق تم إعدامه حين كانت أولجا فى السابعة من عمرها . صمم چاكوب فى ذلك الحين أن يحتفظ بهذه اليتيمة تحت جناحه . لم يكن لديه أطفال وكان منجذبا بفكرة اقتحام نوع من الأبوة القسرية - الحرة . ويمزاح استدعاها تحت وصايته .

كانا يجلسان عندئذ فى غرفة أولجا . وضعت أولجا براد الشاى ليسخن على شريحة كهربية ، وأدرك چاكوب من الصعب أن يكشف لها عن سبب زيارته . فى كل مرة يكون على وشك إخبارها أنه جاء لتوديعها ، يخاف خشية أن يصير صوت إبلاغه لها فى منتهى العاطفية ويختلق جوا انفعاليا غير ملائم . كان يتوقع منذ وقت طويل أنها تخفى عنه حبها فى الباطن له .

أخرجت أولجا كوبين من الدولاب ، وضعت فى كل منهما ملء ملعقة من القهوة سريعة التجهيز ، ثم صبت الماء المغلى . أسقط چاكوب مكعب سكر ثم قلبه ببطء . سمع أولجا تقول : «قل لى شيئا يا چاكوب . ماذا كان شكل أبى ؟»

«لماذا تسألين ؟»

«هل كان ضميره يقظا فعلا ؟»

«عن ماذا تتحدثين بحق الله ؟» سألها چاكوب . كان والد أولجا يعاد تأهيله علنا منذ وقت قليل ، ثم أعلن عن حكم إعدامه ظلما . لم يشك أحد فى براءته .

قالت أولجا «لم أقصد ذلك على أى حال» ، «بالفعل ، كنت أقصد العكس» .

«لا أفهم» .

«كنت أستفسر عما إن كان قد فعل فى الآخرين نفس الشئ الذى فعلوه معه . وعموما ، فإن الذين ساقوه إلى المشنقة هم من نفس نوعيته : لهم نفس المعتقدات ، وكانوا متعصبين مثله . كانوا مقتنعين بأن كل رأى يخالفهم - مهما كانت درجته طفيفة - فهو تهديد مميت للثورة . كانوا ارتيابيين لدرجة مريضة . لقد بعثوه إلى حتفه باسم عقيدة مقدسة يقر هو بنفسه الولاء لها . لماذا إذن أنت واثق تماما أنه برئ من فعل نفس الشئ للآخرين ؟»

تردد چاكوب . «الوقت ينساب سريعا ، ويصبح الماضى أشد صعوبة على الفهم» قالها فى الآخر . «ما الذى تعرفينه عن أبيك عدا قليل من الخطابات ، صفحات معدودة من يومياته كانوا على درجة من العطف بحيث أنهم أعادوها إليك ، بالإضافة إلى بعض الذكريات عن أصحابه ؟»

«لماذا تتفادى السؤال ؟» ألحت عليه أولجا . «لقد سألتك بوضوح تام : هل كان أبى من نفس نوعية الذين حكموا عليه بالموت ؟»

هز چاكوب كتفيه : «ربما» .

«إذن لماذا لم يقدر على الاعتراف بنفس أعماله الوحشية ؟»

«أشرح لك نظريا» قالها چاكوب ببطء وتأن ، «أشرح لك نظريا ، فمن الممكن أنه ارتكب نفس المظالم التى فعلوها معه . ليس هناك شخص على هذا الكوكب غير قادر على إرسال بشرى زميل إلى حتفه دونما أى وازع من ضمير . على الأقل أنا لم أعثر على أحد مثل ذلك . ولو تحولت البشرية ذات يوم فى ذلك الاتجاه ، فلسوف تخسر واحدا من أكثر خصائصها جوهرية . أولئك لن يعودوا بشرا ، لكن مخلوقات لها طابع مختلف.»

«إنى وفقط أحب مشاعر بشريتكم !» انفجرت أولجا فى خطاب لآلاف من الأشخاص لهم اسم چاكوب . «بتحويلكم كل البشرية إلى قتلة ، إذن فجرائمكم لن تصير جرائم بل ستصبح خصيصة أساسية للجنس البشرى !»

رد چاكوب «إن غالبية الناس تحيا وجودها خلال دائرة رعوية صغيرة تحيطها عائلاتهم وبيوتهم وأعمالهم» «يحيون فى عالمٍ مطمئن فى حيز ما بين الخير والشر . يفزعهم بإخلاص منظر القاتل . وكل ما عليكم أن تفعلوه هو أن تبعدوهم عن هذه الدائرة الآمنة ، وهم كذلك ، يتحولون إلى قتلة ، دون أن نعرف بالضبط كيف حدث هذا . بين حين وآخر يعرّض التاريخ البشر لضغوط معينة ومزالق لا يمكن لأحد مقاومتها . لكن ما نفع الكلام عن هذا ؟ لا فرق عندك فيما كان أبوك قادرا نظريا على فعله ، ولا حيلة أمامنا فى إثباته على أية حال . الشئ الوحيد الذى تحتاجينه للتركيز من حوله هو ما أداه بالفعل أو لم يؤده . وفى هذا المقام كان ضميره خالصا» .

«هل أنت متأكد تماما بخصوص هذا ؟»

«تماما . لا أحد كان يعرفه أفضل منى .»

قالت أولجا «إنى مستريحة فعلا أن أسمعك تقول هذا» «وكما تعرف ، فإنى لم أسألك عن هذه الأشياء دون مبرر واضح . فلقد جاءتنى خطابات مجهولة النسب منذ فترة . وهى تصرح أن لا حق لى فى تمثيل دور ابنة الشهيد ، لأن والدى كان مسئولا عن اضطهاد عدد لا بأس به من الأبرياء الذين كانت جريمتهم الوحيدة هى أن فكرتهم عن العالم لم تكن تتطابق معه .»

رد چاكوب «هراء» .

«إنها تصف والدى كإنسان وحشى ومتعصب عنيف . خطابات مجهولة النسب وقبيحة ، لكنها ليست بذيئة . إن كتابها يعبرون عن أنفسهم دون تهويل ، بواقعية ودقة ، حتى أنى أجد نفسى فى محل تصديقهم» .

قال چاكوب : «هذا كله بالضبط سلسلة واحدة لا نهاية لها من الانتقام . سأقول لك شيئا . حين قُبض على والدك كانت السجون ملأى بالناس الذين لوهم باضطراد أثناء أول موجة من الحماسة الثورية . وكان والدك معروفا كسياسى شيوعى ذائع الصيت ، ولدى أول فرصة وقع النزلاء عليه وضربوه حتى فقدانه الوعى . كان الحرس يراقبون المشهد بابتسامات متشفية على وجوههم» .

ردت أولجا «أعرف» ، فأدرك چاكوب أنها قد سمعت هذه الحكاية مرات عديدة من قبل . لقد تدبر أمره طويلا منذ فترة حتى يكبح نفسه عن الكلام فى مثل هذه الأشياء ، لكن لا نفع الآن . إن ذلك كان صعبا للغاية مثل سؤال شخص عرف عطب سيارة بالية فلم يقدر أن يكف عن التفكير فيه .

«أعرف» كررت أولجا . «لكن سيان ، فلنا لا ألوم هؤلاء السجناء . لقد تم سجنهم دون محاكمة ، وغالبا دون أى سبب على الإطلاق . وفجاة وجدوا أنفسهم يقفون وجها لوجه مع أحد الذين يعتبرونهم مسئولين عن بلواهم» .

«لحظة أن ارتدى والدك ثياب سجنه صار واحدا منهم . فلم يكن هناك ثمة داع فى مهاجمته ، خصوصا أمام الحراس المتشفّين . ليس هذا سوى انتقام جبان . قاعدة دفعتهم لركل ضحية عاجز . كما أن الخطابات التى وصلتك تنبع من نفس نوع التعطش للانتقام ، والذى أدرك الآن ، أنه أقوى من الزمن» .

«اسمع ، يا چاكوب . إن مئة ألف قد وضعوا فى السجون ! آلاف منهم لن تعود أبدا ! ويبدو أنه لن يعاقب أى أحد كان مسئولا عن هذه المظلمة ! هذا التعطش للانتقام ، كما تسميه ، هو فى الحقيقة رغبة لن تشبع للعدل .»

«لاضطهاد ابنة بسبب أن والدها لم يعد يملك دليلا على العدل . فقط تذكرى كيف أنك أُجبرت على هجر منزلكم ، والطرد من بلدتكم ، والتخلى عن دراستك – كل هذا بسبب والدك . والدك الميت ، من عرفته بالكاد ! ولصلحة أبيك الآن يتم

اضطهادك على الجانب الآخر أيضا ؟ لسوف أخبرك بأكثر اكتشافات حياتى المحزنة : إن الضحايا ليسوا بأفضل من مضطهديهم . يمكننى بسهولة تخيل الأدوار منعكسة . يمكنك أن تسمى هذا نوعا من دفع الجريمة ، محاولة للروغان من المسئولية ووضع كل اللوم على الخالق الذى صنع الإنسان على هذه الشاكلة . وقد يكون من المفيد أن ترى الأشياء على هذا النحو ، حتى يمكنك التوصل لنتيجة أنه لا فرق بين المذنبين والضحايا كى تؤثرى الحالة التى فيها تهجرين كل أمل . وذلك ، يا عزيزتى ، هو تعريف الجحيم» .

(٥)

انتظرت زميلتا روزينا بالكاد كى تستكشفا عن حال لقائها اليوم السابق ، لكنهما كانتا مشغولتين طول الصباح فى مكان آخر من المنشأة ولم يكد ينتهى هذا إلا بحلول الثالثة ظهرا حتى أمسكتا صديقتهما . فغمرتاها بالأسئلة .

تلعثمت روزينا وقالت فى غير ثبات : «أخبرنى أنه يحبنى ولسوف يتزوجنى» .

صاحت الرفيعة فى جذل «أترين ! ألم أقل لك ؟» ، «وهل سيطلق ؟»

«قال إنه سيفعل» .

قالت الممرضة الأكبر سنا فى نبرة مرحة «سوف يكون رائعا» ، «الطفل هو الطفل . وزوجته عاقر.»

لم يكن هناك خيار أمام روزينا إلا أن تبلغهما الحقيقة عارية : «يقول إنه سيأخذنى إلى براغ . وسيجد لى وظيفة هناك . يقول إننا سوف نذهب لإيطاليا فى إجازة . لكنه لا يريدنا أن نتقيد بطفل مباشرة . وهو على حق . الأعوام الأولى هى الأفضل ، وإذا كان لدينا أطفال فورا فلن نكون قادرين على الاستمتاع ببعضنا البعض» .

تنهدت المرضة متوسطة العمر : «ماذا ؟ أتريدين التخلص منه ؟»

أومأت روزينا .

صاحت الرفيعة «أنت مجنونة !» .

قالت الأكبر سنا «لقد أسكرك على ضوء القمر !» ، «لحظة أن تتخلصى من الطفل سيطردك كالزكيبة !»

«لماذا سيفعل هذا ؟»

«هل تودين الرهان ؟»

«ولو كان يحبنى ؟»

«وكيف تعرفين بأنه يحبك ؟»

«لقد قالها .»

«إذن لماذا لم تسمعى منه نأمة تليفون لمدة شهرين ؟»

«كان خائفا من الحب .»

«نعم يا أختى ؟»

«كيف أشرح لكما هذا ؟ لقد كان خائفا من الوقوع فى غرامى .»

«ولهذا ظل ساكتا ؟»

«أراد أن يختبر نفسه ، ليرى إن كان يستطيع أن ينسانى . هذا عدل كاف ، أليس كذلك ؟»

«آه .» واصلت الأكبر سنا . «وحين اكتشف أنه ملأ بطنك ، أدرك فجأة أنه لن يستطيع نسيانك» .

«قال إنه سعيد بأنى حامل . ليس بسبب الطفل ، لكن لأننى اتصلت به . ذلك جعله يدرك مقدار حبه لى .»

قالت الرفيعة «يا إلهى ، كم أنت ساذجة !» .

«لماذا تسمينني هكذا ؟»

«لأن الطفل هو كل ما يمكن أن تمسكيه عليه» ردت الأكبر سنا . «لو خسرت ذلك ، فلن يتبقى لديك شئ وسوف يُقلع .»

«أريده أن يتزوجنى من أجل خاطرى أنا وليس من أجل خاطر طفل ما !» .

«من تظنين نفسك فى هذا العالم ؟ لماذا يا اسم الله سوف يتزوجك ، من أجل خاطرك ؟»

استمر هذا الحوار الممض ، وكل من زميلتيها ظلت مصرة تماما على أن مسألة الطفل هى ورقة روزينا الرابحة ، والتى لا يجب أن تتخلى عنها .

كررت الرفيعة «لن أدعهم يأخذون الطفل منى ، ذلك ما يمكن أن أخبرك به ! أبدا ولا بعد مليون سنة !» .

بدأت روزينا تحس أنها فتاة عاجزة وقالت (بنفس العبارة التى أعادت منذ يوم فتنة الحياة إلى كليما) : «إذن أخبرانى ماذا ينبغى أن أفعل !»

قالت المرضة الأكبر سنا «إلزمى مدفعك !» . فتحت درجا وناولت روزينا أنبوبا به أقراص . «هيا ، خذى واحدا ! أنت عصبية فعلا . هذا سيهدئك تماما» .

وضعت روزينا حبة فى فمها ثم بلعتها .

«احتفظى بالأنبوب . الجرعة ثلاثا فى اليوم ، لكن استخدميها فقط عند اللزوم حين تضطرب أعصابك. حينما يستثار الناس فهم عرضة لفعل أى شئ أحمق. لا تنسى أنه ماكر وثعلب . لقد شاف الكثير . لكن هذه المرة لن تُجدى أفاعيله !»

مرة أخرى تحيرت روزينا ولم تدر ماذا تفعل . منذ وهلة كانت فى حكم من اتخذ قراره ، لكن مناقشات صاحبتيها بدت مقنعة للغاية لدرجة أنها قلقلتها . خرجت تملأها الحيرة .

حين وصلت إلى ردهـة الطابق الأسـفل ، كان شـاب مثير بوجه متورد قد اندفع نحوها .

عبست . «لقد أخبرتك مئات المرات ألا تنتظرنى أبدا هنا بالأسفل . عموما ، بعد ما فعلته معك بالأمس فأنا مندهشـة من جرأتك أن تريني وجهك مرة أخرى هنا .»

ترافع الشاب «من فضلك لا تغضبى منى !» .

«شش !» هسهست له. «والآن ستؤدى مشهدا هنا ، أيضا » ، واستدارت لتمضى.

«إذن ابقى وتكلمى معى ، إن كنت لا تريدين مشهدا !»

لم يكن لديها اختيار . كان المرضى يمرون حولهما وكل مرة أو وهلة كانت تعبر ممرضة فى بالطو أبيض أو طبيب . لم تكن روزينا تريد لفت الانتباه ، لذا أذعنت للبقاء واتخاذ تعبير مألوف .

همست «ماذا تريد ؟» .

«لا شئ . فقط أردت أن أطلب منك الصفح . فأنا آسف حقا على ما فعلته . لكن احلفى لى أن لا شئ البتة بينك وبينه .»

«قلت لك فعلا لا شئ بيننا .»

«إذن احلفى» .

«لا تكن أحمق . أنا لا أعتقد فى الحلفان بمثل هذه الأشياء الغبية» .

«لأن هناك شيئا ما بينكما !»

«قلت لك فعلا لا شئ هناك . إذا لم تأخذ كلامى على محمل الجد فلا شئ لدينا نتحدث عنه . هو ببساطة صديق قديم . وأنا أفترض أنه ليس خطيئة أن نتخذ أصدقاء ؟ وأنا أحترمه . وأحس بالفخر لمجرد أنه يعرفنى» .

«أفهم . ولا ألومك» قالها الشاب .

«سيقيم حفلا هنا فى الغد . وآمل ألا تتجسس علىّ مرة أخرى» .

«لن أفعلها إذا قلت لى الكلمة الفيصل ، أنه لا شئ بينكما» .

«كم مرة أخبرك أنه فوق طاقتى أن أحلف بمثل هذه الأشياء ؟ لكنى سأقول لك الكلمة الفيصل : إن لم تكف عن تطفلك ، فلن أعود إلى الكلام معك طالما حييت .»

«روزينا ، كل هذا لأنى أحبك» قالها الشاب بتفجع .

«وأنا أحبك» قالتها روزينا بشكل يوحى أنه حقيقى «لكن لا يعنى هذا أن نمثل مشهدا فى منتصف المدخل .»

«أنت لاتحبيننى ، بل تخجلين منى .»

«هراء.»

«لاتريديننى أبداً من حولك ، لاتريدين منى أن أذهب معك فى أى مكان ...» .

همست له ثانية «شش!» ، لأنه كان قد رفع صوته . «أبى سوف يقتلنى إذا رآنا معا . أخبرتك أنه يراقبنى مثل الصقر . لكنى الآن لابد أن أذهب .» .

قبض الشاب على يدها . «لاترحلى الآن !» .

أدارت روزينا عينيها تجاه السقف فى يأس .

قال الشاب : «كل شىء سوف يختلف إن تزوجنا ، لن يوقفنا والدك . ستكون لنا عائلة .»

«لا أريد عائلة» قالتها روزينا بحدة . «سأقتل نفسى قبل أن ألد صغيراً !» .

«لماذا ؟» .

«بسبب . لا أريد أى صغير .»

كرر الشاب : «أحبك ياروزينا» .

فقالت روزينا : «وذلك هو السبب الذى تدفعنى من أجله إلى الانتحار . هه ؟»

«الانتحار ؟» سألها ، مفزوعاً .

«نعم . الانتحار .»

«روزينا !» .

«أنت تدفعنى للانتحار . لاحظ كلماتى ! أنت تدفعنى لهذا بالتأكيد !» .

سألها فى ذلة «هل بإمكانى أن أراك هذا المساء ؟» .

ردت «لا ، ليس الليلة» . ثم أدركت ضرورة أن تهدئه ، فأضافت بنعومة زائدة : «لكن بإمكانك أن تتصل بى فى وقت آخر ، يافرانتا . بعد الأحد » واستدارت لتمضى .

قال الشاب «انتظرى» ، «جلبت لك شيئاً . للزينة .» وسلمها علبة صغيرة .

أخذتها وهرولت .

(٦)

«هل د. سكريتا فعلاً مثل الطائر الغريب كما يتظاهر بذلك ؟!» .

رد چاكوب «إنى أتساءل بذلك طوال فترة معرفتى به» .

قالت أولجا «إن غريبى الأطوار لايحيون بشكل سىء لو نجحوا فى إقناع الناس باحترام غرابة أطوارهم» ، «إن د. سكريتا غائب العقل بشكل خيالى . فى منتصف الحوار ينسى فجأة ما كان يتكلم فيه . فهو يقف فى الشارع ليثرثر مع شخص وقبل أن يعرف ماذا يفعل يكون قد فاته ساعتان من برنامج مكتبه . ولا

أحد يغضب منه ، لأن الطبيب الجيد معروف بأنه غريب الأطوار وليس هناك غير السوقى من ينكر عليه الحق فى أن يكون غريب الأطوار .»

«سيان كان غريب الأطوار أو لا ، فإنى أظن أنه طبيب ناجح .»

«قد يكون كذلك ، رغم أننا كلنا لدينا الإحساس بأن ممارسة الطب مجرد شيء ثانوى عنده ، مجرد إزعاج ضرورى يأكل الوقت من مشروعاته الأكثر أهمية . غداً، على سبيل المثال ، سوف يعزف على الدرامز .»

قاطعها چاكوب «لحظة واحدة» ، «هل أنت متأكدة فعلا من هذا ؟» .

«كل مايمكننى أن أقوله لك إن المكان بكامله عليه ملصقات تعلن عن حفل الغد، تصور عازف البوق الشهير كليما مع د. سكريتا عازفاً على الدرامز .»

علق چاكوب «هذا غريب» ، «إن سكريتا هو أكبر حالم يقظة عرفته فى حياتى. لكن أحلامه لاتصل إلى حقيقة أبدا . حين قابلته أول مرة ، زمان فى الكلية ، كان سكريتا معدماً .ودائماً لديه النذر من المال ، ويحلم بطرق كثيرة أن يصير ثرياً . فى ذلك الوقت كان لديه برنامج لتربية الكلاب حاملات الصوف ، لأن شخصاً ما أخبره أنه سيبيع حيوانات «ويلش» (*) ذات الأصواف مقابل أربعة آلاف للواحدة . لقد تخيل ذلك كله . الأنثى البالغة تحمل مرتين سنوياً ، خمسة حيوانات فى كل بطن، هذا يعمل عشرة كل سنة ، عشرة كلاب فى أربعة آلاف يدر أربعين ألفاً . كل شيء تم التفكير فيه بعناية. وكان يعمل بجد لينال الحظوة لدى المشرفة المسئولة عن مطعم الطلبة، والتى وعدته أنها سوف تسمح للكلاب بتناول فضلات المطبخ . وكتب مرة مقالات لطالبين زميلين مقابل وعدهما بأن ينزها له الكلاب . ولم يكن مسموحاً بوجود الحيوان فى مسكنه ، لذلك ظل يبتز مدبرة المنزل بالحلوى والأزهار حتى وعدت باستثناء حالته من قانون منع الكلاب بالمسكن . استمر على

(*) مدينة فى انجلترا ، بمقاطعة ويلز (م) .

ذلك مايزيد عن الشهرين ، يجهز كل شيء لكلابه ، لكننا كنا نعرف أن ذلك مجرد أمل كاذب . كان يحتاج لأربعة آلاف كي يشترى كلبة عاهرة ، ولم يقرضه أحد المال . لم يعامله أحد على محمل الجد . كلهم نظروا إليه كحالم ، رجل بمواهب خارقة ومبادر ، لكن إلى الخيال فحسب .»

«هذا كله مؤثر للغاية ، لكنى ما أزال لا أفهم عاطفتك الغريبة نحوه. إنه – حتى – شخص غير مسئول . فهو لا يصل لأى مكان فى الميعاد أبداً ، وما يأمل فيه اليوم ينساه غداً » .

«هذا ليس بالضبط تماماً . وقد أدى لى بالفعل ذات يوم خدمة عظيمة . لم يؤد لى أحد خدمة أصعب من التى أداها لى فى حياتى .» .

توصل چاكوب لجيب صدريته جاذباً قطعة مطوية من ورق المناديل . فك طيتها بعناية . كانت تحوى حبة زرقاء باهتة .

سألته أولجا «ماهذا ؟» .

«سم .» .

لعدة ثوان استمتع چاكوب بصمت الفتاة المستفهم ، ثم واصل : «حصلت عليها منذ مايزيد عن خمسة عشر عاماً . كان هنالك شيء واحد تعلمته بعد سنة فى السجن : إن السجين يحتاج على الأقل مثل هذا النوع من اليقين – أنه هو سيد موته ، القادر على تخير وقته وكيفيته . حين يكون لديك هذا اليقين ، يمكنك تحمل أى شيء تقريباً. تعرفين دائماً أنه فى طاقتك الهروب من الحياة بأى وقت تختارينه.»

«كانت هذه الحبة معك فى السجن ؟» .

«لسوء الحظ لا ، لكنى تدبرتها بمجرد أن خرجت .» .

«لكنك لم تعد بحاجة إليها !» .

«فى هذه البلاد لا تعرفين أبداً متى قد تنشأ الحاجة . وبالإضافة لذلك ، كانت هذه مسألة مبدأ معى . فأنا أعتقد أن كل شخص ينبغى إعطاؤه قرصاً من السم فى اليوم الذى يصل فيه إلى سن الرشد .

وينبغى أن تصاحب هذا التمهيد مراسم مهيبة لا لكى تغوى الناس بالانتحار ، بل على النقيض ، كى تدعهم يعيشون فى أمن وطمأنينة كبيرين . كى تجعل كل امرىء يحيا بيقين أنه الرب والسيد لحياته الخاصة وموته .»

«وكيف توصلت للحصول عليها ؟» .

«بدأ سكريتا حياته بتمرس الكيمياء الحيوية فى معمل . فى البدء سألت شخصاً آخر ، لكنه اعتبر من واجبه الأخلاقى أن يثنينى عن رأيى . وقد أنتج سكريتا الحبة من أجلى دون أدنى تردد طفيف .»

«قد يكون هذا من محض غرابة أطواره .»

«ربما . لكن فى الأساس لأنه تفهمنى . لقد عرف بأننى لست ممن يلعبون أدوار الانتحار الهستيرية . أدرك أسبابى . وأريد أن أعيد له الحبة اليوم . فأنا لم أعد بحاجة إليها .»

«كل الأخطار زالت ؟» .

«غداً صباحاً سأغادر هذه البلاد للأبد . لقد دعيت للتدريس فى جامعة أجنبية ومنحتنى حكومتنا إذن المغادرة .» .

انكشف الأمر أخيراً . نظر جاكوب على أولجا فرأى أنها تبتسم . أخذته من يده . «حقيقى؟ مذهل ! أنا فى منتهى السعادة من أجلك !» .

كانت تعبر عن نوع من البهجة غير الأنانية التى كان سيحسها لو سمع بأن أولجا سوف ترحل إلى مكان رائع يمكنها أن تحس فيه بالسعادة . ذلك أدهشه،

لأنه كان يخشى دائماً أنها مرتبطة به – تتعلق به عاطفياً . كان مبتهجاً أن يعرف خطأ ذلك ، لكنه فى نفس الوقت كان جريحاً إلى حد ما .

استوعبت أولجا تماماً أخبار چاكوب حتى أنها لم تعد تهتم بالحبة الزرقاء الباهتة على المنضدة بينهما فوق قطعة من ورق المناديل مطوية . جعلت چاكوب يخبرها بالتفصيل عن ظروف عمله الجديد .

«أنا سعيدة لأنك أنجزت ذلك . سوف يعتبرونك هنا شخصية مشكوكاً فيها طيلة حياتك . وسوف يمنعونك من العمل فى نفس مجالك . ولسوف يوعزون إلينا بأمجاد عشق بلادنا الأم . كيف تحب بلداً لا تسمح لك بالعمل ؟ سوف أخبرك بأمانة شديدة – أنا لا أحس بأى حب تجاه بلادنا . هل هذا خطأ منى ؟» .

رد چاكوب «لا أعرف» ، «لا أعرف فعلاً . لابد أن أعترف بأنى أنا نفسى لدى شعور خاص تجاه هذا البلد .»

«قد يكون هذا خطأ» واصلت أولجا «لكنى لا أحس بأى روابط معه على الإطلاق . ما نوع الروابط التي يمكننى أن أحس بها هنا ؟» .

«حتى الذكريات السيئة تخلق نوعاً من التعلق .»

«التعلق بماذا؟ » بقمر على أرض معينة لمجرد أن أحداً حدث له أن ولد هنا ؟ لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن للناس أن يتكلموا عن الحرية وهم بعد مغلولين إلى مثل هذا الثقل . وعموماً ، لا نفع للجذور بشجرة إن كانت التربة قاحلة ، إن الشجرة تجد تربتها الأم الحقيقية فقط حين توجد رطوبة تغذيها .»

«وماذا عنك أنت ؟ هل تجدين الرطوبة التى تحتاجينها ؟» .

«بشكل عام ، نعم . لأنهم منحونى أخيراً الإذن بالدراسة الآن ، فأنا سعيدة . لسوف أتابع علومى ولا يهمنى الباقى . فأنا لم أخلق الظروف الحالية ولست مسئولة عنها . لكن قل لى ، ستغادر فعلا ؟» .

«غداً .»

«بسرعة هكذا ؟» تشبثت بذراعه . «من فضلك ! لأنك كنت فى غاية اللطف حين جئت كل هذا الطريق لتودعنى ، أفلا يمكنك البقاء أطول قليلا ؟» .

كل شىء كان مختلفاً عما قد توقعه . فهى لا تتصرف كفتاة وقعت فى غرامه سراً ولا كقاصر تظهر عاطفة البنوة نحوه . أمسكت يده بحنان وتفهم ، محدقة فى عينيه ، وكررت : «لا ترحل بسرعة ! ستكون هناك حسرة لو قلت بمجرد الوداع ولا شىء بعده .»

كان چاكوب مأخوذاً . قال «سوف نراك»، «سكريتا كذلك يحاول معى فى البقاء مدة أطول .»

قالت أولجا «لابد أن تبقى» ، «لدينا وقت قليل من أجل بعضنا البعض . فأنا الآن منهمكة ثانية فى علاجى .» سكتت لحظة ، ثم أعلنت قرارها بالكف عن العلاج والبقاء مع چاكوب .

قال چاكوب «لا ، لا ، لا يمكن أن تفعلى هذا . صحتك فى المقام الأول»، «لسوف أتمشى معك» .

قالت أولجا وهى سعيدة «هذا حسن» . ثم فتحت خزانتها تفتش عن شىء ما .

لا تزال الحبة الزرقاء الباهتة على المنضدة . إن أولجا هى الشخص الوحيد الذى يثق چاكوب فى أنها تصون سره ، كانت تقف بظهرها للحبة ، تحدق فى الخزانة . خطر لچاكوب أن الحبة الزرقاء الباهتة ترمز نوعاً ما لدراما حياته ، المحرومة ، المنسية ، وقد تكون غير شيقة .أخبر نفسه أنه قد آن الأوان لإنهاء هذه الحكاية غير الشيقة ، لوضع كلمة النهاية لها بسرعة ولتركها وراءه . طوى الحبة مرة أخرى فى غلافها الورقى وأدخلها فى جيبه .

جذبت أولجا حقيبة يد كبيرة من خزانتها ، وضعت بها فوطة مطوية ، أغلقت باب الخزانة ثم قالت لجاكوب : «هيا نذهب !» .

(٧)

يعلم الله وحده كم جلست روزينا فى الحديقة . بدت وكأنها ملتصقة بالمقعد ، قد يكون لأن أفكارها ، أيضاً ، كانت فى يأس متريثة . بالأمس فقط كانت لاتزال تصدق عازف البوق . ليس فقط لأن قصته كانت مقبولة ، بل لأن تصديقه هو أبسط الطرق للخروج من الأزمة : بضمير خالص يمكنها أن تنسحب من نقاش كان فى غير مقدورها . لكن الآن ، ولأن زميلتيها تهكمتا على غفلتها ، فقد بدأت تشك فيه مرة أخرى وتفكر فيه بكراهية ، غطست فى روحها لدرجة أنها لم تتيقن من كونها ماهرة أو مثابرة للفوز به .

وفى فتور مزقت علبة فرانتا التى أعطاها لتفتحها . كانت تحتوى على شىء مصنوع من قماشة زرقاء باهتة ، وخمنت روزينا أنها قد تكون قميص نوم . قميص نوم يحب أن يراها فيه ، ليلة إثر ليلة ، كل ليالى حياتها . حدقت فى القماشة حتى بدا أنها تنحل إلى بحيرة زرقاء ، بحيرة حب رطبة ، مستنقع أزرق من الخير والإخلاص .

من الذى تكرهه أكثر ؟ الرجل الذى لم يكن يحتاجها أم من يتوق إليها بشغف؟

ولذلك جلست على المقعد ، يشلها هذان الكرهان ، غافلة تماماً عما يدور من حولها . توقفت عربة مقفلة عند المنحنى ، تبعتها عربة نقل صغيرة خضراء كانت تبعث صوت هوهوة وعواء حاد . فتح باب العربة المقفلة وخطا للخارج عجوز بشارة حمراء على كمه . نظرت إليه روزينا فى تبلد ، دونما استفهام .

صرخ الرجل بنوع من الأمر فخطا رجل ثان خارجاً من المركبة ، عجوز مثله ويلبس كذلك شارة حمراء على كمه . كان يمسك بقضيب طويل مع لفة سلك متصلة به من أحد الطرفين . واحداً بعد آخر ، خرج رجال أكثر ، كلهم مجهز بشارات حمراء وقضبان ملفوفة بالسلك طويلة .

الرجل الذى خرج أولاً يصرخ بأوامر أكثر ، وتناويت المجموعة الغريبة من حاملى الرماح «انتباه» ، و«صفا» . ثم انطلق الزعيم بأمر وعلى إثره هرول الرجال إلى الحديقة . هناك تبعثر الصف ، وكل واحد انطلق فى اتجاه مختلف ، مشى البعض على الممرات ، والآخرون عبروا فوق العشب . وكانت الحديقة يملأها شبان متنزهون وأطفال يلعبون . فتوقف الجميع متعجبين لمشاهدة الرجال العجائز المحملين بالرماح المستعدة .

وكانت روزينا ، أيضاً ، تشاهد الموكب ، وقد انتزعت نفسها أخيراً من تأملاتها الكئيبة. وتعرفت على أبيها من بين فرقة الشارات الحمر ، نظرت إليهم مرتابة فى نفور مبهم لكن دونما اندهاش معين .

وهناك كلب صغير يمرح حول شجرة بتولا فى منتصف العشب . أحد العجائز بدأ الجرى نحوه . توقف الكلب وراقبه فى دهشة . مد الرجل رمحه بقدر ما استطاع ، محاولاً لف شرك السلك حول رأس الكلب . لكن الرمح كان طويلا ، وذراعى العجوز كانت واهنة ، أما الهَرِم المحبط فلم يستطع ضرب الهدف . تأرجحت لفة السلك فى غير ثبات على رأس الكلب ، بينما كان الكلب يراقب منتبهاً .

فى هذه الأثناء ، جاء رجل من ذوى الشارات الحمر مندفعاً لنجدة زميله، ذراعاه أقوى ، وقد وجد الكلب نفسه فوراً داخل شرك السلك . جذب العجوز الرمح بعنف ، فتداخل السلك فى الرقبة المشعرة ، وأطلق الكلب هوهوة . ضحك



كلا الرجلين ، ساحبين الكلب عبر العشب نحو المركبات الراكنة . فتحا الباب الكبير للعربة المقفلة ، فانطلقت موجة عارمة من النباح ، ثم رميا بالكلب داخلها وصفقا الباب لينغلق .

شاهدت روزينا كل شيء ، لكنها تفهمته فحسب على أنه انعكاس لقصتها التعسة : فهى امرأة تتراوح بين عالمين . عالم كليما يتأباها ، بينما العالم الذى كانت تريد أن تتجنبه (عالم فرانتا مبتذل ، ممل ، فشل ، واستسلام مشروط) يتعقبها مثل هذه الزمرة عديمة الشفقة ، كما لو أنها ، كذلك ، على وشك أن يسحبوها فى شرك السلك .

وقف ولد عمره حوالى الثانية عشرة على الممر الرملى ، ينادى باستماتة على كلبه ، والذى كان يهيم بين الشجيرات ، بديلاً عن الكلب ، عموماً ، انبعث خارجاً من بين الشجيرات والد روزينا حاملاً رمحه . صمت الولد على الفور ، خشى أن ينادى على الكلب لأنه علم أن العجوز قد سحبه بعيداً . لذلك فر عبر الممر ليهرب من المطارد ، لكن العجوز عدا مباشرة وراءه . كانا يجريان جنباً لجنب ، والد روزينا حامل الرمح والولد ، الذى بدأ يصرخ ، ثم استدار ليجرى عائداً . والد روزينا فعل المثل ، ومرة أخرى صارا جنباً لجنب .

خرج من بين الشجيرات كلب (دشهند ، ألمانى) يتمهل . مد والد روزينا الرمح نحوه ، لكن الكلب تجنب الشرك مهرولاً إلى الولد ، والذى رفعه عالياً ضاغطاً إياه فى أحضانه . جاء آخرون من الجماعة لمساعدة والد روزينا وسحبوا الكلب من بين أحضان الولد . ظل الولد ينشج ، صارخاً ، وهو يتملص . وكان على العجوز أن يربط ذراعيه ويكمم فمه ، حيث ينبه الصراخ انتباه المارة الذين استداروا للنظر لكنهم لم يجرؤا على التدخل .

ضجرت روزينا من مشاهدة والدها ورفاقه . لكن أين يمكنها الذهاب ؟ لا شيء يسليها فى غرفتها عدا قصة بوليسية نصف منتهية لم تثرها على الإطلاق ، دار

السينما تعرض فيلماً رأته من قبل ، أما المنظر الأشد إثارة فهو استراحة رشموند هاوس والتى تعرض جهاز تليفزيون قديماً . قررت مفاضلة التليفزيون ، فقامت . جعلها صياح العجائز ، والذى يصدر من كل الجوانب ، تعى باهتمام الحياة الهادئة الرخية التى تتنفس حولها . بدت كشىء مقدس، شىء يغيرها وينهض بها . إنه يميزها عن أولئك المتهوسين الحمقى الذين يتعقبون الكلاب . بدأت تحس بالاقتناع أنها لايجب أن تنهض ، لايجب أن تستسلم ، حيث تحمل فى رحمها أملها الوحيد ، جواز سفرها الوحيد إلى المستقبل .

حين وصلت إلى حافة الحديقة لاحظت چاكوب . كان واقفاً على الرصيف أمام رشموند هاوس ، يراقب انقلاب الكلب . لقد رأته مرة واحدة من قبل ، على الغداء من ساعات قليلة ، لكنها تذكرته . كانت روزينا تكره بشدة المريضة التى تسكن جوارها ، والتى اعتادت النقر على الحائط حين يكون صوت الراديو أعلى قليلا . ولذلك تابعت روزينا كل شىء يتعلق بجارتها فى حقد عنيف .

كانت تكره وجه هذا الرجل . يبدو ساخراً بالنسبة لها ، وهى تكره السخرية . وفى اعتقادها دائماً أن السخرية – كل السخرية – مثلها مثل الحارس المسلح الذى يحرس بوابة مستقبلها ، يراقبها ويرفض فى ازدراء دخولها . وبرأسها المرفوع عالياً ، وأكتافها للوراء ، قررت أن تجتاز چاكوب وهى متزينة فى كل بهاء صدرها المغوى وكبرياء بطنها النابتة .

فجأة قال الرجل (كانت تراقبه من ركن عينيها) فى صوت مهذب ، هادىء : «تعال هنا... هاى ، تعال هنا ...» .

فى البدء لم تفهم لماذا كان يناديها . احتارت من رقة صوته ولم تدر كيف ترد. لكنها عندئذ استدارت فرأت كلب بولدج سميناً له وجه آدمى قبيح كان يتتبع مباشرة كعبيها .

استجاب الكلب لصوت چاكوب فجاء نحوه . تناوله چاكوب من طوقه . «تعال إلىّ وإلا ستسوء أحوالك .» رفع الكلب رأسه الواثق نحو الرجل ، ولسانه يتموج مثل علم صغير مرح .

كانت لحظة من الخزى ، سخيفة ومبتذلة ، رغم وضوحها : فهو لم يعر انتباهاً لإغرائها أو كبريائها . لقد ظنت بأنه كان يخاطبها ، لكنه كان يكلم كلباً . سارت بجانبه ثم توقفت على السلالم أمام رشموند هاوس .

عبر الشارع اندفع عجوزان إلى چاكوب . كانت تراقب بحدس ماكر ، غير قادرة على منع نفسها من اتخاذ موقف العجائز .

حين صاح أحد العجوزين : «أطلق هذا الحيوان فوراً !» قاد چاكوب الكلب من طوقه إلى داخل البناية . أضاف العجوز الآخر : «بأمر القانون !» .

تجاهلهما چاكوب واستمر فى طريقه . كان أحد الرماح ، على أية حال ، قد امتد من خلفه ، ملامساً على التقريب جانب جسمه ، فالتف السلك صائداً بحرص رأس البولدج . قبض چاكوب على الرمح ثم ألقاه أرضاً .

جاء عجوز ثالث مهرولاً . صرخ : «أنت تتدخل فى أمر حكومى ! سأستدعى الشرطة !» .

أوضح عجوز آخر فى صوت هادىء : «إنه يهيم متوحشاً عبر الحديقة ! لقد كان فى الملعب حيث تحتجز الكلاب ! وهو يبول على الرمل فى صندوق الرمل ! أيهما يأتى فى المقام الأول ، الأطفال أم الكلاب ؟» .

كانت روزينا ترى هذا المشهد من رأس السلالم والكبرياء الذى كانت تحس به حتى الآن فحسب فى بطنها ، بدأ ينتفخ عبر جسدها ، يفعمها بقوة متحدية . حين صعد چاكوب السلالم نحوها ، قالت : «ذلك الكلب لا شأن له هنا !» .

رد چاكوب فى اعتدال ، لكنها لم تتمكن من الانسحاب . وهى تمتطى سلم مدخل الرشموند هاوس ، كررت : «هذا المبنى للمرضى وليس للكلاب . غير مسموح بالكلاب هنا .» .

قال چاكوب «أين رمحك والشرك ، يا آنسة ؟» ، محاولاً أن يحرف طريقه أمامها ، والكلب فى ذراعيه .

سمعت روزينا السخرية من تعليق چاكوب – تلك السخرية الكريهة التى يبدو دائماً أنها تصفع قفاها وهى بالخارج ، حيث لم تكن تريد البقاء . لمعت عيناها بالغضب . فقبضت على الكلب من طوقه . كلاهما الآن مطبق على الطوق ، يشده چاكوب لأحد الطرفين وهى تشده للآخر .

أمسك چاكوب رسغ روزينا ثم أبعد يدها بعنف كان قادراً على جعل الفتاة تترنح .

صرخت من خلفه «أراهن على أنك تملأ عربات الأطفال بالكلاب !» .

استدار چاكوب ، فتقابلت عيونهما فى لمعان كره مفاجىء ، عار من أى شىء.

(٨)

كان كلب البولدج يتشمم عبر الغرفة فى استفهام، وكأنه غير واع بنجاته بالكاد من خطر مميت . تمدد چاكوب على الكنبة ، متسائلا عما يفعله بهذا الكلب. إنه يحبه ، فهو يبدو كحيوان مرح ، طيب النزعة . وبالفعل ، أظهر الكلب لامبالاة فى التعود بنفسه على بيت وغرفة غريبة وفى الوثوق برجل غريب يقارب الغباء . بعد التحقق من أركان الغرفة الأربعة ، قفز على الكنبة ورقد جنب چاكوب. جفل

. چاكوب، لكنه قبل بيان هذه الرفقة دون مقاومة . فوضع ذراعه فوق ظهر الكلب واستمتع بالدفء المنبعث من جسم الحيوان ، كان دائماً يحب الكلاب . فهى ودودة ، تغرى بالضم ، والملكية ، وفى نفس الوقت يصعب فهمها تماماً . إن الإنسان لن يعرف أبداً ما الذى يدور بالفعل فى رؤوس وقلوب هؤلاء السفراء المرحين ، الواثقين ، من عالم الطبيعة الغريب ، غير المفهوم .

هرش ظهر الكلب وتأمل إحساسه الذى جاءه من قبل . إن العجائز برماحهم الطويلة يمكن معادلتهم بحراس السجون ، والمحققين والمخبرين الذين يستطلعون عن جيرانهم بأمل التقاط تعليق سياسى شارد . ما الذى يحرك هؤلاء الناس كى تقوم بهذه الأعمال الباعثة على الأسى ؟ الغضب ؟ قطعاً . لكنه كذلك الشوق للنظام ، الرغبة فى تحويل عالم الإنسان إلى عالم غير عضوى ، يصير فيه كل شىء على أكمل وجه والعمل مبرمج ، تابعاً لنظام يتجاوز ماهو شخصى . إن الشوق للنظام هو فى نفس الوقت شوق للموت ، لأن الحياة تمزيق متصل للنظام. أو لنجعل ذلك فى شكل آخر : الرغبة فى النظام ذريعة فاضلة ، اعتذار قاس عن البغض للبشرية .

ثم استدعى الفتاة شقراء الشعر التى حاولت تعترض طريقه ، وإحساسه بدفق الكراهية المؤلم . فهو لم يكن غاضباً من العجائز ذوى الرماح ، لقد عرف نوعيتهم، ولم يشك أبداً فى وجود مثل هذه الأنواع ، لابد من وجودهم ، سيكونون إلى الأبد مضطهديه . لكن تلك الفتاة ، فهى حكاية مختلفة . إنها تمثل سقوطه الخالد. جميلة ، وقد ظهرت على الساحة لا كمضطهدة بل كنظارة أغراها العرض وتطابقت مع المضطهدين . كان چاكوب يرتعب دائماً من استعداد المتفرجين للاندفاع لمساعدة الجلادين والتطوع بلطافة لتكتيف الضحية . ففى ظل الوقت الذى صار فيه الجلاد شيئاً مألوفاً ، نوعاً شعبياً من الأشكال ، لاتزال هناك

للضحايا رائحة أرستقراطية مقززة . إن روح القطيع ، والتى تطابقت ذات يوم مع الضحية البائسة ، تتطابق اليوم أيضاً مع ذلك الجلاد البائس . فى عصرنا هذا ، اصطياد البشر هو اصطياد لذوى الامتياز : أولئك الذين يقرأون الكتب أو كلابنا.

تحسست يده الجسم الكلبى الدفىء ، وكلم نفسه إن الفتاة شقراء الشعر نذير شؤم ، تحمل رسالة ملغزة تومىء بأن قدره لايمكن قبوله أبداً على هذا البلد ، وهى - سفيرة الناس - سوف تسلمه دائماً لأيدى بشر برماح لها شرك مسنون . احتضن الكلب وضغط عليه فى حضنه . عبرت فكرة فى دماغه لايجب أن يترك الحيوان من خلفه ، عاجزاً ، لابد أن يأخذه معه بالخارج كهدية من الاضطهاد ، كواحد من الذين هربوا . لكنه أدرك عندئذ أنه يحمى هذا المغفل طيب النزعة وكأنه هارب يائس ، وبدا له الأمر كله مضحكاً .

طرقٌ على الباب ثم دخل سكريتا . «إنه الوقت المناسبُ أن أجدك فى الغرفة . كنت أبحث عنك طوال الظهيرة . أين كنت ؟» .

«كنت مع أولجا ، ثم ...» كان على وشك أن يبدأ حكاية الكلب ، لكن سكريتا قاطعه :

«إنى أعرف . أنت تضيع الوقت ، ولدينا الكثير لندرسه . حكيت لبرتلف هنا وقد دعانا كلينا للذهاب إلى شقته .»

فى هذه اللحظة قفز الكلب من على الكنبة ، ذاهباً مباشرة إلى سكريتا ، واقفاً على قدميه الخلفيتين ، واضعاً مخالبه الأمامية على صدر الدكتور . دعك سكريتا قفا الكلب ودون أى دهشة قال : «أهلا ، بوبى ، أهلا بك هنا ، كلب ممتاز...» .

«أهذا بوبى ؟» .

أجاب سكريتا «نعم» ، موضحاً أن الكلب يخص أناساً فى اللوكاندة القريبة وكلهم فى الحى المجاور يعرفونه لأنه يعشق التجوال .

أدرك الكلب أنه موضع الحديث فابتهج . هز ذيله وحاول أن يلحس وجه سكريتا .

قال د. سكريتا : «أنت عالم نفس ممتاز . عليك من أجل خاطرى أن تحلل لى برتلف ، فأنا لا أعرف كيف أتقرب إليه ، ولدى خطط كبيرة من أجلنا نحن الاثنين.» .

«تقصد تلك الصور المقدسة ؟» .

قال سكريتا «إلى الجحيم هذه الصور المقدسة» ، «لدى مشاريع أهم بكثير فى خيالى . أريده أن يتبنانى .»

«أن يتبناك ؟» .

«يتخذنى ابناً له . وهذا أمر فى غاية الخطورة بالنسبة لى . فلو أصبحت ابنه لأمكننى بالتالى أن أحصل على المواطنة الأمريكية .» .

«أتريد أن تهاجر ؟» .

«لا ، لا أريد. فأنا فى نصف الطريق للوصول إلى تجارب ولا أريد أن أقطعها. وذلك شىء آخر أريد أن أكلمك بشأنه اليوم ، لأننى أحتاج عونك فى هذه التجارب . أما فيما يخص المواطنة الأمريكية ، فالمسألة أنى أود الحصول على جواز سفر أمريكى يمكننى من السفر بحرية عبر العالم . ولو كنت مجرد مواطن عادى من بلادنا ، فلسوف تظل هنا للأبد . وأنا أموت شوقاً لزيارة إيسلند .»

«لماذا إيسلند دون كل الأماكن ؟» .

أوضح سكريتا «لأنها أفضل مكان لصيد السلمون» ، ثم واصل : «هناك مشكلة صغيرة ، أساسية ، وهى أن برتلف يكبرنى بسبع سنوات فقط . علىّ أن

أوضح له أن هذا التبنى بالتأكيد أمر قانونى حيث لايمكنهم أن يفعلوا شيئاً مع هذه الأبوة الطبيعية ومن المبدأ النظرى يمكنه أن يكون أبى بالتبنى حتى لو كان أصغر منى سناً .آمل أن يتفهمنى ، رغم أن له زوجة صغيرة فعلاً . مريضة عندى، ولسوف تصل هنا بعد غد . وقد أرسلت كيڤيتا للقائها فى المطار .»

«هل تعلم كيڤيتا بخطتك ؟» .

«بالطبع . أخبرتها أنه فى أى حال عليها أن تسعى للوفاق مع حماتها المستقبلية .»

«وماذا عن الأمريكى ؟ ما إحساسه بشأن اقتراحك ؟» .

«لا أستطيع فهمه . فهو لا يأخذ الأمر بجدية على الإطلاق . ذلك السبب فى أنى أحتاج إليك ، لاكتشاف مايلفت انتباهه حتى أتقرب إليه بالوجهة الصحيحة .»

لمح سكريتا ساعته وقال إن برتلف منتظر .

«وماذا بخصوص بوبى ؟» .

«ماذا يفعل هنا ، عموما ؟» .

أوضح چاكوب لصديقه كيف أنقذ حياة الكلب ، لكن سكريتا كان غارقاً فى أفكاره وظل فحسب نصف منصت . بعد أن انتهى چاكوب ، قال : «زوجة حارس اللوكاندة هى إحدى مريضاتى . ومنذ عامين ولدت طفلاً جميلاً . وهم مغرمون بالكلب بوبى ، فيمكنك أن تخرجه لهم هناك غداً . وبهذه الأثناء سوف نعطيه حبة منومة حتى لايزعجنا .» .

أخذ أنبوباً من جيبه وهزه ليخرج قرصاً فى راحة يده. ثم أمسك الكلب ، فتح فكيه ، وأسقط القرص أسفل حلقه .

قال «سيخلد فوراً لأحلامه اللذيذة» ، ثم قاد چاكوب إلى خارج غرفته .

(٩)

حيا برتلف ضيفيه ، ثم نظر چاكوب عبر الغرفة . خطا إلى لوحة القديس الملتحى .قال لبرتلف «أفهم إنك فنان» .

«نعم . ذلك القديس لازاريس ، قديسى الراعى .»

استفسر چاكوب : «لماذا رسمت هالته زرقاء ؟» .

«يسعدنى سؤالك هذا . فالناس عادة تنظر إلى الصورة دون أدنى فكرة عما يرونه . وأنا رسمت الهالة زرقاء ببساطة لأن الهالات فى الحقيقة زرقاء .»

أظهر چاكوب الدهشة فواصل برتلف : «الذين يحبون الله بطاقة استثنائية يكافأون بسعادة تملأ أرواحهم وتشع خارجها . ونور هذه السعادة القدسية معتدل وهادىء ، ويتخذ لون السماوات الزرق .»

قاطعه چاكوب «خلنى أفهمك» ، «هل تؤمن فعلاً أن الهالات أكثر من مجرد رموز نقشية ؟» .

رد برتلف «بالتأكيد» ، «أنا لا أتصور ، بشكل طبيعى ، أنها تشع باستمرار أو أن أولئك القديسين يسيرون عبر العالم كأعمدة النور السارية . بالطبع لا . فى لحظات معينة فقط من السعادة الداخلية المتوترة ، يشعون بنور مزرق . فى القرون الأولى بعد موت المسيح ، حيث كان هناك قديسون كثيرون وأناس كثيرون يعرفونهم بشكل حميم ، حصل اتفاق عالمى بخصوص لون الهالات ، ولسوف تجدها زرقاء فى كل اللوحات والتصاوير الجصية لتلك الأزمنة ، فقط منذ القرن الخامس بدأ الفنانون تدريجياً يرسمون الهالات بألوان أخرى ، البرتقالى أو الأصفر مثلا . وفى الحقبة القوطية ، ظهرت مختلفة بالشكل الذهبى . فالذهب قيمة

تزيينية ومعبرة أكثر عن القوة الدنيوية ومجد الكنيسة . لكنها لاتشبه الهالة الحقيقية أكثر من كون الكنيسة فى ذلك الزمن تشبه المسيحية الأصلية .»

قال چاكوب «هذا شيء شيق» ، بينما سار برتلف إلى خزانة الشراب طالباً من ضيفيه ماذا يريدان أن يشرباه . كلاهما استقر على الكونياك ، واستدار برتلف إلى د. سكريتا : «آمل ألا تكون نسيت ذلك الأب سيء الحظ . فهذا يهمنى كثيراً.»

أكد سكريتا لمضيفه أن كل شيء سوف يتم على أكمل وجه ، وعند هذه النقطة سأل چاكوب عما يشيران إليه . بعد توضيح مجرى الحوار له (دعنا تلفت الانتباه لحذر الرجلين الشهم : فلا أسماء تذكر على الإطلاق) ، عبر چاكوب عن تعاطفه مع ذلك المجهول الحصيف .

«من منا لم يجرب هذا الاستشهاد ! فهو إحدى تجارب الحياة . أولئك الذين يستسلمون ويصبحون آباءً ضد رغبتهم يعانون من الهريمة طيلة العمر . يصيرون أكثر مرارة ، مثل كل الخاسرين ، ويتمنون نفس المصير للآخرين.»

«صديقى العزيز !» صاح برتلف . «كيف تتكلم بهذه الطريقة أمام أب سعيد ؟ فلو مكثت يومين أو ثلاثة فسوف تتاح لك فرصة أن ترى ابنى الرائع ولسوف تتراجع عما قلته للتو !» .

قال چاكوب «لن أتراجع عن ذلك» ، «لأنك لم تصبح أباً رغماً عن إرادتك !» .

«هذا هو محض الحقيقة . فأنا أب بخالص إرادتى وإرادة د. سكريتا .» .

أومأ سكريتا فى رضى وأعلن أنه أيضاً له رأى مختلف تماماً عن الأبوة من چاكوب ، كما شهدت بذلك خصوبة زوجته السعيدة ، كيڤيتا . ثم أضاف : «إن الشيء الوحيد الذى يجعلنى شكاكاً إلى حد ما بالنظر إلى الإنسال البشرى هو المجموعة الغبية من الآباء . فبعض من أسوأ الأفراد جاذبية فى العالم يحسون

بضرورة الإنجاب مهما كلفهم الأمر . وهم يقعون ظاهرياً تحت الوهم القائل إن حدود القبح تصبح أقل شأناً لو شاركوا فيها من ينحدرون من أسلافهم .»

قام برتلف بتشخيص وجهة نظر د. سكريتا العرقية الجمالية : «دعونا لا ننسى أن سقراط كان قبيحاً كالخطيئة ، وأن كثيراً من العشاق المعروفين لهم نصيب ضئيل من حسن الخلقة . إن العرقية الجمالية بيان دائم تقريباً على انعدام الخبرة. فالناس الذين لم يحفروا عميقاً فى عالم المباهج الغرامية يحكمون على النساء بنحو صارم على أساس المظهر الخارجي . لكن أولئك الذين يعرفون النساء حقاً يدركون أن عيوننا يمكنها أن تكشف فقط القشرة الضعيفة من الكنوز الممنوحة للمرأة . حين دعا الله البشرية لتحب شخصاً آخر وتتكاثر ، يا د. سكريتا، فالله كان يقصد الجميل والقبيح . على أية حال ، فأنا مقتنع بأن المحك الجمالى يأتى عن طريق الشيطان وليس عن طريق الله . ففى الجنة ، لايوجد أى تمييز مابين القبح والجمال .»

بعدها دخل چاكوب النقاش ، مدافعاً عن الاعتبارات الجمالية التى لم تلعب دوراً فى نفوره من الأبوة، أضاف : «لكن يمكننى رصد عشرة أسباب أخرى ضد الأبوة».

قال برتلف «تفضل، عندى فضول لذلك» .

قال چاكوب «بداية ، أنا لا أحب الأمومة» ، ثم صمت متأملاً «إن العصر الحديث قد رفع الأقنعة عن كل الأساطير . وكفت الطفولة عن أن تكون هى عهد البراءة منذ وقت طويل . اكتشف فرويد النزعة الجنسية لدى الأطفال وحكى لنا كل شيء عن أوديب . جوكاستا(*) فقط هى التى لاتزال عليها الحجاب ، ولم يجرؤ أحد بعد على تمزيق حجابها . آخر وأكبر التابوهات هو الأمومة ، وهذا صحيح

(*) Jacasta : ملكة طيبة اليونانية التى تزوجت ابنها ، أوديب ، دون أن تعلم (مـ).

لأن أكبر لعنة لاتزال مختفية أيضاً . فليست هناك عبودية أكثر جوراً من تلك التى بين الأم والطفل ، فهى تعوق الطفل للأبد ، والابن الناضج يسبب لأمه أشد معاناة جنسية عنيفة . إنى أكرر إن الأمومة لعنة وأنا لا أود أن تتناقل عبرى .»

قال برتلف «واصل» .

«هناك سبب آخر لايزال بخصوص رغبتى فى عدم رؤية الأمهات تتكاثر» قال چاكوب بصعوبة نوعاً . «فأنا أعشق الجسم الأنثوى ، وأشمئز من فكرة أن يتحول ثدى معشوق إلى كيس لبن .»

قال برتلف «واصل» .

«إن دكتورنا هنا سيؤكد يقيناً بأن النساء اللاتى يتخيرن الإجهاض تتم معاملتهن بطريقة أقل عاطفية بكثير من قبل الهيئة الطبية عن النساء اللاتى يحملن أطفالاً . وتظهر الممرضات ازدراءً معينا نحو النساء اللواتى يجرين عمليات إجهاض ، حتى لو تعرضن هن أنفسهن لنفس الإجراءات عند نقطة معينة فى حياتهن . لكن النفور أشد قوة من المنطق، لأن عبادة الإخصاب إملاء من الطبيعة. وذلك سبب عدم الجدوى فى البحث عن المنطق وراء الدعاية للنمو السكانى .هل الفضيلة الإنجابية التى تبشر بها الكنيسة تميز صوت المسيح ؟ أو هل تظن بأن الوضع الشيوعى الرسمى بخصوص النمو السكانى يعكس صوت ماركس ؟ إن الرغبة العالية فى حفظ الأنواع سوف تنتهى بالاختناق حتى الموت . لكن الدعاية تصر على الطحن دوماً ، أما الجمهور فيتأثر حتى الدموع بصورة امرأة مرضعة أو ابتسامة طفل . وهذا يثير اشمئزازى . حين أتصور نفسى منحنياً على عربة أطفال بابتسامة بلهاء ، مثل ملايين الآباء الذاهلين ، فهذا يجعلنى أرتجف .»

قال برتلف «واصل» .

«وبالطبع ، لابد أن أفكر فى نوع العالم الذى سأرسل طفلى إليه : ففى غير

زمن على الإطلاق سوف يخف إلى المدرسة ، حيث يتم حشو دماغه بأكاذيب حمقاء وهراء حاولت طول حياتى مقاومته . هل يجب أن أراقب سليلى وهو ينمو ببطء إلى أبله ممتثل ؟ أم يجب أن أورث تراثى الذكى إليه ، فقط لأرى إحباطه المتزايد وهو يتورط فى نفس الصراعات القديمة ؟» .

قال برتلف «واصل» .

«وعليه بالطبع فأنا لابد أن أفكر فى نفسى ، أيضا . ففى بلادنا هذه يعاقَب الآباء لعصيان أولادهم ، والأولاد لسوء طوايا آبائهم. كم عدد الشبان الذين طردوا من المدرسة لأن آباءهم سقطوا فى تهمة الازدراء! وكم عدد الآباء الذين أقالوا أنفسهم إلى حياة إذعان جبانة فقط ليجنبوا أولادهم حياة الخطر! كل امرىء فى هذا البلد يريد الاحتفاظ بأى قدر من الحرية عليه أن ينسى إنجاب الأطفال» قال چاكوب ، ثم راح فى صمت .

قال برتلف «لقد منحتنا خمسة أسباب فقط . لايزال عليك خمسة آخرون حتى تجعلها على الأقل عشرة».

«السبب الأخير ساحق ماحق بالخمسة الآخرين» رد چاكوب بإفحام ، «إن الأبوة تتضمن توكيداً مجرداً للحياة البشرية . فإن أبوتى لطفل تعنى تصالحى مع العالم : فأنا ولدت ، استطعمت الحياة ، ووجدتها رائعة حتى لأعتبر أنها تستحق أن تتوالد .»

«وأنت ، ألم تجد الحياة رائعة ؟» .

حاول چاكوب أن يكون دقيقاً ، ثم قال بحرص «كل ما أعرفه هو أننى لا يمكن أن أقول باقتناع عميق : الإنسان مخلوق ممتاز وأريده أن يتوالد».

قال د. سكريتا «ذلك سبب أنك قد خبرت الحياة من جانب واحد فقط، الجانب الأسوأ » ، « أنت لم تعرف قط كيف تعيش . لقد كنت تفكر دائماً أنه من واجبك أن تصير مثقلا بها ، لذلك تتكلم فى قلب الأحداث . وما هى تلك الأحداث

التى كنت مستغرقاً فيها؟ السياسة. السياسة ، إنها أقل جزء من الحياة واقعية وفاعلية . إن السياسة هى الرغوة القذرة ألتى على السطح، بينما الحياة الفعلية تقبع فى الأعماق. والبحث عن الخصوبة الأنثوية سيدوم آلافاً من الأعوام . إنه تاريخ صلب، موثوق به . وليس هناك ذرة اختلاف إن كانت الحكومة فى مركز القوة هذه اللحظة. فحين ألبس قفازى المطاط وألمس رحم امرأة ، أكون أكثر قربا من مركز الحياة عنك، والذى خسرت فيه تقريباً حياتك الخاصة خلال اهتمامك بالبحث عن السعادة البشرية ».

وبعيداً عن اللجاج ضد تقريع صديقه، أومأ چاكوب بالموافقة . فواصل سكريتا، متشجعاً : «أرشميدس بمربعاته، مايكل أنجلو مع قطعة صوّان ، باستير مع أنابيب اختباره – هؤلاء هم الناس الذين غيروا الحياة البشرية وصنعوا التاريخ الحقيقى، بينما السياسيون،...» شوّح سكريتا بيده مزدرياً .

قال چاكوب «بينما السياسيون ؟ سوف أجيب أنا» ، «إن الفن والعلم هما مجالا التنافس التاريخى، بينما السياسة فعلياً مجرد معمل منغلق على تجارب الرواية المنجزة مع الكائنات البشرية. إن خنازير الجنيه البشرى قد فسخت الأبواب السحرية ثم انتصبت على المسرح، أغواها التصفيق ثم أرعبها نصب المشانق، مذمومة ومجبرة على ذم الآخرين . كنت جزءاً من ذلك المعمل ، كلا من الباحث وحيوان التجارب، وأدرك أننى لم أبتدع أى قيم جديدة (ولا أى فرد من العاملين زملائى كذلك) ، لكنى أعتقد بأننى قد تعلمت من معظم الناس الكثير عن طبيعة الإنسان.»

قال برتلف «إنى أفهمك» ، «وأعرف المعمل الذى كنت تصفه ، حتى لو لم يكن لى دور الباحث أبدا لكنى كنت دائماً خنزير الجنيه. إن الحرب قد أوجدتنى فى ألمانيا. والمرأة التى عشقتها أبلغت عنى الجستابو. جاءوا إليها بصورة تضمنى

ذراعاً بذراع مع امرأة أخرى. تألمت لذلك ، وكما تعرف ، فإن الحب المهيض يتلبس هيئة الكراهية . ذهبت إلى السجن بإحساس لافت أن الحب هو الذى وضعنى هناك . أليس ذلك عجيبا حين تجد نفسك بين يدى الجستابو وتدرك أن ذلك المصير هو بالفعل امتياز رجل عشق بكل عاطفته ؟» .

رد چاكوب بحسم : «إن الشىء الوحيد الذى يثير اشمئزازى حقاً فى البشرية هو طريقة العنف البشرى، الوضاعة، وضيق الأفق الذى يقبع مغلفاً فى الغالب تحت قناع الغنائية ورقة الإحساس . فالكائن البشرى يلقى بك إلى حتفك ، باكيا بدموع حارة على فعل هذا الحب الخائب. وأنت تذهب إلى المشنقة من أجل خاطر امرأة عادية تماماً ، مقتنعا بأنك تلعب دوراً نبيلا فى مأساة تستحق أن يكتبها شكسبير . »

«بعد أن وضعت الحرب أوزارها رجعت إلىّ باكية» واصل برتلف وكأنه لم يسمع تعليق چاكوب. «قلت لها : لا خوف عليك ، إن برتلف ليس رجل الانتقام» .

قال چاكوب «فى هذا السياق ، أتذكر غالباً الملك هيرود. أنت تعلم الحكاية . فقد اكتُشف الميلاد المفترض لملك اليهود القادم ، ولأنه خاف على عرشه، فقد قتل جميع الأطفال. إن أفكارى الخاصة عن هيرود مختلفة تماماً ، حتى لو عرفت أنها مجرد خيالات . فأنا أظن أن هيرود كان ملكاً نبيلاً، حكيماً، متعلماً ، قضى فترة تدريب طويلة فى معمل السياسة وكان يعرف الكثير عن العالم والإنسان . لقد علم هيرود بأن الإنسان ما كان ينبغى له أن يُخلق. وهذا الشك فعلاً ليس ناشئاً أو أثيما كما يبدو . ولو لم أكن مخطئاً ، فإن للرب نفسه أفكاراً ثانية عن الجنس البشرى وقد تدبر فى مسألة إلغاء عملية خلقه.»

«هذا صحيح» وافقه برتلف . «إنه مكتوب فى سفر التكوين : (فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته... لأنى حزنت أنى عملتهم) ».

«ربما كانت هذه مجرد لحظة ضعف من جانب الرب حين سمح لنوح أن ينقذ نفسه بالسفينة ، ولذلك ترك حكاية البشرية تستمر. هل لنا أن نتأكد بأن الرب لم يتندم مطلقاً على لحظة الضعف هذه ؟ وسيان ندم أم لا ، فقد كان ذلك متأخراً جداً. فلن يستطيع الرب أن يجعل نفسه مضحكاً بالانقلاب الدائم على قراراته . وقد يكون هو الرب نفسه الذى زرع هذه الفكرة فى بال هيرود ؟ هل لنا أن نبحث فى مثل هذا الاحتمال؟ » .

هز برتلف كتفيه وظل صامتاً .

«كان هيرود ملكاً . ولم يكن مسئولاً فحسب عن نفسه . فهو لم يتمكن بالفعل أن يقول لنفسه ، كما أقول : دع الآخرين يمضون على هواهم، وأنا أرفض مسألة توالد النوع البشرى. كان هيرود ملكاً وقد عرف بأنه كفؤ لاتخاذ قرارات ليس من أجل نفسه فقط بل من أجل آخرين كثيرين، فقرر نيابة عن الجنس البشرى كله أن الإنسان لابد أن يتوقف عن تكرار نفسه. ذلك السبب الذى منه نشأت مذبحة الأبرياء. فلم يكن هيرود منقاداً بالنزعات الدنيا التى ورثها عن التقاليد. كان هيرود مدفوعاً بذلك الشوق النبيل لتحرير العالم من عوائق البشرية » .

قال برتلف «إنى أفضل تأويلك

أننى منذ الآن سأفكر فى مذبحة ا'

تنس فى أى وقت أن هيرود قرر أن يتخلص من البشرية، وهناك طفل صغير ولد فى بيت لحم قد راغ عن سكّينه . ثم كبر هذا الولد وقال للناس إن هناك شيئاً وحيداً نحتاجه لنجعل الحياة جديرة بالحياة: أن نحب الآخر. وقد يكون هيرود أكثر تعليما وأعلى خبرة. لأن يسوع كان بالفعل رجلاً شاباً ، ومن المحتمل بأنه كان يعرف القليل عن الحياة . وقد نفسر كل تعاليمه من واقع شبابه وخبرته. أى سذاجته ، لو أحببت أن تقول . ورغم أنه كان على حق.»

«على حق ؟ من أثبت أنه على حق؟ » سأله چاكوب بطريقة المحارب .

رد برتلف «لا أحد» ، «لا أحد أثبت ذلك ولن يستطيع أن يثبته أحد . كان يسوع يحب أباه كثيرا حتى أنه لم يستطع أن يرى صنيعته تتصرف بهذا السوء. لقد كان منقادا بالحب ، لا بالعقل . ذلك سبب النزاع ما بين هيرود ويسوع والذى يمكن حسمه فحسب من خلال قلوبنا . هل الأمر يستحق أن تكون كائنا بشرياً أم لا ؟ ليس لدى برهان ، لكننى أعتقد مع يسوع بأن الرد هو نعم . » وبابتسامة أشار على د. سكريتا بإصبعه . «ذلك هو السبب الذى من أجله أحضرت زوجتى هنا ، إلى طبيبنا الممتاز ، والذى أراه فى عيونى أحد حوارى يسوع المقدسين ، لأنه يعرف كيف يقوم بالمعجزات وكيف ينفث فى أرحام النساء الهاجعة حياة جديدة. وأنا أشرب فى صحته !» .

(١٠)

كان چاكوب يعامل أولجا دائما بعناية أبوية مفرطة ويحب أن يشير لنفسه مثلها بـ«الرجل العجوز». وقد عرفت أن فى حياته نساء كثيرات يتصرف معهن بشكل مختلف تماما ، وكانت تغار من ذلك. لكن اليوم، وللمرة الأولى، خطر على بالها أن هناك فعلا شيئا عجوزا بخصوص چاكوب . فإن تصرفه يشى بنكهة شاحبة من الابتذال يدركها الشبان فى ناسهم العجائز .

شىء مميز فى الرجال المسنين هو تباهيهم بالحرمان الذى تحمّلوه ، وتحويل ماضيهم المعذب إلى نوع من متحفية الجَلَد (يا للأسى، فهذه المتاحف الحزينة تهدى إليها عموماً القليل من الزائرين !) .

وأدركت أولجا أنها إحدى المعروضات الحية الأساسية فى متحف چاكوب، وأن علاقته النبيلة المؤثرة لها كانت تعنى جلب الدموع للزائرين.

واليوم ، تم إطلاعها على أكثر المعروضات الثمينة غير الحية فى المتحف : الحبة الزرقاء الباهتة. حين فك الورقة عنها أمامها فى بواكير النهار اندهشت لتجد نفسها ليست أقل القطع حركة. وفهمت أن چاكوب قد كابد محنا مفزعة وفكر جديا فى الانتحار ، لكن الشفقة التى كان يروى بها تجاربه بدت مضحكة. وطريقته فى طى منديل الورق بعناية كانت مفتعلة ، أيضا ، وكأنه يجلب للنور ماسة عديمة الثمن. كما أنها لم تستطع أن تفهم لماذا كان مصمماً على إعادة السم، حيث تحمل هذه الآلام وهو يصرح بأن كل بالغ عليه أن يتحكم فى موته الخاص تحت أى ظرف من الظروف. وبعد مغادرته البلاد لربما يقع ضحية السرطان أو أى مرض آخر مميت وعليه فلا زال يحتاج للسم. لا . كان واضحا تماما بالنسبة لچاكوب أن الحبة ليست ذريعة مفيدة بشكلها البسيط ، لكنها رمز مقدس لابد أن يعود بطقوسيته إلى الكاهن الأعلى . وذلك كان منافيا للعقل .

فى طريق عودتها من الحمامات ، توجهت رأسا إلى رشموند هاوس . ورغم كل أفكارها الماكرة، فقد كانت تتطلع للقاء چاكوب. إن بها رغبة عارمة لتدنيس متحفه وأن تتصرف كامرأة أكثر من كونها قطعة معروضات . ولذلك خاب أملها نوعا حين وجدت رسالة قصيرة على الباب تخبرها أن چاكوب وسكريتا فى ذلك الباب القريب لدى شقة برتلف وتطلب منها اللحاق بهما هناك. كانت تميل للقلق مع الصحبة . فهى لم تكن تعرف برتلف على الإطلاق، كما أن د. سكريتا يعاملها عموما بجو من عدم التمييز الخيّر.

رغم ذلك ، أوصلها برتلف إلى الراحة بسرعة. فقد حياها بانحناءة عميقة ، ثم وبخ د. سكريتا لأنه لم يقدم هذ المرأة الشهية له من قبل .

رد سكريتا بأن چاكوب قد أودع الفتاة فى رعايته ، وأنه قد أحجم عمدا عن تقديمها إلى برتلف وهو يعلم أن ليس لامرأة أن تقاومه .

قبل برتلف هذا العذر برضى مرح، ثم رفع التليفون وطلب العشاء .

قال د. سكريتا «شيء لا يصدق» ، «كيف لصديقنا أن يتوصل إلى هذه المعيشة الباذخة فى هذا المكان المنعزل حيث لا يوجد فندق واحد يمكنه تقديم وجبة متوسطة الجودة .»

وضع برتلف يده على علبة سيجار مفتوحة تقف جنب التليفون ؛ تمتلىء بأنصاف دولار أمريكية من الفضة . «الواحد لابد أن يكون كريماً ... » وابتسم .

لاحظ چاكوب أنه لم يعرف أبداً رجلاً مثل برتلف ، يؤمن بالله فى حماسة عاطفية رغم أنه يتوصل للاستمتاع بحياة معقولة .

قال برتلف «هذا يعنى ربما أنك لم تعرف أبداً أى مسيحيين حقيقيين»، «فإن كلمة المبشر (*) تعنى (أنباء سعيدة)، ومتعة الحياة هى أكثر المورو‌ثات جوهرية لدى المسيح . »

بدا لأولجا أن هذه نقطة جيدة للدخول فى النقاش: «كان معلمىّ يؤكدون دائما على أن المسيحيين يأخذون فى اعتبارهم الوجود الأرضى فحسب كواد للدموع ويفهمون الحياة الحقة فى شغف والتى تبدأ فقط بعد الموت».

قال برتلف «عزيزتى الشابة» ، «لا تثقى بالمعلمين أبدا».

واصلت أولجا« وتعلمنا أيضاً أن المهمة الأساسية للقديسين هى نكران الذات ، بديلاً عن محبة شخص لآخر كانوايعذبون أنفسهم ، بديلاً عن مخالفة شخص لآخر كانوا يغلقون على أنفسهم فى الأديرة، وبديلاً عن طلب العشاء بالتليفون كانوا يزدردون الجذور والتوت.»

«أنت لا تفهمين القديسين على الإطلاق، يا عزيزتى أولجا. فقد كانوا أناساً لهم رغبة هائلة فى مباهج الحياة، فقط يتوصلون لهذه المناهج بوسائل خاصة. ما هى

(*)evangel : المبشر ، (م) .

فى رأيك أعظم لذة يمكن لكائن بشرى أن يُحصلها؟ لا يمكنك تخمين الإجابة، لأنك غير مخلصة بالدرجة الكافية. ليس هذا لوما، لأن الإخلاص يستلزم فهم الذات وفهم الذات يستلزم نضجا معينا. إذن كيف لفتاة تشع بالشباب أن تخلص؟ لا تستطيع، لأنها لا تعرف ذاتها الداخلية. لكن لو عرفت نفسها، لأمكنها أن تتفق معى فى أن أعظم لذة بشرية هى أن تكون معشوقة » .

ردت أولجا بأنها تفكر فى متع أكبر .

قال برتلف «لا أعتقد ذلك»، «خذى مثلا ذلك العداء الشهير الذى ذكر كثيرا بالصحافة مؤخرا ، والذى فاز بثلاثة سباقات أوليمبية مرة واحدة . هل تظنين أنه شخص يجتنب الحياة، بل وعليه يقينا أن يتخلى عن الكثير من الأحاديث اللبقة ، وممارسة الحب ، ويستمتع إلى حد المبالغة بالجرى حول حلبة السباق لساعات وساعات ، ويوما بعد يوم . إن نظام التدريب الرياضى يتحمل شبها كبيرا بتقشف قديسينا . القديس مكاريوس السكندرى حينما كان يعيش فى الصحراء، كان يملأ بانتظام سلة بالرمل ، يحملها على ظهره، ثم يمشى بها مجهدا عبر وديان لا نهائية لعدة أيام بغير انقطاع، حتى درجة الإنهاك الكامل. رغم ذلك فإن كلا من العداء الاوليمبى ومكاريوس السكندرى قد نال مكافأته بشكل مرغوب فيه يفوق كل ألمهما . هل تدركين الإحساس بسماع التصفيق فى مدرج أوليمبى مهول ؟ لا متعة أعلى من ذلك ! وكذلك عرف القديس مكاريوس جيدا لماذا يحمل سلال الرمل على ظهره . لقد طبقت شهرته فى اجتياز رحلات الحج التى يقطعها بالصحراء كل آفاق العالم المسيحى آنذاك . وعلى هذا فإن القديس مكاريوس كان بالضبط مثل العداء الأوليمبى: فبعد فوزه بسباق الخمسة آلاف متر جاء سباق العشرة آلاف ، وبعد فوزه به لم يغمض له جفن حتى فاز بالماراثون الكبير أيضاً . إن التعطش للإعجاب لا ترويه غلة . وحين وصل القديس مكاريوس مجهولا إلى دير تابيس طلب

منهم أن يقبلوه كاهنا عاديا. وانتظر أن يبدأ صيام الأربعين يوما، حينها جاءت لحظة المجد : فبينما كان الآخرون كلهم يصومون جالسين ظل هو واقفا طوال فترة الأربعين يوما! لا يمكنك أن تتخيلى هذا النوع من الانتصار ! أو انظرى ما فعله القديس سيمون ستيليتس . فى وسط الصحراء بنى عمودا بمنصة من فوقه ، كبيرة حتى يقف عليها . وقد ظل واقفاً على رأس هذا العمود إلى باقى عمره ، بينما كان العالم المسيحى يعجب بهذا السبق غير المألوف فى حماسة منقطعة النظير ، فهو إنجاز بدا به أن الإنسان يمكنه أن يسمو على حدوده البشرية . كان القديس سيمون هو جاجارين القرن الخامس. هل يمكنك تخيل السعادة التى كانت تملأ القديسة أن الباريسية وهى تسمع خلال إحدى إرساليات التبشير فى بلاد الغال أن القديس سيمون يعرف كيف تحيا وأنه امتدحها من فوق رأس عموده ؟ ولماذا فى رأيك كان شغوفا بتحقيق هذا السبق ؟ هل لأنه يتخلى عن روابطه مع الحياة وحاجات هذا العالم ؟ لا تكونى ساذجة ! فإن آباء الكنيسة أدركوا تماما أن القديس سيمون كان ممتلئا بالزهو ، وقد أخضعوه لامتحان . باسم سلطتهم الروحية أمروه أن ينزل من على عموده و يكف جهاده من أجل هذا السبق . يالها من ضربة قاضية للقديس سيمون ! لكنه كان حكيماً أو ماكرا بدرجة كافية حتى أنه أطاع . لم يكن آباء الكنيسة معارضين لفعلته ، فقط أرادوا التأكد من أن زهوه لا يسبق طاعته. ومجرد أن رأوه ينزل مغتما من عموده ، أمروه ثانية أن يصعد عليه . وبهذا ظل القديس سيمون على رأس عموده حتى وفاته ، وقد نال الحب والإعجاب من كل الدنيا» .

أنصتت أولجا بانتباه ، لكن مع كلمات برتلف الأخيرة انفجرت فى الضحك.

قال برتلف «إن ذلك التعطش الهائل للإعجاب لم يكن مضحكا بل هو الحافز . فذلك الشخص الذى يتوق للإعجاب يتشبث بالناس، يحس بالترابط الحميم معهم،

لا يمكنه العيش بدونهم . كان القديس سيمون وحيدا فى الفراغ، فوق متر مربع واحد من العمود، رغم ذلك كان يتواصل مع كل البشرية! ففى خياله رأى ملايين العيون المثبتة فى حدة عليه ، وأسعد هذا قلبه، وهذا مثال عظيم على حب البشرية وحب الحياة . ليس عندك أدنى فكرة، يا عزيزتى أولجا، عن مقدار التأثير الفعال لسيمون ستيليتس علينا حتى هذه الأيام . وحتى هذه الأيام، لا يزال له حضور حى داخل كل منا».

كان طرق على الباب ، ثم دخل النادل يدفع أمامه عربة محملة بالطعام . مدد مفرشا وتابع تجهيز المائدة. توصل برتلف إلى علبة السيجار ثم أسقط حفنة من العملات فى جيب النادل. شرعوا كلهم فى الأكل، والنادل واقف خلف ظهورهم، يملأ كاساتهم بالنبيذ ويخدمهم واحدا بعد آخر .

علق برتلف فى تقدير بالغ على الأصناف المنوعة ، ولاحظ سكريتا أنه لا يتذكر متى أكل بشهية . «ربما كانت آخر مرة استمتعت فيها بوجبة كثيرا حين كانت أمي لاتزال تعيش وتطبخ لى ، وأنا وقتها مجرد طفل صغير. كنت يتيما فى سن الخامسة، وكان العالم الذى ارتميت فيه غريبا ، وطعامه كان غريبا ، أيضا . إن الاستمتاع بالطعام يحدث فقط فى جو من المحبة» .

«هذا صحيح تماما» وافقه برتلف ، رافعا قطعة لحم بشوكته.

« إن الطفل الوحيد يفقد شهيته . وحتى اليوم ينبع ألم بداخلى حين أتذكر أن ليس لى أم أو أب. لقد طفت فى هذا العالم ، لكن صدقونى لا أزال أمد ذراعى اليمين للحصول على أب» .

قال برتلف «أنت تقدر بشكل بالغ الروابط العائلية»، «كل الناس هم الأقرب

والأعز لديك . ولا تنس ما قاله يسوع حين حاولوا إعادته الى أمه وإخوته . أشار إلى حوارييه قائلا : (هاهى والدتى وها هم إخوتى)» .

عارضه د. سكريتا : «عموما ، لم تعط الكنيسة أدنى اهتمام لإضعاف الروابط العائلية أو استبدال العائلة بنوع من الكوميونة الحرة».

«الكنيسة ليست هى يسوع . ولو سمحت لى أن أقول شيئا، فإن القديس بولس لم يكن مجرد حوارى للمسيح بل محرفا لتعاليمه. انقلابه من شاول إلى بولس – ألم نر عددا كافيا من أولئك المتعصبين العاطفيين الذين يتقافزون عبر ليلة واحدة من عقيدة إلى أخرى ؟ ولا تدع أحدا يخبرنى بأن المتعصبين يحفزهم الحب ! إنهم أخلاقيون يغمغمون بوصاياهم العشر . لكن يسوع لم يكن يهتم بالأعراف . تذكر فقط ما قاله حين لاموه على عدم توقيره الكافى ليوم السبت: (جعل يوم السبت للإنسان ولم يجعل الإنسان ليوم السبت) . كما أن يسوع كان يحب النساء! هل يمكنك أن تتخيل القديس بولس كعاشق ؟ لسوف يديننى القديس بولس بسبب من حبى للنساء . لكن ليس هكذا يسوع . فلا أرى شيئا خاطئا فى حبى للنساء، للكثرة من النساء. ويكونى محبوبا لديهن فى المقابل» . كان برتلف يبتسم، سعيدا مع نفسه . «يا أصحابى ، حياتى لم تكن سهلة ولقد واجهت الموت مرات عديدة . لكنه الرب كان كريما معى : لقد عرفت نساء كثيرات ، وقد خبرت عشقهن» .

انتهت الوجبة وكان النادل على وشك أن يبدأ تنظيف المائدة حين دق الباب بطرقة أخرى . كانت الطرقة واهنة ، خجولة ، وكأن شخصاً ينتظر التشجيع . قال برتلف : «أدخل» .

فتح الباب فدخلت طفلة ، بنت صغيرة فى حوالى الخامسة. كانت ترتدى فستانا أبيض بأكمام منفوخة وعليه وشاح بزمام أبيض عريض مربوط من الخلف

فى طية مزدوجة كبيرة تشبه زوجا من الأجنحة، كانت تمسك زهرة فى يدها، زهرة داليا كبيرة. حين رأت الغرفة تمتلىء بالناس، كلهم قد وقف وأدار عينيه نحوها، ظلت ساكنة ولم تجرؤ على المضى قدما . نهض برتلف فى ابتسام بهيج قائلا : «لاتخافى ياملاكى، ادخلى» .

جرت الطفلة ، وكأنها ائتنست بابتسامة برتلف، نحوه ضاحكة. تقبل برتلف الزهرة ثم باس البنت على جبهتها .

لاحظ الجميع هذا المشهد، بمن فيهم النادل ، وكان يملؤهم العجب .

وكانت البنت بوشاحها الأبيض المزدوج تشبه فعلا ملاكا مجنحا . أما برتلف فقد انحنى للأمام ممسكا بساق الداليا فى يده، وكأنه واحد من تماثيل القديسين فى العصر الباروكى التى تزين ميادين المدن الريفية .

ثم آستدار إلى ضيوفه «أصدقائى الأعزاء، لقد سعدت بصحبتكم وآمل أن تكونوا قد استمتعتم بالأمسية كما هو حادث لى . وأتمنى أن أجلس معكم حتى ساعة متأخرة من الليل ، لكن قد ترون بأنه مستحيل . فهذا الملاك البديع يدعونى إلى شخص ما ينتظرنى . قلت لكم إن الحياة قد ضايقتني بوسائل عدة، لكنى حظيت بحب النساء» .

قرب برتلف زهرة الداليا على صدره . أما يده الأخرى فقد لامست كتف البنت الصغيرة، وكان ينحنى فى جميع الاتجاهات . وبالنسبة لأولجا، فقد بدا المشهد مسرحيا بشكل مضحك . وأسعدها أنه راحل لأنها ستكون بمفردها أخيرا مع چاكوب .

استدار برتلف وقاد الطفلة نحو الباب . لكن قبل مغادرة الغرفة مد يده فى علبة السيجار وملأ جيبه بملء قبضته من العملات الفضية .

(١١)

بمجرد أن انتهى النادل من تكديس الأطباق والزجاجات الفارغة فوق عربته وغادر الغرفة ، قالت أولجا :

«من يا ترى تكون تلك البنت الصغيرة ؟ » .

رد سكريتا «لم أرها من قبل مطلقا» .

قال چاكوب «تشبه فعلاً الملاك الصغير» .

ضحكت أولجا «الملاك الذى يقوم بالقوادة على الخليلات ؟»

«نعم ، قوادة وسمسارة بين اثنين . هذا بالدقة هو ماينبغى أن يكون عليه ملاكه الشخصى » .

قال سكريتا «لست أدرى إن كانت ملاكا أم لا» ، «لكن الأمر غريب حقا حيث أنى لم أر هذه البنت من قبل ، رغم أنى أعرف تقريبا كل من بالمنطقة» .

«إذن هناك تفسير واحد فقط» وابتسم چاكوب « ليست من هذا العالم» .

قالت أولجا « سيان كانت ملاكا أو ابنة عاملة التنظيف هنا، فهناك شىء واحد أراهن عليه، ليست هناك حبيبة تنتظره على الإطلاق ! فهو شخص ممتلىء بذاته للغاية ولا يكف عن التفاخر» .

قال چاكوب «إنى أحبه» .

قالت أولجا «سيان ، لا أزال أقول إنه أكثر الكائنات البشرية امتلاء بذاتها على وجه البسيطة . ولن أندهش على الإطلاق لو عرفت أنه قبل مرور ساعة من زيارتنا قد أعطى هذه البنت ملء يده من العُملات وطلب منها المثول هنا بهذه الزهرة فى

مثل هذا الوقت . إن المتدينين لديهم موهبة فائقة فى الإعداد لمشاهد خارقة للإعجاب» .

قال د. سكريتا «أتمنى أن تكونى على حق ، وكما ترين ، فإن السيد برتلف شخص مريض، وكل ليلة غرام تتضمن خطرا فعليا عليه» .

«هكذا . لقد كنت على حق فعلا ! فكل تلميحاته عن النساء مجرد لغو من الكلام» !

قال سكريتا «عزيزتى الشابة، إنى طبيبه وصديقه، ولست فى مقام التأكد بخصوص ذلك . لا أعرف هذا ببساطة» .

سأله چاكوب : «هل مرضه خطير بالفعل ؟» .

«ولماذا تظن بأنه يمكث فى هذا النبع منذ أكثر من عام حتى الآن؟ كما أن زوجته ، والتى يجن بها، تأتى إليه هنا بين الحين والآخر» .

قال چاكوب «وبدونه يبدو المكان هنا كئيبا نوعا ما » .

وفى الحقيقة فقد صاروا ثلاثتهم فجأة كاليتامى في هذه الشقة الغريبة ولا توجد لديهم أية رغبة فى البقاء مدة أطول .

نهض سكريتا من كرسيه. «لسوف أعود بالآنسة أولجا وعندئذ يمكننا أن نتنزه قليلا. لا يزال لدينا الكثير نحكى فيه» .

احتجت أولجا «لا أحس بحاجتى للنوم بعد !» .

قال سكريتا بحزم «إنه الوقت المناسب. ولأنى طبيبك.فإنى آمرك بالذهاب إلى الفراش » .

غادروا رشموند هاوس وبدأوا السير نحو الحديقة. وعبر الطريق وجدت أولجا الفرصة كى تهمس لچاكوب : «أريد أن أكون معك الليلة بمفردى ...»

هز چاكوب كتفيه لامباليا فحسب، حيث كان سكريتا يفرض عليه إرادته بسطوة كبيرة . أخذا الفتاة إلى ماركس هاوس، وفى حضور صديقه لم يهتم چاكوب حتى بتقبيلها على الخد، كما هى عادته. إن نفور الطبيب الفطرى من صدرها الشبيه بالبرقوق الجاف قد أثار أعصابه. ورأى خيبة الأمل فى وجه أولجا وتأسف أنه آلمها .

سأل سكريتا «إذن ما رأيك» حين وجد نفسه وحيداً مع صديقه . «لقد سمعتنى أوضح أننى محتاج لأب. الصخرة لابد أن تبكى ، لكنه ظل يحكى بحماقة عن القديس بولس. هل من الصعب حقا بالنسبة له أن يصل إلى هذه النقطة ؟ منذ سنتين وأنا أصب على مسامعه أننى يتيم . وقد فسرت له مزايا جواز السفر الأمريكى . لابد أن أحكى له ألف نادرة عن حالات التبنى المختلفة. وأتوقع أنه قد لقط الإشارة وسوف يتبنانى» .

قال چاكوب «إنه مشغول بنفسه كلية » .

«وهذا صحيح» وافقه سكريتا .

«لا تستطيع فعلا أن تلومه ، إن كان رجلا مريضاً» حكى له چاكوب، مضيفا : «إنى أفترض بالطبع، أن حالته خطيرة بالفعل كما أوضحت .»

قال سكريتا «وقد تكون أسوأ من ذلك»، «فمنذ ستة أشهر جاء بانسداد جديد، مؤلم للغاية . ومنذ ذلك الوقت لم يجرؤ على مغادرة هذا المكان، وهو يعيش هنا مثل السجين. زوجته تتشبث باللولب. وهو يعرف» .

«فى هذه الحالة» قال چاكوب وهو مستغرق «لابد أنك أدركت منذ زمن أن الطريقة المباشرة لا تؤدى لنفع ، لأن تلميحاتك تذوب فحسب خلال تأملاته عن نفسه . لابد أن تخبره عما تريد، مباشرة وبشكل مفتوح فعلاً. وأنا متأكد أنه

سيقبل ، لأنه يحب أن يسعد الناس. فهذا ملائم لصورته الشخصية. وهو يريد أن يجعل الناس سعداء» .

صاح سكريتا «أنت عبقرى! » مقتفيا أثره. «وهذا فى بساطة بيضة كولمبوس ، وأنت على حق بين ! وكأننى أحمق قد أضعت عامين من عمرى فقط لأنى أسأت تقدير موقفه! خسرت عامين في نحنحتى ولعثمتى بغير ضرورة مجدية ! وهذا خطؤك لأنك كان لابد أن تنصحنى منذ وقت طويل !» .

«كان لابد أن تسألنى ! » .

«وأنت لم تأت لزيارتنا منذ ما يزيد عن العامين! » .

مشى الصديقان منتعشين خلال الحديقة المعتمة، وهما يستنشقان هواء خريفيا صافياً .

قال سكريتا «قد جعلته أباً» ، « ولذلك فمن العدل تماماً أن يجعلنى ابناً ! » .

وافقه چاكوب .

«هل تعرف بمشكلتى ؟» استأنف سكريتا بعد سكوت طويل «إنى محاط بحمقى. هل هناك شخص واحد فى هذا المكان يمكن أن أطلب منه النصيحة ؟ والأذكياء قد ولدوا فى منفى مجرد. أفكر فى هذا ليلاً ونهاراً ، لأن هذا مجالى: إن البشرية تتناسل نوعاً لا يصدق من الحمقى. وكلما زادت نسبة غباء الفرد، زادت رغبته فى التكاثر. وأفضل الأفراد من لا يتجاوزون فى نسلهم الطفل الواحد، أما الأفضل – مثلك – فيتوصلون إلى الاستنتاج بأنهم لن ينجبوا على الإطلاق. تلك هى النكبة. فأنا أحلم دائما بعالم لا يولد فيه الإنسان وسط غرباء بل بين إخوة.»

أنصت چاكوب إلى نقاش سكريتا دون أن يجد فيه أى شىء شيق على وجه الخصوص . ثم واصل سكريتا :

«إنى لا أقصد من ذلك تعبيرا أجوف ! فأنا لست بسياسى بل طبيب، وكلمة أخ لها معنى محدد عندى. فالإخوة هم الذين لديهم على الأقل أحد الأبوين إجمالاً، فكل أبناء سليمان، رغم أنهم قد انحدروا من مئات الأمهات المختلفات ، كانوا إخوة . لابد أنهم كانوا فى منتهى الجمال ! ألا تعتقد هذا ؟» .

تنفس چاكوب هواء الليل الرطب ولم يعرف بماذا يرد .

«بالطبع » واصل سكريتا «فمن الصعب للغاية إجبار الناس على كبح حيواتهم الجنسية من أجل اعتبارات الذرية . لكن هذا ليس هو صلب المسألة، بأية حال. فإن القرن العشرين لابد أنه قادر على إيجاد طرائق جديدة لحل مشكلة التكاثر النسبى للنوع البشري. ولا يمكن أن نستمر فى الخلط ما بين الحب والإنجاب إلى الأبد» .

عند هذه النقطة وجد چاكوب نفسه موافقا .

قال سكريتا «أنت مهتم فقط بتحرير الحب من الإنجاب» ، «لكنى أكثر اهتماما بتحرير الإنجاب من الحب. وأريد أن أضمك إلى مشروعى. فقد خلّقت بنكا للحيوانات المنوية من منيى الخاص» .

أطرق چاكوب أخيرا بمسمعه .

«ما رأيك فى هذا؟ » .

«يبدو أنها فكرة باهرة » .

«أليس هكذا ؟ وقد شفيت تماماً عددا من النسوة العاقرات باستخدام هذا المنحى . لا تنس أن كثيرا من الزوجات يعقمن فحسب لمجرد أن أزواجهن عنينون. لدى زبائن كثيرات من كل أنحاء الجمهورية ، وبالإضافة لهذا، فمنذ الأربع سنوات الأخيرة كنت مسئولا عن فحوصات أمراض النساء الروتينية فى هذه المنطقة .

لا شيء أسهل من التقاط الحقنة ، وملئها بذلك الهراء واهب الحياة، ثم حقنها في هاتيك النسوة» .

«كم عدد الأطفال التي خلّقتها حتى الآن ؟ » .

«لقد قمت بفعل هذا سنوات عدة، لكن يمكنني فقط أن أخمن بالأرقام المضبوطة . وأحيانا لا أتأكد من أبوتي ، لأن مريضاتي غير مخلصات لي، فلنقل ، حيث ينمن مع أزواجهن. وفوق ذلك ، فهن يعدن إلى بلادهن ولا يدعنني أعرف غالبا إن كان علاجي ناجعا أم لا. لكن لدى تحكم أفضل في مريضاتي المحليات.»

سكت سكريتا ، فشرد جاكوب في تأملات رقيقة . إن مشروع سكريتا أثاره وأسعده ، لأن هذا يخص صديقه القديم، ذلك الحالم العنيد: «لابد أنه شيء عظيم أن تنجب كثيراً من الأطفال خلال عديد من النساء...»

أضاف سكريتا «وكلهم إخوة » .

كانا يتنزهان ، ويفعمان رئتيهما بذلك الهواء المنعش . ثم قال سكريتا أخيراً:

«ألا تعلم ، أقول لنفسي غالبا رغم أن هناك أشياء كثيرة على هذا الكوكب البالي تخصنا ولا نحبها ، فنحن لا يمكن أن نهرب من مسئولياتنا. ويجعلني أحزن كوني غير قادر على السفر بحرية عبر هذا العالم ، لكنني لا أستطيع مغادرة موطني بشكل دائم وللأبد . ولن أفترى عليه أبدا . أود لو أقدح نفسي أولاً. ماذا يفعل الواحد منا ليجعل بلاده أفضل ؟ ماذا نفعل لنجعلها أكثر احتمالا؟ نحيلها لبلاد نحس فيها حقا أننا في بيوتنا؟» استحال صوت سكريتا إلى شيء أكثر رقة ونعومة : «الوطن... يحس الإنسان فقط أنه في الوطن بين ناس من نفس نوعيته . ولأنك أخبرتني إنك ستسافر ، فقد قررت ضرورة أن تشارك في مشروعي . ولدى أنبوب اختبار مجهز لهذا . سوف ترحل، لبعيد، وفي خلال نفس الزمن سوف تهب

هذه الأرض أطفالك ! وفى خلال عشرة أعوام أو عشرين ، سوف ترى ما الذى سيتحول إليه هذا البلد البديع ! » .

قمر مدور معلق فى السماء (سوف يظل هناك حتى الليلة الأخيرة من قصتنا هذه ، ولذلك يمكن أن نطلق عليها بحق «المغامرة القمرية») ، وقد اصطحب د. سكريتا صديقه چاكوب عائدين إلى رشموند هاوس. قال «لا ترحل غداً».

رد چاكوب «لابد لى . إنهم ينتظروننى» لكنه عرف بأنه قد يتأرجح فى ذلك.

قال سكريتا «هراء» ، «أنا سعيد أنك أعجبت بخطتى . وغدا سوف نناقش كل تفصيلاتها .»

اليوم الرابع

(١)

حين غادرت مسز كليما المنزل فى الصباح ، كان زوجها لا زال فى فراشه .

سألته «ألم يحن الوقت كى تستيقظ ؟ » .

رد كليما « ولماذا أتعجل ؟ هؤلاء الحمقى لا يستحقون » ، متثائباً واستدار .

ثم أبلغها تواً أنه أثناء ذلك المؤتمر الممل منذ عدة أيام خلت أرهبوه بالصياح أن يهبهم كعربون للمحبة بعضاً من وقته الخالى لفرقة هواة، وذلك مساء الخميس، وقد خطط أن يشارك فى حفل موسيقىّ بمنتجع جبلىّ معين مع طبيب يعشق الجاز وعازف آخر هاو . كان يسب ويستشيط، لكن مسز كليما نظرت إليه فى وجهه وعرفت بالضبط أن كل غضبه مجرد زيف والقصة بأجمعها عن الحفل الموسيقىّ مجرد خدعة للتغطية على علاقة غرامية سرية . فقد كان وجهه صفحة بيضاء بالنسبة لها، لايمكنه أن يسطر عليه أى سر. ولهذا ، فحين استدار الآن، يهمهم ، كى ينام على جنبه الآخر، فهمت على الفور أنه لم يكن راغباً فى إقلاقه من نومه إلا لكى يُخفى وجهه حتى يمنعها من إمعان النظر فيه .

بعدها غادرت إلى العمل . حين منعها المرض من الظهور على المسرح ، وجد لها وظيفة سكرتيرة فيه . لم تكن وظيفة هينة، فقد كانت تقابل دائماً أناساً مُبهرين، وكانت تتمتع بحرية معقولة فى تنظيم برنامج عملها .

وصلت لمكتبها، جلست على كرسيها لتفتح عدة خطابات مكتبية، لكنها وجدت صعوبة فى التركيز .

لا شيء يمكنه أن يستحوذ على شخص تماماً مثل الغيرة . إن فقدان كاميلا لأمها منذ عام مضى كان حظاً سيئاً بدرجة أكبر من مغازلات عازف البوق . إلا أن هذا اليُتم كان يؤلم كاميلا بدرجة أقل، رغم غرامها الشديد بأمها. كان ألم فقدانها له أوجه عديدة، يا للرحمة : الأسى، الشوق، الحرقة، تأنيب الضمير، أو حتى بسمة هادئة. وذلك الألم تبدّد ياللرحمة : من تابوت أمها تشوّشت أفكارها عائدة إلى طفولتها، ولدرجة أبعد عادت إلى طفولة أمها، شغلت أفكارها نفسها بمجموعة من المهمات العملية، بمستقبلها المنفتح، وبزوجها المخلص المواسى بجانبها (نعم، أثناء هذه الأيام الاستثنائية ، كان كليما هو سلواها) .

وعلى النقيض، فإن ألم الغيرة ليس منتشراً، فهو يدور مثل الحفار حول نقطة معينة. فتح لها موت أمها باباً إلى مستقبل (مختلف، يتيم، لكنه كان أكثر نضجاً)؛ أما ألم خيانات زوجها فلم يفتح لها أى باب على الإطلاق. كل شيء تركز على صورة (حاضرة أبداً) محددة لجسده الخائن، على إيلام (حاضر أبدا) محدد. بعد موت أمها كانت كاميلا قادرة على الإنصات للموسيقى، وحتى على القراءة، لكن خلال نوبة الغيرة لم تكن قادرة على فعل أى شيء مطلقاً.

بمجرد أن ذكر كليما رحلته خطر لها فكرة الذهاب إلى النبع والتأكّد من صحة الحفل المزعوم، لكنها عارضت هذه الخطة حيث عرفت بأن كليما يبغض أى أمارة على الغيرة. لكن الغيرة كانت تدور داخلها مثل موتور سريع ولم تدر إلا وهى ترفع سمّاعة التليفون . تظاهرت أمام نفسها بأنها تتصل بمحطة السكة الحديد دون أى قصد معين، وبعيداً عن العصبية، خارج عجزها المطلق عن التركيز فى انسجامها .

عرفت أن القطار سوف يرحل فى تمام الحادية عشرة صباحاً . رأت نفسها تسير مجهدة فى مفارق بلدة غير مألوفة، باحثة عن ملصق عليه اسم كليما، مستفسرة فى استعلامات النبع عما إذا كانوا يعرفون عن الحفل الذى سيُقيمه

زوجها، ثم تجد أنه لا وجود لبرنامج موسيقى، وفى النهاية تتوه، منهكة ومخدوعة، فترجع من حيث أتت. وتصورت أبعد من ذلك أن كليما سوف يخبرها عن الحفل فى اليوم التالى، بينما هى تضغط عليه بالتفاصيل . ولسوف تنظر فى وجهه، وتنصت إلى حكاياته المتخيّلة، وببهجة لاذعة سوف تشرب من خمر أكاذيبه المسمومة.

وعلى أية حال، أنبت نفسها على الفور : فليس لديها أى طريقة للتصرف ؛ لم يكن مهماً فى النهاية أن تقضى الأيام والأسابيع فى التجسّس وتخييلات الغيرة. كانت تخشى أن تفقده - وبالأخير فإن هذا الخوف سوف يدفعه بعيداً عنها!

لكن صوتاً آخر ردّ ببساطة بارعة: عموماً، فليس هذا أمر تجسس عليه! قال كليما إنه سيُقيم حفلاً، وهى تصدّقه تماما ! وعلى وج· ·دقة، ولأنها قد نَحّت الغيرة جانباً فقد قبلت مقولته على شكلها الحقيقى، دو ·دنى شك ! ألم يقُل بأنه كاره للذهاب، يفزعه قضاء يوم ممل بليلته هناك ؟ ذلك هو السبب الذى أرادت به أن تتبعه، وتجلب له مكافأة سعيدة ! فى نهاية الحفل ، فإن كليما الساخط سوف ينحنى بالتحية، ويفكر فى الرحلة المتعبة الطويلة للعودة - وبسرعة ! لسوف تظهر فجأة أسفل المسرح، ويراها باندهاش سعيد، ثم يستمتعان بالضحك المناسب سويا!

سارت إلى مكتب المدير وسلمته بعناية رسائلها المعدة. لقد كانوا يحبونها فى المسرح، فهى زوجة العازف الشهير، رغم ذلك فهى متواضعة وودودة . وكل امرئ كان يرضيه جو الحزن المنبعث منها فى الأغلب، وكان المدير ينحنى خجلاً لكى يتودد إليها . والآن، وافق بسرعة على طلب لإجازة قصيرة . وعدت بالرجوع صباح الجمعة، وأن تتأخر ذلك اليوم حتى ينتهى كل العمل.

(٢)

كانت العاشرة بالضبط حين تابعت أولجا روتينها المعتاد . وقد تلقّت من روزينا مفتاحاً وملاءة بيضاء عريضة، ثم راحت إلى كابينتها، خلعت ملابسها، ثم علقتها على شمّاعة، ولفت الملاءة حول نفسها مثل «التوجا»(*) ، أغلقت الكابينة، ثم أعادت المفتاح لروزينا، وراحت إلى الصالة القريبة حيث يوجد حمام السباحة . رمت بالملاءة حول السور ثم نزلت السلّم المعدنىّ لتلحق بمجموعة النسوة الأخريات اللاتى تفرّقن تواً فى المياه. لم يكن الحمّام كبيراً، لكن أولجا كانت مقتنعة بأن الاستحمام مهم لصحتها ولهذا حاولت أن تقوم ببعض الضربات فى المياه. أحدث هذا موجة طرطشت الماء فى فم إحدى النساء وهى تتكلم. «ماذا جرى لك ؟» صرخت فى أولجا غاضبة «ليس هذا حمام سباحة !»

كانت النسوة يجلسن حول حافة الحوض مثل ضفادع كبيرة . وأولجا تخشاهن. فقد كن جميعاً أكبر منها، أضخم منها، بسمنةٍ وشحوم أكثر . جلست فى تواضع بينهن، وانكمشت على نفسها متجهمة .

ثم لاحظت فجأة أن شيئاً هناك جوار الباب، شاب بقوام قصير، يرتدى چينزاً أزرق وسويتر بالياً .

استوضحت «ماذا يفعل هذا الشاب هنا؟»

استدارت النسوة جميعهن باتجاه ما أشارت إليه أولجا ثم بدأن يضحكن ويقهقهن. ظهرت روزينا وأعلنت بصوت عال : «إن السينمائيين قد بدأوا الوصول . وسوف يطلقون حكاياتهم عن الجميع كجريدة السينما.»

(*) Toga: ثوب فضفاض ، رومانى أو جامعى ، (م)

انفجرت النسوة فى موجة جديدة من الضحك .

احتجّت أولجا «يالها من فكرة سخيفة!» .

قالت روزينا «لديهم تصريح رسمى» .

احتجت أولجا بغضب : «لا يهمنى . لم يطلب أحد منى إذناً ! » .

كان الشاب ذو السويتر البالى، وما يشبه العدّاد المنير يتدلى من رقبته، يخطو مقترباً من الحمّام محملقاً فى أولجا بابتسامة وجدت أنها وقحة. «آنسة، إن آلاف الناس سيخرجون عن أطوارهم حين يرونك على الشاشة !»

استجابت النسوة بانفجارة جديدة من الضحك . غطت أولجا ثدييها بيديها (لم يكن صعباً، لأنه كما نعرف كانا يشبهان برقوقتين) ثم جثمت وراء الأخريات.

دخل رجلان آخران يرتديان الجينز، وقال الأطول : «رجاء، أيتها السيدات، تصرفن بشكل طبيعىّ تماماً، وكأننا غير موجودين هنا على الإطلاق.».

توصلت أولجا إلى الملاءة المجعدة على السور، وبسرعة لفت نفسها فيها، ثم صعدت إلى حافة الآجر بالحمام. كانت الملاءة مبللة وتنقط.

«يا للجحيم! على أين تذهبين؟» صاح بها الشاب ذو السويتر البالى.

«مازال على برنامجك خمس عشرة دقيقة أخرى فى الحمام!» نادت عليها روزينا.

«إنها خجولة !» ضحكن من خلف ظهرها.

قالت روزينا «تخشى أن يفسد أحد الأشخاص جمالها الكامل» .

«أميرة !» قاطعها صوت من الحمام.

«أى واحدة لا ترغب فى التصوير لها مطلق الحرية أن تغادر» قالها الرجل الطويل بهدوء.

قالت امرأة بدينة فى صوت رنان «ليس لدينا ما نخجل منه ! فكلنا حوريات ماء!» ، واهتز صوت الماء بالضحكات.

احتجت روزينا «لكن تلك الفتاة ليس لديها الحق أن تغادر ! فمن المفترض أن تبقى هنا خمس عشرة دقيقة أخرى!» بينما كانت أولجا تذرع المكان متحدية إلى كابينتها.

(٣)

لا يقدر أحد أن يلوم روزينا على كونها متعكرة المزاج، لكن لماذا توترت تماماً برفض أولجا أن يتم تصويرها؟ لماذا تطابقت كلية مع جمع العقيلات الممتلئات اللاتى رحبن بوصول الرجال فى صرخات وقهقهات؟ ولماذا صرخن هاته النسوة فى بهجة، عموما؟ طبعا ليس لأنهن أردن التأثير على الرجال الشبان بسحرهن لإغوائهم؟

لا. لكن نشأ استعراض وقاحتهن حيث يعلمن بأنه ليس لديهن أى وسائل للانجذاب مغوية فى تدبيرهن. وقد ملأهن النفور من الفتنة النسوية الشابة واشتقن لعرض أجسادهن العقيمة بطريقة جنسية كإهانة هازئة من تلكم الشابة العارية. اشتقن لإفساد مجد ذلك الجمال النسوى، لأنهن عرفن فى التحليل الأخير أن جسداً واحدا مثل آخر بدرجة أقل أو أكثر ، وأن القبح ينتقم لنفسه ضد الجمال بالهسيس فى أذن الرجل: انظر، هذه هى الحقيقة الكاملة لتلك الصورة النسوية التى تجد أنها فاتنة! انظر، هذه الغدة الثديية المتدلية، الكريهة ، إنها نظير ذلك الثدى بديع القوام والذى تعبده بحماقة.

كانت بذاءة العقيلات المرحة فى الحمام احتفالا بنصر نيكروفيلى (*) على سرعة زوال الشباب وقد تم هذا بكل تهليل فى حضور فتاة مضحية. حينما غطت

(*) necrophilia : أشتهاء الجثث . (م)

أولجا نفسها في ملاءة أدركن أن هذا فعل تحدٍ لاحتفالهن الشرير، وصرن مهتاجات منه.

لكن ماذا عن روزينا؟ فهي لم تكن بدينة ولا عجوزاً، في الحقيقة بانت أجمل من أولجا، لماذا إذن لم تشعر بأدنى إحساس بالتضامن معها؟

هل لأنها صممت على التخلص من حملها وكانت واثقة من حياة سعيدة مع كليما، إذن لتصرفت بطريقة مختلفة تماماً. لأن عشق الرجل يرفع المرأة عما حولها من حشد وقد يخدم هذا وحده روزينا بشكل بهيج. بخصوص العقيلات البدينات فقد اعتبرتهن كأعدائها وبخصوص أولجا كأختها، كانت تتمنى أن تراها على خير مايرام، كمثل الجمال المبتسم للجمال، السعادة للسعادة، الحب للحب.

لكن في الليلة السابقة نامت روزينا في بؤس شديد وتوصلت لقرار ألا تضع ثقتها في عشق كليما، ولهذا، فإن كل شيء وعد برفعها عما حولها من حشد بدا الآن أنه محض وهم. كل مالديها هو ذلك البرعم الصغير الذي نبت في بطنها، يحميه التقاليد والمجتمع. كل ما لديها هو الكوميونة المجيدة للقدر الأنثوي، كوميونة وعدت بالمجيء للدفاع عنها.

كانت هذه النسوة في الحمام تجسيداً لأنوثة كونية: أنوثة الإنجاب الخالدة، الحضانة، الازدهار، ثم الذبول، الأنوثة التي تسخر من هذه اللحظة المتلاشية حين تعتقد امرأة أنها محبوبة وحين تحس بنفسها وحيدة.

ليس هناك أي حل وسيط ممكن بين المرأة التي تعتقد في وحدتها وبين أخواتها الرافلات في عباءة أنوثتهن الشائعة، بعد ليلة مؤرقة، مبرحة من الألم، وضعت روزينا نفسها بحزم (ياحسرتا، على العازف البائس) في صف هذه الأنثوية الكونية، دائمة الشباب.

(٤)

ظل چاكوب يقود سيارته، مع بوبى جالسا جنبه، وكان بين الحين والآخر يحاول أن يلحس وجهه. لاح وراء البيوت الأخيرة بالبلدة عديد من المبانى الشاهقة. نشأت هذه البيوت السكنية منذ عام سلف وبالنسبة لچاكوب بدت مرعبة. فهى بارزة عن مشهد الخضرة الطبيعى مثل الأرتام فى مضجع الزهرة. ربت چاكوب على رأس الكلب، وظل الكلب محملقا فى رباطة جأش على ضواحى الريف. خطر لچاكوب أن من رحمة الله أنه لم يرهق عقول الكلاب الصغيرة بالإحساس الجمالى.

لحس الكلب مرة أخرى جانبا من وجه چاكوب (لربما ظن أنه عقل چاكوب)، وقال چاكوب لنفسه إن بلاده لم تعد هى الأفضل أو الأسوأ بل صارت هى الأكثر والأكثر سخفا. لقد عاش يوما بمرحلة اصطياد الكائنات البشرية وأمس شهد اصطيادا للكلاب، وتكون لديه انطباع برؤية نفس اللعبة تسرى على أنماط مختلفة من الشخصيات. أحكام رجال الشرطة كان ينفذها المساجين المسنّون وأحكام المساجين السياسيين كان ينفذها كلب بولدج، كلب مهجن يصعب تصنيفه ، أو كلب ألمانى.

تذكر أنه منذ سنين وجد جيرانه فى العاصمة قطتهم أمام بابهم لسانها مقطوع، ورجلاها مربوطتان، ومسامير مدقوقة فى محجرى عينيها. كل أطفال الحى كانوا يلعبون ألعاب الكبار. دلك چاكوب رأس بوبى ثم ركن أمام اللوكاندة.

حين خطا من السيارة افترض بأن سيندفع على الفور سعيداً إلى باب منزله. بدلا من ذلك، قفز بوبى على چاكوب وأراد أن يلعب. لكن جاءت صيحة عالية «بوبى!» فجرى الكلب تجاه امرأة كانت تقف فى المدخل.

قالت للكلب «يالك من مغازل يائس» ، ثم سألت چاكوب بهيئة اعتذار عما إن كان الكلب قد ضايقه.

حين شرح لها أنه قضى الليل مع الحيوان ثم قاد به السيارة هذا الصباح فقط ليعيده لأصحابه، شكرته المرأة كثيراً ودعته بود بالغ لدخول منزلها. سألته أن يريح نفسه فى غرفة خاصة تستخدم ظاهريا للمآدب الشخصية، ثم انطلقت مسرعة لتحضر زوجها.

عادت بعد وهلة مع رجل شاب جر كرسيا بحذاء چاكوب ثم صافحه. «لابد أنك طيب القلب كى تأتى كل هذا الطريق إلى هنا فقط من أجل خاطر بوبى، إنه متشرد حقيقى، يهيم دائما حول المكان، لكننا مغرمون به. ألا نأتى لك بغداء؟».

قال چاكوب «بلى، مع الشكر» ، فأسرعت المرأة إلى المطبخ. روى چاكوب كيف أنقذ بوبى من فرقة المتقاعدين حاملى الرماح.

صاح الرجل الشاب «أولاد الزنا!» ، ثم نادى على زوجته: «ڤيرا! تعالى هنا! أريدك أن تسمعى آخر أنباء أولاد الزنا تحت فى هذه البلدة!».

عادت ڤيرا وهى تحمل صينية عليها سلطانية تغلى. جذبت كرسيا وكان على چاكوب أن يسرد مرة أخرى حكاية أحداث الأمس. جلس الكلب تحت المائدة، تاركا لهما أن يخمشاه وراء أذنيه.

بعد أن أنهى چاكوب الحساء، نهض الرجل وأحضر طبقا به لحم خنزير مقدد وبعض الزلابية من المطبخ.

جلس چاكوب جوار النافذة. شعر بانبساط . وكان الرجل يسب أولاد الزنا «تحت فى هذه البلدة» (فتن چاكوب أن الرجل اعتبر لوكاندته مكانا مرتفعاً، أوليمبياً منفصلا ، مرصدا سامقاً). ثم جرت زوجته ولدا عمره سنتان: «إشكر هذا الرجل المهذب. لقد أعاد لك كلبك بوبى».

خرخر الطفل بكلمات يتعذر فهمها وابتسم لچاكوب ابتسامة عريضة. كانت الشمس تلمع والأوراق الصفراء تزفزف بنعومة على الأرض من خارج النافذة. كل شيء كان هادئاً، وترتفع اللوكاندة فوق جلبة الدنيا فتمتلىء بالهدوء والسكينة.

رغم أنه لم تكن لديه أية رغبة فى الذرية، فإن چاكوب كان يحب الأطفال. قال «لديك ولد صغير لطيف» .

ردت المرأة «إنه بطبوط غريب» ، «يعلم الله من أين أنفه هذا الذى يشبه الموزة».

فكر چاكوب على الفور فى صديقه. قال: «د. سكريتا أخبرنى أنك كنت مريضة عنده».

«هل تعرف الدكتور؟» سأله الرجل الشاب شغوفاً.

«هو صديق حميم لى من زمن ».

علقت الأم الشابة «إننا نمتن له كثيرا » ، وقال چاكوب لنفسه إن هذا الطفل قد يمثل إحدى نجاحات مشروع تحسين النسل لسكريتا.

«إنه ليس بطبيب ، بل ساحر!» قالها الرجل الشاب فى توقير.

خطر لچاكوب أنه فى مثل هذه البيئة الآمنة، كبيت لحم، بدا الزوجان مع طفلهما كعائلة مقدسة وأن ابنهما ذاك لم يتنزل من أب بشرى بل من طبيب إلهى.

قرقر الطفل كبير الأنف ببضع كلمات أخرى وكان الرجل الشاب يحدق فيه بمودة. عندئذ استدار إلى زوجته. «من يعرف؟ فقد يكون أحد أسلافك البعيدين له أنف بهذا الطول».

ضحك چاكوب لسؤال غريب نبت فى عقله: هل تدين زوجة سكريتا نفسها، كيفيتا، بحملها لحقنة زجاجية؟

«أليس هذا ممكنا؟» ضحك الأب الشاب.

رد چاكوب «أنت على حق» ، » عزاء كبير حين نفكر أننا قد \نموت بعد عمر طويل ثم ندفن بينما أنفنا لاتزال تهيم على الأرض».

ضحكوا جميعا من القلب، أما الفكرة التى فى بال چاكوب بأن سكريتا قد يكون والد الطفل الصغير فقد انحلت فى حلم خيالى سعيد.

(٥)

أخذ فرانتا المال من السيدة التى أصلح لها ثلاجتها . فوراً، خرج من المنزل، اعتلى دراجته البخارية بوثوق، ثم سار بها إلى حافة البلدة لتحويل حسابات اليوم إلى المكتب المسؤول عن خدمات الصيانة بالحى. فى الثانية بالضبط كان على مشارف نهاية اليوم. أدار دراجته البخارية مرة أخرى ثم دار إلى النبع. فى مكان الانتظار رأى سيارة مكشوفة بيضاء. ركن دراجته على صفها ثم سار محاذيا صف الشجر إلى الصالة الاجتماعية ، حين شك أن عازف البوق قد يكون هناك.

لم يكن يقوده روح القتال أو العجرفة. وليست لديه الرغبة فى اختلاق مشكلة. على النقيض، صمم أن يقمع مشاعره، وأن يقهر نفسه، وأن يستسلم. قال لنفسه إن حبه كبير لدرجة استعداده أن يضحى بأى شىء لأجل هذا الحب. تماما مثل أمير الحكاية الخرافية الذى يتحمل كل أنواع الحرمان والمعاناة لأجل خاطر أميرته ، يحارب التنانين والبحار الطائشة. كذلك هو، أيضا ، كان على استعداد لتحمل كل المحن البطولية.

لماذا كان مقهورا تماما؟ بدلا من ذلك، لماذا لم يكن يفتش عن بنات أخريات، كن موجودات فى النبع بمثل هذه الوفرة الفاتنة؟

كان فرانتا أصغر من روزينا، ومن سوء حظه أنه يعانى من انعدام خبرة الشباب . حين يكبر سوف يعى طبيعة العالم الزائلة وسوف يتعلم أنه ما تكاد امرأة واحدة تختفى عن الأفق حتى تبدو للنظر معجزة كاملة من نساء أخريات. لكن فرانتا لا يعرف أى شىء مايزال عن الزمن. فمنذ الطفولة كان يعيش فى عالم لا يتغير، فى نوع من خلود ثابت ، له نفس الأب والأم لا يزالان، وله روزينا، التى حولته إلى رجل، وتقوست فوقه مثل قبة السماء ، السماء الوحيدة التى هناك. لا يستطيع أن يتخيل الحياة من غيرها.

لقد وعدها مطيعاً أن يكف عن التجسس عليها، وقد صمم مخلصا أن يبتعد عن دربها. قال لنفسه إنه مهتم فحسب بعازف البوق، وإن تتبعه لن يقطع فعليا من وعده. وأدرك فى نفس الوقت، بالطبع، أن ذلك مجرد عذر وأن روزينا بالتأكيد سوف تدين سلوكه، لكن شيئا هنالك كان يدفعه أقوى من أى فكرة أو قرار، شيئا قويا مثل تلمس المخدرات : كان لابد أن يرى الرجل، أن ينظر إليه مرة أخرى، ببطء وعن قرب. ينبغى له النظر إلى وجه معذّبه. النظر إلى جسمه، لأن اتحاده مع جسم روزينا بدا غير متخيل ولا يمكن تصديقه. كان عليه أن ينظر، وكأن عينيه سوف تخبرانه إن كانت أجسامهما بالفعل قادرة على الاتحاد معا.

كانت البروفة تتأهل. فوق المسرح د. سكريتا على الدرامز، وزميل قصير نوعا على البيانو، ثم كليما مع بوقه. فى الصالة جلس حفنة من رجال شباب ، متعصبين للچاز دخلوا هائمين للسماع. لم يخش فرانتا من انفضاح سبب حضوره. فقد كان متأكدا أن عازف البوق، الذى أعماه نور الدراجة البخارية، لم

ير وجهه يوم الثلاثاء، وبفضل تحفظ روزينا فلا يعلم أحد الكثير عن علاقته معها.

قاطع عازف البوق الموسيقى ثم جلس إلى البيانو ليشرح للزميل القصير درجة العزف الصحيحة لقطعة معينة. جلس فرانتا على كرسى فى الخلف، وببطء تحول إلى ظل لن يغادر عازف البوق ولو للحظة واحدة فى ذلك اليوم.

(٦)

كان يقود السيارة عائدا من اللوكاندة، آسفا أنه لم يعد هناك كلب بهيج بجنبه يلحس وجهه. خطر له كم هى معجزة أنه خلال خمس وأربعين سنة من حياته قد حافظ على المقعد الذى جواره فارغا، ولهذا فبإمكانه الآن أن يهجر البلاد بسهولة تامة، دون حقائب، دون أعباء، وحيدا، وبإحساس خادع (رغم أنه جميل) من حيوية الشباب، مثل طالب يبدأ تواً وضع أساس لمهنته.

حاول جاهداً استيعاب أنه على وشك الرحيل عن وطنه الأم. حاول استدعاء حياته السالفة، لرؤيتها كمشهد طبيعى عريض يتركه خلفه فى أسى، مشهد طبيعى مهول يمتد حتى الأفق، لكنه وجد من الصعب عليه أن يفعل ذلك. ما توصل لرؤيته فى خياله كان صغيرا، محدوداً، مسطحا، مثل أكورديون مغلق. وبجهد كبير فحسب كان قادرا على تمثل ذكريات قليلة استطاعت الاندماج فى مظهر لحياة كبيرة، يفعمها المصير.

نظر إلى الشجر المصطف على الطريق. كانت أوراقه خضراء، حمراء، صفراء، وبنية. الغابة تشبه الحريق. وكان مسرورا أن يفكر فى أنه راحل فى وقت تحترق فيه الغابات وحياته وتتلف ذكرياته فى نور تلك المشاعل الجميلة، عديمة الشفقة. لماذا ينبغى عليه أن يحس بالحزن على عدم إحساسه بالحزن؟ الندم على عدم إحساسه بالندم؟

لا، فهو لم يكن آسفا على رحيله، لكنه لم يحس أبدا بأدنى حاجة للاندفاع في رحيله. وطبقا لخطته التي رتبها مع أصحابه بالخارج، فعليه بالفعل أن يعبر الحدود، لكنه أدرك أنه قد وقع مرة أخرى فريسة لعادة المماطلة هذه حيث كانت سمعته رديئة ولأن أصحابه كانوا يجازفون به للمخاطر على سبيل المزاح. بدا دائما أنه خاضع بدقة لهذا المزاح في تلكم اللحظات التي تستدعي فعلا محدداً، قاطعاً. عرف بأنه سوف يعلن طوال اليوم عن حاجته الضاغطة لرحيل عاجل، رغم أنه يعرف أيضا ومنذ الصباح أنه قد فعل كل مافي طاقته لتمديد إقامته في ذلك المنتجع السار، المكان الذي زاره من سنوات - أحيانا بعد استراحات طويلة، لكن دائما مع التوقع السعيد لرؤية صديقه القديم.

ركن سيارته (نعم، سيارة عازف البوق المكشوفة البيضاء ودراجة فرانتا البخارية الحمراء كانتا تقفان فعلا في نفس البقعة) ثم سار إلى المطعم حيث يقابل أولجا بعد وقت قصير. ستعجبه المائدة التي في الخلف بالقرب من النافذة والمطلة على موقف السيارات بزخرفه الملون، لكن لسوء الحظ كان رجل يقف هناك. اتخذ چاكوب مقعدا قريبا، لم يستطع منه رؤية الموقف، لكن غاظه الرجل الذي اتخذ المائدة المطلة على النافذة : بدا عصبيا بشكل ملحوظ ، يضرب بقدمه على الدوام بينما كانت عيناه مثبتتين على مدخل المطعم.

(٧)

وصلت أخيراً. قفز كليما، مندفعا إليها، ثم قادها لمائدة النافذة. كان يبتسم إليها، وتلك الابتسامة حاولت أن تقول «تفاهمنا لا زال قائما، فنحن نثق ببعضنا البعض، نحن هادئان وواثقان، وكل شيء على مايرام». فتش في وجه الفتاة عن استجابة واثقة ، لكنه فشل أن يجدها. لم يجعله ذلك مرتاحا.

كان يخشى الكلام عن الموضوع الذى يقلق راحته، وبدلا من ذلك بدأ بكلام بسيط لا معنى له قاصداً أن يخلق جوا خاليا من الهموم. وعلى أية حال ، فقد ارتدت كلماته ضد صمتها، وكأنها ترتطم بجرف على شاطئ.

قاطعته فجأة: «لقد غيرت رأيى. ستكون جريمة. يمكنك أن تفعل شيئا مثل هذا . لكن أنا لا».

انهار كل شىء، داخل عازف البوق. نظر بلا مبالاة على روزينا ولم يجد شيئا ليقوله. أحس بمجرد إجهاد يائس. فكررت روزينا: «ستكون جريمة».

نظر إليها. بدت وكأنها غير حقيقية. هذه المرأة، والتى لايقدر على استدعاء شكلها فى خياله، تظهر الآن أمامه كعقوبة مدى الحياة. (مثلنا جميعا، لاحظ كليما أن الشىء الحقيقى فقط هو مايشتبك بالوعى من داخله، تدريجيا، عضويا، فى حين أن ما يأتى من الخارج، على غير توقع ومصادفة، يدركه وكأنه غزو من الوهم. ولسوء الحظ، فلا شىء أكثر حقيقية من مثل هذا الوهم).

ثم ظهر النادل، هو نفسه الذى تعرّف على عازف البوق منذ يومين. أحضر صينية بكأسين من البراندى ، وقال فى مرح: «أتمنى تحقيق رغباتك» . واستدار إلى روزينا، وتفوه بنفس الملاحظة مثل المرة السابقة: «خذى بالك! فإن الفتيات سيقلعن عينيك !» ثم قهقه.

كان كليما مأخوذاً تماما فى فزعه حتى أنه لم يلتقط كلمات النادل. احتسى رشفة من الكونياك ثم مال تجاه روزينا. «ماذا يدور ببالك؟ كنت أظن أننا سوينا كل شىء. اعتقدت أن كلا منا قد فهم الآخر. لماذا إذن غيرت رأيك فجأة؟ فقد وافقتنى أننا فى البدء نحتاج إلى عامين نخلص فيهما لنفسينا. رجاء ، يا روزينا! إنا نحب بعضنا الآخر! لا تدعينا نحصل على طفل حتى نحس بالاحتياج إليه فعلاً، كلانا!».

(٨)

تعرف چاكوب على الفتاة المرضة التى أرادت أن تسلم بوبى للعجائز. نظر لها بانتباه، شغوفا لمعرفة مايدور من كلام بينها وبين الرجل. لم يستطع أن يتبين كلمة واحدة، لكنه أحس بالحوار مليئا بالتوتر.

صار واضحا تماما من وجه الرجل أنه يعرف أنباء حزينة. أخذت منه وهلة من الزمن قبل أن يقدر على البوح. أظهر انفعاله مرافعته أمام الفتاة. لكنها ظلت على عزمها صامتة.

بدا لچاكوب انطباع بأن حياة شخص ما فى مأزق. ظل ينظر للشقراء كشاهد فى حادثة يساعد بلطف فى تثبيت ضحية للجلاد، ولم يشك ولو للحظة أن الرجل الشاب كان فى جانب الحياة بينما هى فى جانب الموت. يحاول الرجل الشاب إنقاذ حياة، يترجّى مساعدة، لكن الفتاة ترفض وبسببها سوف يموت شخص ما.

وعندئذ رأى الرجل يوقف مرافعته، يبتسم ويربت على خد الفتاة. هل توصلا لاتفاق؟ لا على الإطلاق. فإن العيون التى تحت الشعر الأشقر تحدق لبعيد بقسوة، متفادية وجه الرجل.

لم يستطع چاكوب أن ينتزع عينيه بعيدا عن المرأة الشابة، امرأة لا يمكنه بعد أن يراها على أية حال إلا كمساعد جلاد. وجهها جميل لكنه فارغ. جميل حتى أنه يجذب الرجل، وفارغ لدرجة أنه يجعل ذرائعه المؤسية تتلاشى دون أثر. ذلك الوجه كان فخوراً، كذلك، وخطر لچاكوب أنه لم يكن فخورا بجماله لكن على وجه التحديد بفراغه.

بدا لچاكوب أن هذا الوجه يقف مع آلاف من الآخرين الذين عرفهم، وبدت حياته الكاملة كحوار بلا نهاية مع هذا الوجه. وحينما حاول التفسير،

انتحى ذلك الوجه جانبا فى غطرسة. وقد أحبط مقولاته بالتحول إلى موضوعات أخرى، هزأ ببسماته ودعاه بالثرثار، وأنكر طلباته باتهامه بالغطرسة - ذلك الوجه الذى لا يفهم شيئا وقد قرر كل شىء، وجه قاحل كصحراء ويفتخر بكونه قاحلاً.

خطر له أنه يضع عليه عينيه للمرة الأخيرة، وأنه فى ذلك الغد سوف يهجر عالمه إلى الأبد.

(٩)

لاحظت روزينا چاكوب، أيضا، وتعرّفت عليه. كانت واعية بنظرته المثبتة عليها وجعلها ذلك تتوتر. بدا لها أنها محاطة برجلين متحدين فى سرية، تحديقان يستهدفان رأسها كماسورتى بندقية.

كان كليما يكرر دعاواه وهى فى حيرة كيف ترد. حاولت أن تؤكد لنفسها أنه حين تتعلق حياة طفل بميزان، فإن المنطق يتنحى وما يهم هو المشاعر فحسب. واستدارت بعيداً عن التحديقين ناظرة من النافذة.

أثناء هذا التركيز الداخلى، بدأ يستثيرها إحساس مبهم بهويتها كأم مخدوعة، معشوقة، وأُسيء فهمها، بينما هناك إحساس بالهياج فى روحها مثل عجين مختمر. ولأنها لم تكن قادرة على التعبير عنه فى كلمات، فقد تركته يعبر من خلال عينيها، اللتين كانتا تحدقان فى عناد على بقعة فى الحديقة المجاورة.

لكن وبالتحديد فى تلك البقعة حيث نظرتها الثابتة مركزة، رأت فجأة شكلا مألوفا. روعت فجأة حتى أنها لم تعد تسمع ما يقوله لها كليما. كان هذا هو النظام الثالث من العيون المشيرة إليها مباشرة مثل ماسورتى بندقية، وتلك

البندقية أخطرها جميعا. فى البدء (يمكن أن نقول، منذ عدة أسابيع مضت) كانت روزينا لا تزال فى شك ممن هو فعليا السبب فى أمومتها الوشيكة. ذلك الشاب الذى يحاول التجسس عليها الآن، نصف مختفٍ خلف شجرة بالحديقة، من المحتمل بأن نأخذه فى الاعتبار كواحد من الاحتمالات. لكن ذلك فقط كان فى البداية، لأنها وبينما الزمن يمر، بدأت تميل أكثر وأكثر تجاه عازف البوق بأنه هو ملقحها الحقيقى، وحتى قررت أخيرا بإلزام أنه هو بالتأكيد . دعنا نستوضح تماما هذه النقطة: فلم تكن لديها أى نية فى إلقاء مسألة الأبوة هذه عليه بشكل مخادع. فقد اختارت ولم تنخدع بغير الحقيقة: قررت ببساطة أن هذا هو ما لابد أنه حدث بالفعل.

وبالإضافة لذلك، وجدت أنه من المستحيل تصديق أن بروزا مقدسا كالأمومة قد يتولد عن شخص ما تزدريه فعلياً. ليست هذه مسألة منطق، فقد أقنعت نفسها ببساطة وبنوع من الاستنارة فوق النسبية أنها قد صارت حاملاً فحسب بواسطة شخص تحبه، وتحترمه ويعجبها. وحين سمعت عبر التليفون أن هذا الذى اختارته كأب لطفلها مصدوم وممتعض من مهمته الأبوية، أحدق بها الموت ، فى نفس اللحظة التى لم تصبح فيها متأكدة تماما أنها قد تخيرت بشكل صحيح، استعدت للقتال من أجل ذلك.

لبث كليما فى صمت ثم دعك خد روزينا. وحين جفلت من استغراقها فى التفكير، لاحظت أنه كان مبتسما. وقال عليهما أن يتنزها مرة أخرى بالسيارة إلى الريف، لأن هذه المائدة تفصل بينهما مثل حائط.

كانت خائفة. فلا زال فرانتا قابعا وراء الشجرة، ينظر إلى نافذة المطعم. ماذا لو ضايقهما مرة أخرى بمجرد أن يخطوا للخروج؟ ماذا لو أدى مشهداً آخر، كالذى فعله يوم الثلاثاء؟

«الحساب، من فضلك. أخذنا كأسين من البراندى» قالها للنادل تواً.

أخرجت أنبوبا زجاجيا من حافظتها.

سلم عازف البوق للنادل ورقة بنكنوت رافضاً بإيماءة كاسحة أن يأخذ الباقى.

فتحت روزينا الأنبوب، أخرجت حبة، وبسرعة بلعتها. فى نفس الوقت الذى كانت فيه على وشك لف غطاء الأنبوب لتغلقه، التفت إليها عازف البوق ثانية وهو ينظر فى توسل. توصل ليديها، لمس أصابعها، فتركت الأنبوب يسقط على مفرش المائدة. قال « هيا بنا نذهب » ، فنهضت روزينا. رأت نظرة چاكوب، كانت متوترة وعدائية، وبسرعة حولت عينيها.

حيت وصلا إلى الشارع، نظرت فى قلق نحو الحديقة لكن فرانتا لم يكن هناك.

(١٠)

· نهض چاكوب، رافعا كأسه الممتلئة بالنبيذ إلى النصف، ثم انتقل إلى المائدة الشاغرة. وبرضى كامل نظر خارج النافذة على الأشجار المحمرة فى الحديقة، وأخبر نفسه مرة أخرى أن هذه هى المحرقة التى سوف يرى فيها خمسة وأربعين عاما من الحياة على هذا الكوكب. ثم حدث أن انتقلت نظرته على رأس المائدة، فلاحظ الأنبوب الزجاجى راقداً جنب طفاية السجائر. التقطه وتفحصه . كان ملصقا عليه اسم مخدر غير مألوف لديه ، وملحوظة بالقلم الرصاص: ثلاث مرات يوميا. وكانت الأقراص داخل الأنبوب بلون أزرق باهت. بدا ذلك جديرا بالاهتمام.

تلك آخر ساعات الحياة له فى موطنه، واتخذت الأحداث الأصغر تميزا غير عادى ثم تحولت إلى دراما مجازية. ما الذى يعنيه ذلك، سائل نفسه، أن فى

هذا اليوم دون باقى الأيام، يترك له شخص ما أنبوبا بأقراص زرقاء باهتة؟ ولماذا ورث هذا الانبوب عن نوع خاص من النساء - وصيفة المضطهد، صديقة الجلاد؟ هل كانت تحاول أن تخبرنى أن الحاجة لمثل هذه الأقراص الزرقاء الباهتة لم تنقض بعد؟ أم انها تذكرنى بالسم لتوكيد كراهتها التى لا تموت؟ أم تحاول أن تدعنى أعرف بأن رحيلى عن هذه البلاد هو فعل استسلام، مكافىء لابتلاع الحبة الزرقاء الباهتة التى أحملها فى جيب صدريتى؟

توصل إلى جيبه، أخرج لفته الصغيرة، وفكها. وحين رأى الآن حبته بالفعل، بدت بظل أدكن من زرقة الدواء الذى بالأنبوب. فتح الأنبوب وأخرج أحد الأقراص. نعم، حبته بها أثر أدكن بالتحديد وأصغر قليلا. أسقط كلتا الحبتين فى الأنبوب. كانتا فى هذه اللحظة متشابهتين حتى أن لمحة سريعة لن تظهر الفرق بينهما. على رأس الحبوب، التى قد تعنى غرضا طبياً تافهاً، يكمن الموت الآن.

ظهرت أولجا فى هذه الآونة. أغلق السدادة على عجل، وضع الأنبوب على المائدة جنب الطفاية، ثم نهض لتحية صديقته.

«أعتقد أنى تعرفت تواً على عازف البوق كليما. هل هذا ممكن؟» قالت لاهثة الأنفاس، وهى تجلس قبالة چاكوب من المائدة. «كان ذراعا بذراع مع تلك المرأة الفظيعة! ليس عندك أدنى فكرة عن الوقت الذى قضيته معها اليوم فى الحمام - »

أوقفت الكلام فى تلك اللحظة لأن روزينا ظهرت على مائدتهما وقالت: «لقد تركت دوائى هنا».

قبل أن يتمكن چاكوب من الرد، رأت الأنبوب راقداً جنب الطفاية فمدت يدها إليه.

لكن چاكوب سبقها إليه.

قالت روزينا «أعطها لى!» .

قال چاكوب «أريد أن أطلب منك خدمة ، هل بإمكانى أن آخذ واحداً من تلكم الأقراص؟».

«من فضلك، كف عن هذا، ليس عندى وقت...»

«إنى أتناول بالضبط نفس النوع من الدواء و ...»

قالت روزينا «لست صيدلية متنقلة» .

كان چاكوب على وشك أن يفتح سدادة الأنبوب، لكن وقبل أن يقدر على فعل هذا أمسكته روزينا. قبض چاكوب بسرعة على الأنبوب فى قبضته ثم دفع يده بعيداً عن متناول الفتاة.

صرخت فيه «ماذا تفعل؟ أعطنى هذه الأقراص» .

حدق چاكوب فى عينيها، ثم ببطء، وتحفظ ، فتح يده.

(١١)

بدت القعقعة الموقعة للعجلات وكأنها تدق رسالة عن رحلتها بعبث لفظى. رغم ذلك، تأكدت تماماً أن زوجها ليس بالنبع. إذن لماذا تضايق نفسها بالذهاب هناك؟ هل تستقل قطاراً لمدة أربع ساعات لمجرد أن تستكشف عما تعرفه بالفعل، ثم تستدير، وتركبه مرة أخرى؟ لم يكن العقل يدفعها لكنه باعث ما ظل يدور أسرع وأسرع فلا يمكن إيقافه. (عند هذه النقطة، فإن كلا من كاميلا وفرانتا ينجرفان فى قصتنا مثل صاروخين تقودهما الغيرة العمياء- إذا صح أن نقول «تقود»).

إن ترابط السكك الحديدية ما بين العاصمة والمنتجع الجبلى ليس متصلا تماما، فقد كان على مسز كليما أن تستبدل القطارات ثلاث مرات. كانت متعبة

بالفعل حين انبجست أخيرا على الرصيف البديع، المملوء بالملصقات التى تعلن عن قدرات الاستشفاء للينابيع المحلية وحمامات الطمى . سارت على طريق النبع الذى تحفه أشجار الحور، وحين وصلت إلى صف الأعمدة لمحت عيناها ملصقا يدوىّ التلوين باسم زوجها بارزاً فى حروف حمراء . فوقفت ، مندهشة للغاية، وتحت اسم زوجها قرأت اسمين مفردين آخرين . لم تصدق ذلك: لقد أخبرها كليما بالحقيقة ! الأمر بالفعل كما قال . فى الثوانى الأولى القليلة أحست بفرحة هائلة، عاد لها إحساس بالثقة فقدته طويلاً .

لكن فرحتها لم تدم طويلاً، فقد أدركت على الفور أن الوجود المحتمل للحفل الموسيقى ليس دليلا على إخلاص زوجها. فقد يوافق على العزف فى هذا النبع النائى فقط لأن هذا يمنحه فرصة طيبة للقاء إحدى محظياته . وعت فجأة بأن كل شىء أسوأ مما كانت تخشاه، وأربكها هذا.

لقد جاءت إلى النبع كى تثبت أن زوجها ليس هناك، وبهذا تدينه بطريق غير مباشر أنه يخدعها (كما حدث لها مرات كثيرة، كثيرة من قبل). لكن الموقف الآن مختلف : فهى لم تكن على وشك أن تدينه بكذبة، لكن أن تقبض عليه (مباشرة، ومرئيا) فى فعل الخيانة . وسيان أرادت أو لم ترد، فقد صار قريبا أن تحط عينيها على المرأة التى يقضى معها كليما طليعة النهار. هذه الفكرة جعلت ركبتيها ترتعشان قليلاً . فعلا ، كانت متيقنة منذ فترة طويلة أنها تعرف كل ما ينبغى لها أن تعرفه، لكنها حتى الآن لم تكن قد رأت أى شىء (أى شىء عن نسائه). وكى تكون أمينة تماماً ، فقد كانت تعرف القليل بالفعل، لديها الانطباع فحسب بأنها تعرف ويمنحها هذا الانطباع ثقل اليقين. كان إيمانها بعدم إخلاصه مثل عقيدة المسيحى فى وجود الرب. فإن المسيحى يعتقد فى الرب بملء يقينه أنه سيظل غير مرئى. وفكرة أنها هذا اليوم سوف ترى كليما مع

امرأة غريبة، كانت تملؤها بفزع المسيحى الذى قد يحس بأنه يتلقى مكالمة تليفونية من الرب، تعلن أنه قادم تواً للعشاء.

قبض القلق على جسدها كله. ثم سمعت شخصاً ينادى باسمها. فاستدارت ورأت ثلاثة رجال شبان يقفون وسط صف الأعمدة . كانوا يرتدون سويترات وچينزاً أزرق، كما تميزهم نزعة البوهيمية بشكل لا يستدعى الخطأ من نظراتهم الضجرة الموسوسة للضيوف الآخرين الذين يتجولون بالقرب منهم . كانوا يبتسمون لها.

«مرحباً !» نادت عليهم. كانوا هم السينمائيين، أصدقاءها من أيام خشبة المسرح.

أخذها أطولهم، المخرج ، فى حضنه «كم هو بديع أن نتخيل مجيئك لأجل خاطرنا ، فقط لترينا ...»

قال مساعده بأسى «لا، لقد جاءت لترى زوجها فقط».

قال المخرج «يا للحظ السيئ»، «إن أجمل امرأة فى العاصمة قاطبة، استطاع عازف بوق أن يحجزها تماماً لنفسه، يحبسها فى قفص منذ سنين وحتى النهاية...»

«هراء !» قال مدير التصوير (الشاب ذو السويتر البالى). «دعونا نذهب لنحتفل!»

ظنوا أنهم كانوا يعرضون إعجابهم أمام ملكة متألقة قد اتخذت لمحة لا مبالية ضد ثنائهم قبل أن تلقيه إلى صدر مترع فعلا بهبات أخرى أرفع. وعلى النقيض، فقد تشبثت بمديحهم كفتاة كسيحة تمتن لذراع تميل عليه.

(١٢)

ظلت أولجا تثرثر بينما كان چاكوب مشغول البال بفكرة أنه قد أعطى توا السم لشخص غريب، قد يبتلعه فى أية لحظة.

حدث هذا على حين غرة، بطريقة أسرع من قدرته على لمحها . حدث من خارج نطاق وعيه.

أعادت أولجا سرد تجاربها الحالية بمرارة بينما كان چاكوب يسعى ذهنياً لإقناع نفسه بأنه لم يكن يُريد حقاً أن يعطى الأنبوب للفتاة، لكنها وبنفسها أجبرته على فعل ذلك.

لحظة أن خطر له ذلك أدرك أنه مجرد اعتذار رخيص. كان بإمكانه أن يستفيد بألف احتمال لرفض طلب الفتاة. وبالنسبة لعجرفتها، فيمكنه معارضة ذلك بمنطلق عجرفته هو، وبهدوء ينزع القرص الأعلى ويخفيه فى جيبه.

ورغم أنه خانه حضور البال كى يفعل هذا، فإن الفرصة لا تزال سانحة ليطاردها ويعترف بأن الأنبوب يحتوى على سم. وفوق كل هذا، ليس صعباً عليه أن يشرح لها كيف حدث الأمر كله.

ورغم أنه هنا، يجلس إلى مائدة وينصت لأولجا، فقد كان عليه أن يمضى لمطاردة تلك الممرضة . لا يزال هناك وقت . ومن واجبه أن يفعل كل شئ بمقدوره لإنقاذ حياتها . لماذا إذن لا يزال جالسا هنا ؟

استمرت أولجا فى الكلام بينما هو يتعجب من كونه لازال جالساً.

قرر أن ينهض فوراً للبحث عن الممرضة . حاول أن يفكر فى الطريقة التى يعلل بها لأولجا كيف سيتركها حالاً . هل يفضى لها بمكنون الحكاية كلها ؟ أدرك أنه

لا ينبغى أن يفعل مثل هذا . ماذا لو ابتلعت الممرضة الحبة قبل أن تتاح له الفرصة لإيقافها عن ذلك ؟ هل يسمح لأولجا أن تعرف بأنه قاتل ؟ وحتى لو توصل إلى الممرضة فى الوقت المناسب، فكيف يبرر لأولجا تردده الطويل قبل أن يتصرف هكذا ؟ كيف يوضح لماذا سمح للمرأة أن تأخذ الأنبوب من أصله ؟ كانت تكفى بالفعل الدقائق القليلة الماضية لإقناعه بالقتل فى عينى أى مراقب !

لا، فلن يعترف بالتأكيد لأولجا، لكن ماذا ينبغى أن يقول لها ؟ كيف يقنعها فجأة بالقفز من المائدة والجرى صوب مكان ما ؟

لكن عندئذ، ما الفرق الذى سيميزه أياً ما كان يقوله لها ؟ ولماذا يشغل نفسه بمثل هذا الهراء ؟ إن حياة فى مأزق، فماذا يهم ما تفكر به أولجا ؟

عرف أن تأملاته كانت غير ذات بال فيما يخص الموضوع وأن كل ثانية من التردد تزيد من الخطر على الممرضة. وبالفعل، فقد تأخر الوقت تماماً على ذلك. أثناء الزمن الذى كان يماطل فيه، رحلت هى ورفيقها لمكان بعيد عن المطعم حتى أنه لن يعرف أين يفتش عنهما . كيف يخمن أين قد ذهبا ؟ وفى أى اتجاه ؟

وقد أدرك توا أن هذا ، أيضا ، مجرد عذر آخر . فمن الصعب أن يعثر عليهما بسرعة، لكنه ليس مستحيلاً. ليس الوقت بالمتأخر جداً على فعل أى شئ ، لكن ينبغى له أن يتصرف فوراً قبل أن يتأخر الوقت تماماً !

أولجا تقول «هذا يوم سيىء بالنسبة لى منذ لحظة استيقاظى، لقد نمت بزيادة، وتأخرت على الإفطار، ولم يكونوا يريدون أن يقدموه لى بعد، فإن حمام السباحة كان يعج بأولئك السينمائيين الأغبياء . وكنت متوترة من هذا اليوم حتى نهايته، لأنه آخر يوم لنا معا . أنت لا تعرف مقدار ما يعنيه هذا بالنسبة لى. جاكوب، هل لديك أدنى فكرة عن مقدار ما يعنيه هذا بالنسبة لى؟»

مالت على المائدة ثم أمسكت بيديه.

«لا تقلقى، كل شئ سيكون على ما يرام» قالها بمجهود كبير، وهو غير قادر على التركيز أمام أولجا . هناك صوت يذكره باستمرار أن المرضة لديها سم فى حقيبة يدها وأنه المسئول عن حياتها أو موتها. كان هذا الصوت يتوالى فى فضول بينما هو فى نفس الوقت ضعيف بدرجة ملحوظة، وكأنه قادم من أعماق سحيقة.

(١٣)

كان كليما يقود سيارته على طريق الغابة، وتوصل لاستنتاج بأن دعوته روزينا للركوب فى سيارته الفارهة لن تحدث أى نتائج ناجعة ، فقد رفضت روزينا أن تدعه يتزلف إليها لتخرج عن وقارها الأحمق، فلبث عازف البوق فى صمت طويل. وأخيراً ، حين صار الصمت ضاغطاً عليه بشدة، قال:

«ستجيئين إلى الحفل، هه ؟»

ردت «لا أعرف».

قال «رجاء تعالى» ، وهو يستخدم الحدث القادم كذريعة للحوار الذى دعاهما فى نفس اللحظة لنسيان شجارهما . حاول كليما أن يقدم صورة مضحكة عن الطبيب عازف الدرامز ، مصمماً على تأجيل المكاشفة العصبية مع روزينا حتى حلول المساء.

قال «أشتاق لرؤياك بعد الحفل ، ستكون مثل آخر مرة عزفت فيها هنا ...» ومجرد أن خرجت الكلمات من فمه، أدرك مغزاها. فإن (مثل آخر مرة) كانت تعنى أنهما بعد الحفل سوف يمارسان الحب مع بعضهما البعض. يا إلهى، كيف فشل تماماً فى حسبان مثل هذا الاحتمال ؟

الأمر غريب ، لكن حتى هذه اللحظة فلم تخطر فكرة أنه سينام معها مرة ثانية على باله مطلقاً . إن حملها قد حولها، بهدوء واعتياد، إلى امرىء لا تتم مشاطرته

جنسياً بل نشاطره القلق والتوتر . صحيح ، قال لنفسه لابد أن يجعلها تحس بمحبته نحوها، لابد أن يقبلها ويلاطفها، وقد سعى لذلك بضمير خالص، ولكن كإيماءة فحسب دون أى دلالة فيزيقية.

حين فكر فى هذا أدرك أن نقص اهتمامه بجسد روزينا كان أكبر سهو له فى الأيام القليلة الماضية . نعم ، لقد كان واضحا تماماً الآن (وقد غضب من أصدقائه الذين استشارهم على عدم توجيه انتباهه لمثل هذا الأمر): صار أساسيا دون ريب أنه لابد سينام معها ! ولاشك فى أن هذا المزاج المتحفظ لدى الفتاة كان مفترضا بدون توقع وقد ثبت له أن من الصعب اختراقه فقد حدس على وجه الدقة بالانفصال الدائم لكل من جسديهما . إن رفضه للطفل -زهرة رحمها- كان رفضاً لجسدها الحامل ، ذلك كان السبب كله بالنسبة له أن يبدى اهتماماً بجسدانيتها، أن يلاعب جسمها البنوتى مع جسمها الأمومى ويجعل من ذلك معاً حليفاً له.

بعد إكمال تحليله هذا شعر بأمل جديد يستحث داخله . ضغط على كتف روزينا ثم مال بدرجة أقرب «أكره أن نتشاجر. دعينا لا نتوتر، كل شئ سيجرى على ما يرام. الشئ الحقيقى هو أن نكون معاً . دعينا ندخر هذه الليلة لنا، ولسوف تكون ليلة بديعة كتلك التى كنا عليها فى آخر مرة».

كان يمسك عجلة القيادة بذراع والأخرى حول كتفيها. وفى مكان ما عميق هناك بالأسفل أثاره شوق لجلدها العارى ، وقد أبهجه هذا، لأن الرغبة الجسدية قد ثبت أنها لغة عمومية بإمكانه أن يستميلها بها بعد لأى.

سألته «وأين سألقاك ؟» .

أدرك كليما أن لقاءها بعد الحفل سيجلب اعترافا عاماً بعلاقتهما الحميمة. لكن لا جدوى بغير ذلك «مجرد انتهاء الحفل، قابلينى خلف المسرح»

(١٤)

حين اندفع كليما إلى الصالة الاجتماعية لأجل البروفة الاخيرة، أخذت روزينا تفتش عما حولها، طويلا. فمنذ وهلة قريبة حينما كانت فى السيارة لمحت فرانتا على مرمى البصر فى المرأة يتتبعهما فوق دراجته البخارية. لكنه اختفى الآن عن ناظريها.

شعرت بأنها تهرب من الزمن. وكانت تعرف أنه فى الغد لابد أن يقر قرارها على ما تريد، والذى سيحيرها كالسابق. فى العالم كله لا تجد روحاً واحدة يمكنها أن تثق بها. وبدت عائلتها الخاصة كالغرباء. كان فرانتا يحبها، ولهذا السبب بالذات لا تثق به (كارتيباب الأيائل من قناصها). وكانت لا تثق بكليما (كارتيباب القناص من الأيائل). وكانت ودودة مع زميلاتها، ولكنها لم تكن تثق بهن على الوجه الأكمل (كارتيباب القناص من زميله). كانت تسير فى الحياة على عزلة تامة، عدا أنه فى الأسابيع القليلة الماضية يتحرك معها رفيق غريب داخل جسدها، يصفه البعض بأنه نعمتها الكبرى ويصفه آخرون بعكس ذلك تماماً، رفيق لم تكن تحس معه بأى رابطة حقيقية على الإطلاق.

لم تكن تعرف. كان يملأها عدم المعرفة. ولم تكن حتى تعرف إلى أين تقودها قدماها.

كانت تسير أمام مطعم «سلافيا»، أسوأ مكان للأكل فى البلدة، حانة قذرة يأتى إليها الناس هنا لكرع البيرة ثم يبصقون على الأرض. قد يكون عرف أياماً أفضل، ومن تلكم الفترة بقيت حديقة صغيرة بثلاث موائد خشبية وثلاثة مقاعد (أحدها مدهون بالأحمر لكنه باهت الآن ومتقشر)، تذكار المباهج البورجوازية – حفلات الحديقة، رقصات مفتوحة، المظلات النسوية المسنودة فى دلال على شجرة.

لكن ما الذى تعرفه روزينا عن تلك الأيام ، فهى فتاة تسير عبر الحياة فوق جسر ضيق من الحاضر الخالد، فتاة ليس لها ذاكرة تاريخية على أى وجه كان ! لقد فشلت فى رؤية ظل المظلة القرنفلية والذى تلاشى لونها من القدم، رأت فحسب ثلاثة رجال بالچينز الأزرق، وامرأة واحدة جميلة، مع زجاجة نبيذ تقف على مائدة جرداء.

أحد الرجال دعاها. استدارت فتعرفت على مدير التصوير ذى السويتر البالى.

لوح لها «تعالى وشاركينا» .

استجابت.

«لقد ساعدتنا هذه الفتاة الجميلة على التقاط فيلم بورنو قصير اليوم».

قدم مدير التصوير روزينا إلى امرأة مدت يدها وهى تغمغم باسم.

جلست روزينا جنب مدير التصوير . وضع كاساً أمامها وملأها بالنبيذ .

امتنت روزينا لحدوث شئ كهذا، لأنها لم تكن تعرف إلى أين تذهب أو ماذا تفعل، ذلك لأنها لم تكن قررت بعد أى شئ بخصوص جنينها.

(١٥)

وبعد تأخر طويل توصل أخيراً إلى قرار ما. دفع للنادل ثم أخبر أولجا إنه سوف يرحل لفترة قصيرة ولسوف يتقابلان قبل الحفل . سألته أولجا عما سوف يفعله ، وكره چاكوب أن يتم استجوابه . فأجاب : عليه أن يلتقى سكريتا.

قالت «بديع ، إنى متأكدة أن ذلك لن يستغرق وقتاً طويلاً . وبهذه الأثناء أروح أنا لأغير ملابسى ، ثم أنتظرك هنا فى السادسة . فأنت مدعو على العشاء».

صحب چاكوب أولجا إلى ماركس هاوس. ومجرد أن اختفت فى الردهة، استدار إلى البواب «قل لى، هل تعرف إن كانت المرضة روزينا بالداخل ؟»

أجاب البواب «لا ، ليست موجودة ، فقد رأيت مفتاحها هناك فى خطافه» .

قال چاكوب «أحتاج للكلام معها فى أمر عاجل ، فهل لديك أى فكرة عن المكان الذى توجد فيه ؟»

«لا، ليس عندى فكرة»

«لقد رأيتها منذ وهلة مع عازف البوق الذى سيعزف هنا هذا المساء»

«هذا صحيح ، يقولون إن كليهما فى علاقة معاً . والآن قد يكون فى البروفة بالصالة الاجتماعية»

كان د. سكريتا، والمتوج على المسرح خلف الدرامز، يرى چاكوب وهو يدخل فأومأ له . رد چاكوب الابتسامة ناظراً من فوق صفوف الكراسى التى يجلس عليها أكثر من دستة من مهووسى الچاز (نعم : كان بينهم فرانتا - ظلّ كليما) بعدها جلس چاكوب منتظرا، على أمل أن تظهر الممرضة .

حاول أن يفكر أين يمكنه البحث أيضا . ففى هذه اللحظة قد تكون فى أى عدد من الأماكن التى لا يعرف عنها شيئا . هل يسأل عازف البوق؟ لكن ماذا عساه أن يقول له؟ افترض أن شيئا حدث لها فى هذه الأثناء ؟ توصل چاكوب توا لاستنتاج أنها إن كان يجب أن تموت ، فإن موتها ينبغى أن يكون مفهوما تماما وأن قاتلها الكامن لابد أن يظل مخفياً . ثم لماذا يلفت الانتباه لنفسه ؟ لماذا يترك دليلا ، لماذا يستدعى الشك فيه ؟

لكنه أنب نفسه عندئذ . حين تتعرض حياة إنسان للخطر ، فليس هناك وقت لأى حذر جبان . احتج بالصمت بين نمرتين للذهاب إلى ما وراء المسرح. استدار له د.سكريتا، وهو يبتسم . وضع چاكوب إصبعا على شفتيه ثم همس لسكريتا كى يسأل عازف البوق إن كان يعرف مكان وجود الممرضة التى كانت تجلس معه فى المطعم منذ وهلة .

دمدم سكريتا «لماذا كل هذا الاهتمام بهذه الممرضة ؟ ، أين روزينا»؟ قالها بصوت عال لعازف البوق ، والذى احمر من الخجل مجيبا بأنه لا يعرف .

قال چاكوب معتذرا «هذا أمر فى غاية السوء . حسنا ، لا تشغل بالك ، وآسف لمقاطعتى عزفك» .

«هل تعجبك فرقتنا؟» سأله د. سكريتا .

رد چاكوب «عظيم» ، ثم رجع ليتخذ مقعدا فى الصالة . عرف أنه يداوم على التصرف بطريقة تدعو إلى الأسى . فلو كان مهتما حقا بحياتها، فعليه أن يدق جرسا وينبه كل امرىء للبحث عنها بسرعة بقدر المستطاع . لكنه كان يستطلع آليات البحث عنها فقط ليجعل ضميره شاهدا على الجريمة .

فى صميم عقله رأى مرة أخرى تلك اللحظة التى سلمها فيها الأنبوب المحتوى على السم . هل حدث ذلك حقا بسرعة بدرجة أفقدته القدرة على التفكير ؟ هل حدث ذلك حقا دون أن يكون على وعى به ؟

عرف چاكوب أن ذلك مجرد كذبة . فإن عقله الباطن لم يكن نائما . فاستجلب لباله مرة أخرى ذلك الوجه تحت شعره الأشقر وأدرك أن تقديمه حبة السم لها ليس حادثة (ولا هفوة وعى) ، بل إشباع لرغبة قديمة، شوق كان يرتقب منذ سنين أن تسنح له الفرصة المناسبة ، شوق قوى حتى أنه فى النهاية قد ابتدع مثل هذه الفرصة لنفسه .

ومفزوعا ، قام من كرسيه مندفعا إلى ماركس هاوس ، وكانت روزينا لا تزال فى الخارج .

(١٦)

ياله من تأجيل سار واستراحة مرحبة ! يا لها من ظهيرة مبهجة مع ثلاثة من آلهة الحقول !

يا لها من أنشودة رعوية : فإن كلا من اللتين تلاحقان عازف البوق بنظراتهما المريضة كانت تجلس على نفس المائدة، تشربان من نفس الزجاجة، وسعيدتين بكونهما معا ، لاتخاذ فترة راحة من ربقة التفكير فيه . مجرد ائتلاف ملموس ، مجرد انسجام !

كانت مسز كليما تراقب الرجال الشبان الثلاثة الذين كانوا ذات يوم زملاءها . وتنظر إليهم كصورة سالبة عن نفسها : فهى شخص تثقله التبعات ، بينما يمثل الثلاثى خلو البال الرخى ، وكانت ترتبط برجل واحد ، بينما يوحى آلهة الحقول الثلاثة بتنوع لا نهائى من الذكورة .

كان حوار آلهة الحقول يدور حول هدف خاص :هو قضاء الليلة مع المرأتين ، ليلة خماسية التبادل. كان هدفا متوهما ، لأنهم يعرفون أن زوج مسز كليما موجود فى النبع، لكنه الحلم كان جميلا لدرجة أنهم ظلوا يطاردونه رغم استحالة تحقيقه .

خمنت مسز كليما رغباتهم واستسلمت لها ، استسلمت تماما لأنها تدرك أن ذلك مجرد لعبة توهم بالتصديق ، مجرد تحفيز للخيال . ضحكت بجرعات مضاعفة ، وكانت تمزح مستثارة مع رفيقتها المرأة المجهولة ، آملة أن يدوم هذا كالفاصل الموسيقى ، ويدوم حتى يؤجل طويلا ويقدر المستطاع الحاجة للقاء غريمتها والنظر بحق فى عينيها .

زجاجة نبيذ أخرى، الكل كان بهيجا، الكل كان سكران، ليس كثيرا من النبيذ بل من الأمزجة الغريبة، ورغبتهم فى إطالة ذلك الفاصل الموسيقى المنطلق، المتهور.

أحست مسز كليما بسمانة ساق المخرج وهى تضغط ساقها اليسرى. كانت واعية بذلك تماما ، لكنها لم تسحب ساقها . تلك هى الصلة التى أسست رابطة للغزل مميزة بينهما ، لكنها فى الوقت نفسه رابطة قد تحدث مصادفة ، لمحة عادية لم تكن بحاجة للتنبيه إليها. ولذلك كانت صلة على الحدود وبدقة ما بين البراءة والوقاحة . لم تكن كاميلا تتمنى عبور هذا الحد ، لكنها سعيدة ببقائها هناك (على هذه الأرض الضيقة من الحرية غير المتوقعة) ، ولسوف تكون أسعد إن تحرك هذا الحد السحرى أبعد قليلا ، تجاه غمزات أبعد، ولمحات ، وألعاب . وكانت ، وهى محمية بتلك البراءة الملتبسة لذلك الحد الفاصل ، تتوق أن تدع نفسها لتُحمل فيما وراء الأفق، أكثر وأكثر .

ومسكونا بجمال كاميلا المشع بدرجة مؤلمة تقريبا ، ظل المخرج يتابع فى بطء ، حذرا . وعلى النقيض، كان سحر روزينا الواقعى يسترعى انجذابا مباشرا وقويا من قبل مدير التصوير ، وهو يضع ذراعيه من حولها متلمسا ثديها .

كانت كاميلا تراقب . مر وقت طويل منذ آخر مرة رأت فيها من نقاط قريبة حميمية الغرباء الجسدية . كانت تراقب راحة يد الذكر وهى تغطى ثدى الفتاة، تدعكه، تضغط عليه، تدلكه من فوق ثوبها . كانت تراقب وجه روزينا ، جامدا ، مستقلا بحسية، وسلبيا . ظلت اليد تلاطف الثدى ، والوقت يمر بحلاوة، ثم شعرت كاميلا برجلها الأخرى تضغط عليها ركبة المساعد .

قالت : «إنى فى احتياج لقليل من الملذات الليلة» .

قال المخرج «أخذ الشيطان عازف البوق منك !» .

«أخذه الشيطان »! كرر مساعده .

(١٧)

فى تلك اللحظة تعرفت عليها . نعم ، ذاك هو الوجه الذى أرته لها زميلتها من الصورة ! وبحدة دفعت بعيدا يد مدير التصوير .

بقبق «ماذا جرى لك ؟» .

وحاول أن يحتضنها مرة أخرى ، فصدته ثانية .

«كيف تجرؤ على ذلك!» صرخت فيه .

ضحك المخرج ومساعده . «هل تقصدين ذلك حقا؟» سألها المساعد .

ردت بحنق «بالطبع أقصده» .

نظر المساعد فى ساعته وبعدها قال لمدير التصوير : «الساعة السادسة تماماً». وهذا الوضع الجديد قد حدث لأنه مع كل دقة للساعة ينبغى لصاحبنا أن يتحول لإنسان تطهرى . إذن عليه أن ينتظر حتى السابعة» .

دوىّ آخر من الضحك . احمر وجه روزينا من الخزى . فقد ضُبطت ويد الغريب على ثديها، ضبطت وهى تسمح بكل أنواع التجاوزات ، ضبطت من قبل غريمتها الكبرى بينما يسخر منها الجميع .

قال المخرج لمدير التصوير : «بإمكانك أن تسأل السيدة الشابة أن تستثنى هذه المرة وتقبل السادسة كرقم غريب» .

«هل تظنين بوجود أى مبرر نظرى لاعتبار السادسة رقما غريبا؟» سألها المساعد .

رد المخرج «بالتحديد» ، «فى بحثه المشهور ، قال إقليدس(*) بوضوح تام: (تحت ظروف خاصة وملغزة جدا، فحتى الأرقام قد تظهر خصائص غريبة

(*) Euclid: (٣٣٠ - ٢٧٥ ق . م .) عالم رياضيات يونانى (م) .

بالتأكيد) ولدى انطباع أننا الآن مباشرة وجها لوجه أمام مثل هذه الظروف الملغزة» .

«حسنا ، ما رأيك ياروزينا؟ هل توافقين على اعتبار هذه الساعة السادسة رقما غريبا» ؟

ظلت روزينا صامتة .

«هل موافقة» ؟ مال نحوها مدير التصوير .

قال المساعد «السيدة الشابة صامتة» ، «وعلينا إذن أن نقرر إن كان صمتها علامة قبول أو رفض» .

قال المخرج «يمكن أن نأخذ تصويتا» .

«حسنا» وافق مساعده . «سوف نقترع على الاقتراح التالى : نحن نسلم بأن صمت روزينا قد يتأول على اعتبار أنه فى هذه الظروف الاستثنائية الحالية يتم اعتبار الرقم ستة غريبا بشكل صحيح . كاميلا ! أنت الأولى !»

قالت كاميلا : «أعتقد أن روزينا منسجمة مع هذا تحديدا » .

«مارأيك ، يامخرج» ؟

«إنى مقتنع» قالها المخرج بصوته العطوف :«بأنه وفقا لهذه الظروف تعتبر روزينا السادسة رقما غريبا» .

«مدير التصوير ليس حزبا نزيها، فلن نطلب منه التصويت . أما بالنسبة لى ، فأقترع بالموافقة» أعلنها المساعد . «وعليه فقد قررنا بنصاب ثلاثة أصوات أن صمت روزينا يشير إلى القبول . مدير التصوير : بموجب هذا أنت مفوض لاستئناف نشاطك فورا» .

مال مدير التصوير نحو روزينا ووضع ذراعه حولها بطريقة تجعلها تلامس ثديها مرة أخرى . أزاحته روزينا بعنف أكثر عن ذى قبل ثم زعقت فيه «احتفظ ببراثنك القذرة لنفسك!»

قالت كاميلا تهدئها «روزينا ، مجرد أنه يحبك كثيرا ، ولا يستطيع دفع ذلك ، ونحن نقضى جميعا وقتا طيبا ...» .

من لحظات قليلة كانت روزينا سلبية تماما ، تسلم نفسها لتيار الظروف ، وكأنها تريد أن تدع مصيرها يتقرر بمجريات الأمور . كانت ستدع نفسها للإغراء، وحملها بعيدا ، لا يهم إلى أين ، تتكلم فى غير موضوع مهما كان ، وأن يطول الأمر هكذا فمعناه أن تهرب من ذلك المر المعتم الذى وجدت نفسها فيه .

عموما ، فإن الشيء غير المتوقع والذى ثبتت فيه آمالها ، بدا وكأنه ليس وعدا بل محض خداع ، كما أن روزينا - وهى مستذلة أمام غريمتها ويسخر منها الجميع - صارت واعية أن لديها دعامة واحدة فحسب تستحق الثقة، عزاء واحد فحسب وخلاص واحد فحسب ، ثمرة رحمها . إن روحها جميعا (مرة أخرى ! مرة أخرى!) تنسحب للداخل ، إلى أعماق جسمها ، فقررت أن لا تترك أبدا ذلك الكائن الذى ينمو بداخلها فى سلام . هذا الكائن هو انتصارها السرى الذى يرفعها عاليا ما فوق ضحكاتهم وأيديهم المتسخة ، كادت تنفجر لتحكى لهم عن هذا ، لتصرخ فى وجوههم ، لتنتقم لنفسها من سخرياتهم ومن رقة تلك المرأة المتساهلة.

لابد أن أبقى هادئة ، ذكّرت نفسها ، ثم توصلت لحقيبة يدها من أجل الأنبوب، ومجرد أن أخرجته ، أحست برسغها فى قبضة حازمة من يد شخص ما .

(١٨)

لا أحد رآه قادما ، ففجأة كان هناك . رفعت روزينا بصرها ورأته يبتسم إليها. استمر على إمساكه يدها ، أحست بحزم قبضته واستسلمت، فسقط الأنبوب ثانية بأعماق حقيبة يدها .

«سيداتى سادتى ، اسمحوا لى أن أنضم إليكم . اسمى برتلف» .

لم يبتهج أحد من الرجال الجالسين حول المائدة بوصول الغريب ، ولم يتفضل أحد بتقديم نفسه ، وكان ينقص روزينا الاتزان الاجتماعى الضرورى لتحمل هذه الخدمات .

قال برتلف «أرى وصولى قد أزعجكم» . اتخذ كرسيا قريبا ودفعه نحو رأس المائدة ، حتى يواجه المجموعة بكاملها وتكون روزينا على يمينه «سامحونى» ثم واصل «لدى عادة غريبة فى الظهور فجأة أكثر من الوصول» .

«فى هذه الحالة» رده المساعد «ستأذن لنا أن نعتبرك مجرد ظهور لسنا محتاجين كى نلتفت إليه» .

«أمنحكم هذا الإذن عن طيب خاطر » رد برتلف بانحناءة طفيفة «لكنى أخشى أنه رغم كل مجهوداتكم فسوف تفشلون فى هذا » .

ثم استدار نحو الباب المضاء للمطبخ وصفق بيديه.

قال مدير التصوير : «من دعاك للجلوس معنا ، على أى حال ؟»

«هل تحاول أن تخبرنى أن وجودى غير مرحب به؟ بإمكانى أنا وروزينا أن نرحل مباشرة الآن ، لكن العادات يصعب قطعها ، فأنا عموما أجلس على هذه المائدة فى أى ظهيرة وأتناول كاسا من النبيذ» . وتفحص شارة الزجاجة التى تقف على المائدة . «بالطبع، أنا أصر على نوع أفضل من هذا !».

قال المساعد : «أحب أن أعرف كيف تجد أى نبيذ لطيف فى هذا المكان الشبيه بالثقب» .

قال مدير التصوير : « يبدو أنك من النوع الذى يحب لفت الأنظار ، يا مستر»، ثم أضاف شغوفا بالسخرية من الضيف غير المرغوب فيه : «طبعا ، عند سن معينة لا يتبقى للإنسان الكثير عدا لفت الأنظار» .

قال برتلف «أنت مخطىء» وكأنه لم يسمع إهانة مدير التصوير «ففى هذا المطعم هناك أنبذة مخبأة أفضل من بعض الفنادق الغالية» .

وبعد لحظة كان يصافح صاحب المحل ، والذى لم يتحمس لتقديم نفسه من قبل لكنه الآن ينحنى لبرتلف مستفسرا : «هل أجهز المائدة لستة؟» .

رد برتلف «بالطبع» ، ثم استدار إلى ضيوفه «سيداتى سادتى ، إنى أدعوكم لمشاركتى بعض النبيذ الذى تذوقته مرات عدة من قبل وستجدونه ممتازا بدرجة مغايرة . فهل تسمحون لى بهذا الشرف؟»

لم يرد أحد ، فقال صاحب المحل : «لو جاز لى أن أقول ، فحين يتعلق الأمر بالطعام والشراب بإمكانى أن أؤكد لكم أن تضعوا الثقة عمياء فى السيد برتلف».

«صديقى» قال برتلف لصاحب المحل «هات لنا زجاجتين وطبقا كبيرا من الجبن» ثم استدار مرة أخرى إلى الآخرين . «لا سبب هناك يدعوكم إلى القلق ، فإن أصدقاء روزينا أصدقائى .»

جاء ولد فى حوالى الثانية عشرة يهرول خارجا من المطبخ حاملا صينية بها كاسات، وأطباق ، ومناديل مائدة . وضعها على مائدة قريبة ثم تابع ليزيل الكاسات المستعملة ، والتى وضعها على الصينية سويا مع زجاجة النبيذ نصف الفارغة. ويحرص مسح المفرش المتسخ بمنديل ثم فرد مفرشا أبيض لامعا مكانه ، التقط الكاسات المستعملة مرة أخرى وكان على وشك أن يضعها واحدا فآخر أمام الضيوف .

قال برتلف للولد «انس الكاسات المتسخة وذلك الخل البائت» ، «فإن أباك سيجلب لنا النبيذ الحقيقى» .

احتج مدير التصوير : «ياسيد ، إن كان لايضيرك فاتركنا نشرب مانحب؟»

رد برتلف «كما تريد ، يازميلى العزيز» ، «فأنا لا أحب فرض السعادة على الناس . كل إنسان له الحق فى تناول نبيذه الحقير ، طبقا لمستوى غبائه ، وأظافره القذرة. اسمع ، يابنى» ثم استدار إلى الولد «ضع الكاسات المستعملة على المائدة بأية حال ، والزجاجة القديمة ، أيضا . فإن ضيوفى أحرار فى اختيار نبيذ تخمر فى الضباب أو نبيذ ولد فى الشمس» .

وعلى الفور كان لكل منهم كاسان أمامه : واحد نظيف وآخر به عوالق من أثر النبيذ القديم . اقترب صاحب المحل من المائدة بزجاجتين، أقحم الأولى بين ركبتيه، وبسحبة قوية جذب الفلينة. صب عينة صغيرة فى كاس برتلف . رفع برتلف الكاس إلى شفتيه ، رشف رشفة، ثم استدار إلى صاحب المحل «عظيم - ٢٣؟» .

رد صاحب المحل «٢٢» .

قال برتلف «الآن يمكنك أن تصب» ، فدار صاحب المحل على المائدة يملأ الكاسات النظيفة تباعا .

وبرقة ، رفع برتلف كاسه من العنق : «أصدقائى ، من فضلكم تذوقوا هذا النبيذ. إن به طعم الماضى الجميل . تذوقوه كأنكم تمصون كوسة من صيف منسى طويلا . وبهذا النخب أتمنى لكم أن تجمعوا الماضى إلى الحاضر ، شمس ١٩٢٢ بشمس هذه اللحظة . وهى شمس روزينا ، أكثر فتاة بسيطة ومتواضعة فهى لاتعى كونها ملكة . إنها تشع على الستارة الخلفية لهذا المكان الريفى مثل جوهرة على أسمال شحاذ . هى مثل القمر المنسى على سماء النهار الشاحبة. إنها كالفراشة فوق منبسط يغطيه الثلج» .

حاول مدير التصوير أن يغتصب ضحكة «ألا تبالغ فى هذا ، ياسيدى؟» .

رد برتلف«لا ، على الإطلاق» ، مواجها مدير التصوير ، «يبدو هذا لك أنت فقط ، لأنك تحيا دائما وراء منسوب الوجود الحقيقى ، فأنت نبت لاذع ، وعاء

مجسم للخل! إنك مفعم بالحمض ، فقاعاته داخلك كأنها من تخمير كيميائى . وأمانيك العظمى هى أن ترى كل ما حولك بنفس القبح الذى تحمله بداخلك . وهذه هى الطريقة الوحيدة التى تحس فيها لبضع لحظات بنوع من الطمأنينة مابين نفسك والعالم . وذلك لأن العالم، الجميل أصلا ، يبدو مفزعا بالنسبة لك ، يعذبك ويقصيك عنه . كم يبدو هذا غير محتمل أن تكون لك أظافر نجسة وأنت تجلس جنب امرأة جميلة ! ومن الضرورى عندك أن تلوث المرأة قبل أن تستقى اللذة منها . هل أنا على حق ، يارجلى الطيب؟ إنى سعيد بأنك تخفى يديك تحت المائدة ، وإنى بوضوح لابد أن أصطدم بالحقيقة حين أتكلم عن أظافرك النجسة» .

«أنا لم أخرج عن آداب اللياقة ، فلست مهرجا مثلك بياقة منشّاة وربطة عنق مزخرفة» رد مدير التصوير محتدا .

قال برتلف «إن أظافرك النجسة وسويترك البالى يشيان بأنه لا شيء جديد تحت الشمس» ، «من زمان طويل سار متباهيا حول أثينا فيلسوف كلبى فى معطف أكلته العثة، مؤملا فى إعجاب الجميع بازدرائه للتقاليد . وحين قابله سقراط قال : (من ثقب معطفك أرى غرورك) وإن اتساخك ، أيضا ، ياعزيزى ، من هوان حالك وهوان حالك اتساخ» .

أمكن لروزينا بالكاد أن تتغلب على اندهاشها الذاهل . فإن رجلا قد عرفته بالمصادفة فقط كواحد من المرضى ظهر فجأة وكأنه فارس شهم . كانت مفتونة براحة سلوكه الأنيق وبراعته النشطة التى قهر بها تفاهة مدير التصوير .

«أرى لسانك وقد أبطأ» قال برتلف لمدير التصوير بعد لحظات صمت قليلة. «صدق بالتأكيد أنه لا رغبة عندى فى إيذائك. فأنا أعشق الانسجام وأكره المشاجرات، وإن كنت انجرفت بفصاحتى فاقبل اعتذارى ، فكل ما أريده حقا هو أن تذوق هذا النبيذ وتلحقنى بهذا النخب فى صحة روزينا، التى أنا هنا من أجلها» .

رفع برتلف كاسه مرة أخرى ، لكن لم ينضم إليه أحد .

قال برتلف «سيدى صاحب المكان»، «كن طيبا واشرب نخبا معنا!» .

أجابه صاحب المحل «بنبيذ مثل هذا ، متعة دائما» ، ثم التقط كاسا نظيفا من مائدة مجاورة وملأه «السيد برتلف خبير فى النبيذ الطيب. إنه يتنشق سردابى ، ويذهب مباشرة إليه مثل العصفور إلى عشه» .

ضحك برتلف ضحكة سعيدة كرجل تم إطراؤه .

«هل ستشرب نخب روزينا معنا» ؟

سأله صاحب المحل «روزينا؟» .

قال برتلف «نعم ، روزينا» ، محنيا رأسه نحوها . «أتعجبك كثيرا مثلى؟» .

«ياسيد برتلف، أنت تحاط دائما بالنسوة الجميلات . وبعينين مغلقتين أعرف تماما أن هذه السيدة الشابة لابد أن تكون جميلة ، فقط لأنها تجلس بجانبك» .

انفجر برتلف مرة أخرى فى ضحك سعيد ، وضحك صاحب المحل كذلك ، وكذلك بطريقتها الغريبة ضحكت كاميلا ، التى وجدت أن برتلف شخص مدهش منذ الوهلة الأولى . لم يكن هذا الضحك متوقعا بل ومعديا بشكل غريب وغير واضح . وبعيدا عن الصلابة الدمثة للمخرج ، فقد انضم لكاميلا فى الضحك ، وتبعه المساعد فورا، وأخيرا انفجرت روزينا بالضحك كذلك ، مغمورة بسعادة فى مرح متعدد الأصوات . كانت أول لحظة لها فى النهار بهيجة ومرتاحة . ضحكت بصوت أعلى من الجميع لكنها لم تأخذ كفايتها من المرح .

عرض برتلف النخب : «فى صحة روزينا!» فرفع صاحب المحل كاسه ، وكذلك فعلت كاميلا ثم المخرج بعده المساعد ، ورددوا كلهم وراء برتلف «فى صحة روزينا» وحتى مدير التصوير رفع كاسه ثم رشف جرعة فى صمت .

احتسى المخرج رشفة ثم قال : «إنه رائع حقا!» .

«كما أخبرتك» ابتسم صاحب المحل .

وفى هذه الأثناء وضع الولد بمنتصف المائدة طبقا ممتلئا بأنواع من الجبن منسقة ، فقال برتلف : «كلٌ بنفسه ، فمذاقها ممتاز!» .

علق المخرج مندهشا : «يالها من أصناف خرافية ! أشعر وكأننى عدت إلى فرنسا» .

اختفى التوتر الآن تماما ، وراح كل منهم يثرثر ويمزح ، يختبر أنواع الجبن ويتساءل إن كان مازال فى العالم مثل صاحب هذا المكان الذى نجح فى لم شملهم (بهذا البلد توجد أنواع محدودة من الجبن طبقا لأصناف ثابتة قليلة)، وظل يعيد ملء كاساتهم المرة تلو المرة .

وبينما كانوا جميعا يسعدون أنفسهم إلى حد الذروة ، نهض برتلف على قدميه وبانحناءة صغيرة قال : «إن صحبتكم شيء رائع وأنا مدين لكم بالشكر . لكن صديقى دكتور سكريتا يقيم حفلا هذا المساء ، وأنا وروزينا نود سماعه» .

(١٩)

خرج برتلف سائرا مع روزينا فى الضباب الشفيف للغروب المقترب، فبدا كأن الأرواح العالية التى وعدت أن تسوق المعربدين إلى جزيرة خرافية للمتع المحظورة قد تلاشت تدريجيا ما وراء أى أمل ممكن للعودة . وأحس كل امرىء فجأة أنه مخذول .

شعرت مسز كليما وكأنها طردت من حلم ودت بشغف لو يدوم طويلا . وكانت تفكر أن لا جدوى بالفعل من الذهاب إلى الحفل على الإطلاق . لاعبتها فكرة أدهشتها كثيرا حينما عرفت فجأة أنها جاءت إلى النبع لا لكى تلاحق زوجها بل

لمجرد المغامرة . كم سيكون جميلا لو مكثت مع السينمائيين الثلاثة ثم تعود لبيتها في الصباح . شيء ما ظل يخبرها أن هذا هو مايجب عليها أن تفعله : حدث مدروس، فعل تحرر ، طريقة لشفاء نفسها ، لتحطيم النير الذى ترزح من تحته .

لكنها أفاقت الآن فعلا . وكل مفاتن السحر تبخرت . صارت مرة أخرى بمفردها مع ذاتها ، مع ماضيها ، رأسها الثقيل ملىء بأفكار معذبة . كانت تتوق لتمديد حلمها القصير ولو لعدة ساعات على الأقل ، لكنها عرفت بأن هذا الحلم يشحب مثل شفق وامض .

قالت : «وأنا سأذهب ، أيضا » .

حاولوا إثناءها عن عزم الرحيل ، لكنهم أدركوا أنه لم تعد هناك وسائل إقناع كاف لديهم أو ثقة بالنفس تجعلها تمكث .

«خراء!» قال مدير التصوير ، «من ذلك الرجل عموما؟» .

أرادوا أن يسألوا صاحب المحل ، لكن ويمجرد رحيل برتلف لم يعرهم أحد أى انتباه . ومن داخل المطعم جاءت ضوضاء الضيوف السكارى ، أما جماعة كاميلا فقد جلسوا يائسين في الحديقة مع نبيذهم نصف المنتهى وطبق الجبن الكبير .

«أيا كان من هو ، فقد أفسد جمعنا . أخذ إحدى نسائنا الجميلات ، والأخرى على وشك أن تتركنا ، أيضا . هيا نرافق كاميلا» .

قالت كاميلا «لا» ، «من فضلكم ابقوا ، أريد الذهاب بمفردى» .

لم تعد معهم . فإن وجودهم بدأ يثير حنقها . هلت عليها الغيرة فجأة وبوثوق كأنها الموت . كانت بكامل قوتها ولاشيء عداها يهم . نهضت على قدميها وسارت في نفس الاتجاه الذى اتخذه برتلف وروزينا . ومن بعيد سمعت صوت مدير التصوير يقول : «خراء...»

(٢٠)

قبل بداية الحفل توقف چاكوب وأولجا جنب غرفة الملابس المحجوزة للعازفين كى يتمنيا لسكريتا حظا سعيدا . بعدها اتخذا مقعديهما فى الصالة. كانت أولجا تأمل أن يرحلا أثناء الاستراحة حتى تتمكن هى وچاكوب من قضاء باقى المساء معا دون إزعاج . اعترض چاكوب بأن صديقه سكريتا قد يفسر رحيلهما المبكر بشكل خاطىء ، لكن أولجا دافعت بأنه لن يلحظ ذلك .

كانت الصالة تقريبا ملآنة ، وهما اتخذا آخر مقعدين فى صفهما .

«إن تلك المرأة تتابعنى مثل ظلى طوال اليوم» همست أولجا لچاكوب وهما يجلسان .

نظر چاكوب من فوق كتفه فرأى برتلف على بعد مقاعد قليلة جالسا وبجواره الممرضة بالأنبوب المميت فى حقيبة يدها . وثب قلبه بدقة لكن بسبب من خبرته على طول عمره فى إخفاء حالاته الباطنية فقد قال بهدوء تام : «أرى أننا جميعا فى صف التذاكر المجانية التى أعطاها سكريتا لأصحابه. ذلك يعنى أنه يعرف أين نجلس ولهذا سيلحظ إن غادرنا» .

قالت أولجا «بإمكانك أن تخبره أن المستمعين كانوا بمنتهى الرداءة فى هذا الجزء من الصالة، ولهذا انتقلنا إلى مكان آخر » .

وهنا ظهر كليما على المسرح حاملا بوقا فانفجر الجمهور فى التصفيق . تبعه د. سكريتا . فكان هناك انفجار أكبر من التصفيق مع موجة من الإثارة المندفعة تكتسح الصالة . كان د. سكريتا يقف فى تواضع خلف عازف البوق ، فأعطى إشارة خرقاء بذراعه ، قاصدا التلميح بأن نجم الحفل الحقيقى هو هذا الضيف

القادم من العاصمة . لم يتفلّت حرج هذه الإشارة الساحرة عن انتباه الجمهور ، فاستجاب لها باحتفاء حماسي أعلى صوتا . ومن الخلف صرخ أحدهم : «يعيش يعيش دكتورنا سكريتا!»

أما عازف البيانو، أقل عضو في الثلاثي نال ترحيبا أو هتافا ، فقد جلس إلى مفاتيحه ، بعده توج سكريتا نفسه وراء مجموعة الدرامز المهيبة، ثم ذرع عازف البوق المكان عبر خشبة المسرح بخطو خفيف موقع .

انطفأ التصفيق توا ، عزف البيانو بعضا من الوتريات ثم انطلق إلى مقطوعات مقدمته المنفردة، لكن چاكوب رأى صديقه الصيدليّ مرتبكا وينظر حوله في قلق . لاحظ عازف البوق ، أيضا ، عصبية الدكتور فخطا مقتربا . همس سكريتا بشيء بعدها انحنى كلاهما وبدأ ينعمان النظر في الأرض ، حتى التقط أخيرا عازف البوق عصا النقر على الطبلة والتي تدحرجت عند قدم البيانو ثم سلمها لسكريتا .

أما الجمهور، الذي راقب المشهد كله عن كثب ، فقد انفجر في تصفيق جديد. وظن عازف البيانو أن الترحيب كان تقديرا لمقطوعات مقدمته ، فواصل العزف وهو يحني رأسه ترحابا .

لمست أولجا ذراع چاكوب ثم همست : «شيء جميل! جميل لدرجة أنني أعتقد أن هذه اللحظة ستسجل نهاية شريط حظي العاثر!» .

أخيرا انضم البوق والدرامز إلى البيانو . وكان كليما ينفخ في إيقاع يتواكب مع خطواته الموقعة على الأرض ، وقد جلس سكريتا خلف الدرامز مثل بوذا المجيد.

حاول چاكوب أن يتخيل ماذا لو قررت المرضة أن تتناول حبة وسط الحفل، تبتلعها، وتنهار في نزعات متشنجة ، ثم تسقط ميتة في مقعدها بينما يواصل د. سكريتا على الخشبة دقه على الدرامز حتى صيحات وتصفيق الجمهور .

وفى ومضة بان له لماذا سحبت هذه الفتاة تذكرة فى نفس الصف الذى به : فإن المجابهة غير المتوقعة فى المطعم ببواكير النهار كانت كالإغراء ، كالمحنة . لقد حدثت بغرض وحيد هو أن تبين له نفسه الحقة : سجين لكائن تابع . لكن مؤلف هذه المحنة (خالق هذا الوجود الذى لم يصدقه) لم يتطلب أضحية دموية ، لم يكن يحتاج إلى دم برئ ، لن تنتهى المحنة بالموت لكن فى داخل نفس چاكوب المكتشفة، فى التحرر من الغطرسة الأخلاقية الأثيمة . كان ذلك هو السبب فى أن المرضة تجلس الآن بنفس الصف ، ولهذا فبإمكانه إنقاذها فى اللحظة الأخيرة . وكان ذلك هو السبب فى أن رفيقها صديقه وأنه بالتأكيد سيساعده .

نعم ، لسوف ينتظر الفرصة الأولى ، قد تكون أول راحة بين نمرتين ، ولسوف يطلب من برتلف أن يخرج إلى الردهة مع روزينا . وهناك سيقدم بعض الإيضاحات وكل ذلك الجنون غير المعقول سوف ينتهى .

أنهى العازفون أول نمرة ، وكان تصفيق، قالت الممرضة «عن إذنك» واصطحبها برتلف يمهد لها الطريق إلى المشى . كاد چاكوب أن يهم على قدميه ليتبعهما لكن أولجا أمسكته بيدها وأعادته . «لا ، من فضلك ، ليس الآن. انتظر لحد الاستراحة» .

حدث ذلك بأسرع مما كان يدركه . فدخل العازفون إلى النمرة التالية ، وفهم چاكوب أن ذلك الذى يختبره قد وضع روزينا فى مقعد قريب لا لكى ينقذه بل ليدمره ويؤسس لجريمته دون أدنى شك .

ظل عازف البوق ينفخ فى لذة ، ولاح د. سكريتا من خلفه مثل بوذا مجيد على درامزه ، بينما جلس چاكوب متوازيا معهما ، لايرى عازف البوق ولا الدكتور . كان يرى نفسه فحسب ، يرى نفسه جالسا بالتوازى غير مستطيع أن يسحب بصره عن هذه الصورة المفزعة .

(٢١)

كانت النغمات الأولى المدوية لبوق كليما الذى يعشقه قد جعلته يحس أنه بمفرده على المسرح، يملأ الصالة كلها بالصوت . فأحس بالقوة ، وبأنه لايقهر . كانت روزينا تجلس فى صف المقاعد المجانية جنب برتلف (بدا ذلك، أيضا، كفأل حسن فجاة)، وكل شيء له همهمة ذبذبات مرحة . ينصت الجمهور بشغف وقدر عزز استحسانهم الواضح من مزاج كليما المتفائل . لدى إيقاع أول موجة من التصفيق أشار كليما بلمحة تمجيد نحو د. سكريتا ، والذى تزايدت معزّته لسبب ما عنده فى ذلك المساء . نهض الدكتور ثم انحنى .

لكن خلال النمرة التالية ، وحينما نظر كليما إلى الحاضرين ، لاحظ أن الكرسى الذى كانت تجلس عليه روزينا فارغ . أقلقه ذلك . ومن تلك اللحظة كان يعزف بصعوبة وهو يمعن النظر فى الصالة مقعدا بعد مقعد لكنه فشل فى العثور عليها . خطر له أنها قد غادرت عمدا كى تتجنب المزيد من الحوار معه ، واتخذت قرارها أن لا تظهر قبل ارتكاب جريمة الإجهاض . أين بإمكانه أن يفتش عنها بعد الحفل ؟ وماذا لو فشل فى العثور عليها؟

أحس أنه يعزف بطريقة بائسة ، ميكانيكية ، وهو غائب البال . ومهما كان ، فإن أداءه الباهت لم يلحظه الجمهور ، الذى كان راضيا وقد أخذ ينفجر فى ترحيب أكثر صخبا بعد كل مقطوعة .

حاول السيطرة على نفسه بفكرة أنها ذهبت إلى الحمام ، قد تكون انتابتها نوبة توعك تحدث غالبا للنساء الحوامل. وحين ظلت غائبة قرابة النصف ساعة ، قال لنفسه إنها عادت لتحضر شيئا ما ولسوف تظهر فورا فى كرسيها . لكن الاستراحات تذهب وتجيء ، وقارب الحفل على الانتهاء ، ومقعدها لازال فارغا .

وقد يكون أنها لم تجرؤ على الدخول فى الصالة وسط إحدى النمر ؟ هل تستعيد ظهورها بعد موجة التصفيق التالية ؟

لكن التصفيق تلاشى ولم تعد روزينا للظهور فى أى مكان . يئس كليما . منحه الحاضرون ترحيبا بالوقوف وهم يصرخون للإعادة . استدار كليما نحو د. سكريتا ثم هز رأسه ليشير إلى أنه ليس باستطاعته المزيد من العزف. لكن قابل عينيه عينان لامعتان تتوقان إلى أن يواصل العزف، مرة ومرة ، وطول الليل .

أخذ الجمهور إشارة كليما بالرفض كنوع من دلال النجوم المعتاد ، فصفقوا أكثر وأكثر . فى تلك اللحظة اندفعت امرأة شابة جميلة فى طريقها إلى الصف الأمامى . وحين رآها كليما ظن أنه سيغمى عليه. كانت تبتسم له ، قائلة (لم يستطع تبين صوتها ، لكنه قرأ الكلمات على شفتيها) : «واصل، اعزف ! من فضلك اعزف!» .

رفع كليما بوقه كعلامة على أنه سيقوم بنمرة أخرى . هدأ الجمهور فى الحال. تشعشع زميلا كليما العازفان ثم بدآ الإعادة. أحس كليما أنه يعزف فى فرقة جنائزية ، وهو يسير خلف نعشه. كان يعزف وهو يدرك أن ذلك كله ضياع ، ولم يبق شىء ليفعله إلا أن يغلق عينيه ، ويجعل ذراعيه متقاطعتين على صدره، ثم يترك عجلات المصير تدوس عليه .

(٢٢)

على رأس خزانة برتلف للشراب تصطف عدة زجاجات ببطاقات أجنبية منمقة. لم تعتد روزينا مثل هذه الرفاهية ، فطلبت ويسكى فقط لأنها الكلمة الوحيدة التى جاءت لبالها .

فى نفس الوقت، حاولت أن تتخذ طريقها عبر الدوار الذى كان يغلفها كى تحس بالموقف. وقد سألته مرات عدة عما جعله يفتش عنها وهو يعرف عنها القليل

بالفعل . «أريد أن أعرف . أريد أن أعرف» ظلت تكرر «لماذا قررت أن تراني فجأة».

رد برتلف «أردت أن أفعل هذا من زمان طويل» ، وهو يحدق فى عينيها .

«لكن لماذا اليوم ، دون كل الأيام» ؟

«لأن كل شىء له وقته المحتوم . ووقتنا قد حان اليوم» .

بدت هذه الكلمات ملغزة ، لكن روزينا أحست لها صدى من الحقيقة . فإن عجز موقفها هذا اليوم قد صار لا يحتمل أن يحدث لها أى شىء آخر فعليا .

«نعم» قالتها بتفهم «كان اليوم يوما خاصا» . .

«طبعا أنت توافقين على أننى وصلت فى الوقت المناسب» قالها برتلف فى صوت مخملى.

أحست روزينا بما يشبه الراحة اللذيذة تملأها فى إبهام : إن ظهور برتلف فى الوقت المناسب ، بدقة ، يعنى أن كل شىء حدث كان موجها من الخارج عموما ، وسوف ترتاح وتضع مقاديرها بين يدى هذه القوة الهائلة .

«فعلا ، أنت وصلت فى الوقت المناسب تماما» .

«أعرف» .

رغم ذلك ، هناك شىء آخر لم تستطع أن تفهمه : «لكن لماذا ؟ »

«لأنى أحبك» .

خرجت هذه الكلمات فى نعومة شديدة، وبدا رغم ذلك أنها تملأ الغرفة .

سكن صوتها ، أيضا: «أنت تحبنى؟»

«نعم» .

إن كلا من فرانتا وكليما كان يستعمل كلمة «أحب» ، لكن حتى هذه اللحظة لم تكن تسمعها كما تبدو عليه الآن ، غير متوقعة، لم تطلبها، عارية من التبذل . لقد

دخلت إلى الغرفة كالمعجزة . لايمكن تفسيرها تماما ، لكن من أجل هذا كله بدت أكثر حقيقة بالنسبة لها ، لأن الأشياء الأساسية فعلا فى الحياة توجد دون تفسير ولغير ماسبب ، تشتمل على منطقها فى داخلها .

سألته «حقا؟» ، وبدا صوتها – عاديا حادا نوعا ما ـ وكأنه همس .

«حقا» .

«لكنى مجرد فتاة عادية تماما» .

«لا، لست كذلك بالمرة» .

«بلى، أنا هكذا» .

«أنت جميلة» .

«لا ، لست جميلة» .

«أنت لطيفة» .

«لا» وهزت رأسها .

« تشعين رقة وحلاوة» .

«لا، لا ، لا» وظلت تهز رأسها .

«أعرف ما تبدين عليه . أعرفه أكثر مما تعرفينه أنت» .

«أنت لا تعرفنى» .

«نعم» .

كانت الثقة تنبعث من عينى برتلف وكأنها بلسم سحرى ، وقد اشتاقت روزينا لتلك النظرة العاشقة كى تحممها وتستكنّ إليها طويلا بقدر الإمكان .

«هل أنا فعلا كذلك؟»

«نعم ، أنت هكذا ، أعرف ذلك» .

كان ذلك بديعا إلى درجة أداختها ، وفى عينيه أحست بنفسها جميلة ، لطيفة ، بكرا ، ونبيلة مثل ملكة . أحست بنفسها تمتلىء بالعسل وبأزهار شذية . فوقعت فى الغرام مع نفسها بسهولة . (ياالله ، لم تشعر بمثل هذا من قبل ، لقد سعدت بنفسها فى التذاذ بالغ!) .

«لكنك لا تكاد تعرفنى!» واصلت احتجاجها .

« أنا أعرفك من زمان طويل . كنت أشاهدك من مدة طويلة لكن لم يخامرك الشعور بوجودى . فأنا أعرفك عن ظهر قلب » وربتت أطراف أصابعه على وجهها «أنفك ، ضحكتك – وهى تنسحب بخفة ، شعرك ...»

بدأ تعريتها ولم تمانع ، ظلت تنظر فى عينيه ، فى تحديقه الذى كان يحممها كجدول ماء صاف ، عذب . جلست فى مواجهته ، ثدياها العاريان يعلوان من تحت نظرته ، يشتاقان لأن يراهما ويمتدحهما ، دار جسمها كله نحو عينيه كعباد الشمس وهو يميل ناحية الشمس .

(٢٣)

جلسا فى غرفة چاكوب . كانت أولجا تتحدث عن أحد الأشياء وظل چاكوب يذكر نفسه بأن الوقت مازال فى حوزته كى يتصرف : بإمكانه الذهاب مرة أخرى إلى ماركس هاوس وإن لم تكن هناك فعليه أن ينادى على برتلف فى الشقة المجاورة ويسأله إن كان يعرف أين راحت .

ظلت أولجا تتكلم وفى نفس الوقت هو يفكر مقدما فى المشهد المؤلم الذى سوف يتلو إن حدث وعثر على المرضة - يغمغم ، يتأتى ، يعتذر، يحاول إقناعها بإعادة الحبة . وفجأة وكأنه تعب من هذه المناظر التى ظل يعانى من أجلها ساعات عديدة، شعر بلامبالاة شديدة تجتاحه .

لم تكن اللامبالاة قد تولدت عن التعب ، بل من عدم الأهمية الواعية ، المحاربة. صار چاكوب واعيا أنه يصدر نعيبا سيان عاش ذلك المخلوق ذو الشعر الأشقر أو مات ، ولن يحدث فعليا أى شىء عدا الرياء والصورة الزائفة بشكل لا يلائم إن حاول أن ينقذها . إنه يخدع بالفعل ذلك الذى كان يختبره . لأن الذى كان يختبره (الخالق غير الموجود) يتمنى أن يعرف ما الذى يحبه چاكوب بالفعل لا ما يتظاهر بأنه يحبه . وقرر چاكوب أن يكون أمينا فى وجه ممتحنه، أن يصير على سجيته .

جلسا فى كرسييهما الفوتيه ، يواجهان بعضهما الآخر ومنضدة هناك بينهما .

رأى چاكوب أولچا وهى تميل نحوه عبر المنضدة، وسمع صوتها : «أريد أن أقبلك . كم مر من وقت ونحن نعرف بعضنا البعض من زمان طويل لكن لم نتبادل ولا قبلة ؟ »

(٢٤)

كانت ابتسامتها مغتصبة على وجهها ، مستفزة وعصبية ، تلك حالة مسز كليما وقت أن شقت طريقها إلى استراحة العازفين كى ترى زوجها . كانت مفزوعة بفكرة أن تنظر إلى الوجه الحقيقى لعشيقته . لكن لا عاشقة هناك لتراها . صغيرتان تحومان حول كليما ، تلتمسان التوقيع على الأوتوجراف ، لكنها شمت على الفور (وعينها حادة كعين الصقر) أن لا أحد منهما يعرفه شخصيا .

وعلى هذا المنوال، كانت مقتنعة بأن العشيقة ليست بعيدة . عرفت ذلك من وجه كليما ، كان شاحبا وحيران ، من ابتسامته ، فهى مغتصبة كابتسامتها .

كان د. سكريتا ، والصيدلىّ ، وأناس كثيرون آخرون ، فى الغالب دكاترة مع زوجاتهم ، يحيونها ويقدمون أنفسهم لديها . واقترح أحدهم أن يعبروا الشارع

إلى البار الوحيد المفتوح حينذاك . عارض كليما بأنه تعبان للغاية . خطر لمسز كليما أن عشيقته ربما تنتظر فى البار وذلك هو سبب اعتراض زوجها . ولأن الكارثة كانت تجذبها كالمغناطيس ، فقد رجته ، من أجل خاطرها ، أن يغير رأيه .

لكن البار ، كذلك ، فشل أن يبدى أى امرأة قد تكون لها صلة به . جلسوا إلى مائدة واسعة . ثرثر د. سكريتا وصعد بعازف البوق إلى أعلى السموات . كان الصيدلى تفعمه سعادة خرساء وخجولة . حاولت مسز كليما أن تثرثر وتجتذب الحديث . «بصراحة ، كنت بديعا يادكتور» قالت لسكريتا . «وأنت أيضا ، عزيزى الصيدلى . كان الجو كله خلوا ، وبهجة، وإخلاص ـ وممتع أكثر ألف مرة من حفلات المدينة» .

ودون أن تنظر إليه مباشرة ، لم تشرد عن تتبعه ولو لحظة واحدة . هذا وقد شعرت بأنه يحاول جاهدا تغطية عصبيته ، ويلقى بتعليق بين الحين والآخر لمجرد التعمية على ذهنه الذى كان فى مكان آخر . اتضح لها أن وصولها قد أفسد إحدى مخططاته، ولم تكن إلا شيئا له أهمية . لو كان الأمر مجرد مغامرة روتينية (كليما يقسم لها دائما من المستحيل أن يقع فى غرام امرأة أخرى) ، فلن يرتفع الموقف إلى مثل هذا الانزعاج العميق . إنها لم تر عشيقته، لكنها واثقة أنها رأت كم هو متيم (الهيام اليائس ، القاسى) ، وهذا المنظر كان أشد تعذيبا .

«مالك ياسيد كليما؟» صاح الصيدلى فجأة ، وهو رجل سلوكه هادىء يخلص إلى الرقة الشديدة ومنتهى الحساسية .

رد عازف البوق «لا شىء ، لاشىء على الإطلاق» ، «مجرد صداع طفيف»

«ترغب فى مسكّن؟» سأله الصيدلى .

«لا ، لا ، شكرا » وهز كليما رأسه «لكن سامحونى من فضلكم لو غادرنا مبكرا قليلا عن الجميع ، فأنا فى تمام التعب» .

(٢٥)

كيف واتتها الشجاعة أخيرا لتفعل هذا ؟

من تلك اللحظة التى انضمت فيها إلى چاكوب فى المطعم بدا مختلفا . كان مقتضبا رغم أنه مقبول ، ذاهلا رغم أنه منتبه بشكل معقول ، باله فى مكان آخر رغم أنه كان يفعل أى شىء تريده . وعلى وجه الدقة بدا ذهوله (كانت تعزوه إلى رحيله الوشيك) مبهجا لها: تقول كلماتها إلى وجهه الغائب ، وكأنها تخاطب الفراغ الذى ليس بإمكانه أن يسمعها . ولهذا قالت أشياء لم تصرح بها إليه من قبل .

وهذه اللحظة ، حين طلبت منه القبلة ، بدا لها أنها أزعجته وأخافته . لكن هذا لم يثنها ، على العكس ، حتى هذا كان مبهجا : أحست أخيرا أنها تلك المرأة الجريئة المحرضة التى تاقت إليها طويلا ، امرأة تسيطر على الموقف ، تبدأ الحركة ، تراقب شريكها بفضول ، وتفسد خططه .

ظلت تنظر إليه بثبات العيون ثم قالت بابتسامة : «لكن ليس هنا . سيكون مضحكا لكلينا أن نقبل بعضنا البعض ونحن نميل على منضدة . فتعال» .

أخذته من يده ، قادته إلى الكنبة ، وتلذذت بثقتها الظريفة الأنيقة الهادئة من نفسها بسلوكها هذا . قبلته بعاطفة لم تكن تعرفها من قبل . لم تكن عاطفة عفوية لجسد غير قادر على التحكم فى نفسه ، بل عاطفة العقل ، والوعى ، والإرادة . كانت ترغب أن تمزق عن چاكوب غلافة دوره الأبوى، أن تصدمه وفى نفس الوقت تدغدغ نفسها بمنظر حيرته ، أرادت أن تغويه وتشاهد نفسها فى فعل الإغواء ، أن تعرف طعم لسانه وتحس يديه الأبويتين وهما تتجرآن تدريجيا على استكشاف جسمها .

فكت أزرار چاكته ثم نزعته عنه بشدة حازمة .

(٢٦)

ظلت عيناه تحاذيانه طول الحفل ومن بعده اختلط بحشد من صائدات الأوتوجراف وهن يندفعن فى حماسة نحو المسرح . لكن روزينا لم تكن هناك . بعدها تتبع مجموعة من الناس كانوا يقودون عازف البوق إلى الحانة فانساق وراءهم داخلا ، اقتنع بأن روزينا هناك تنتظر العازف . لكنه لم يكن على صواب. فخطا مرة أخرى إلى الشارع ، ولوقت طويل كان يرقب مدخل الحانة .

فجأة أحس بوخز : فقد انبثق عازف البوق من البار مع شبح نسوى يضغط نفسه عليه قريبا . اقتنع تماما أنها روزينا ، لكن ظهر أنها شخص آخر .

تبعهما إلى رشموند هاوس . اختفى كليما مع المرأة المجهولة داخله.

عبر الحديقة مسرعا إلى ماركس هاوس . كانت الأبواب لا تزال مفتوحة ، سأل البواب إن كانت روزينا قد عادت وأخبره أن لا .

جرى عائدا إلى رشموند ، وقلق من أن روزينا قد تلحق بكليما هناك فى هذه الأثناء . سار جيئة وذهابا عبر طريق الحديقة ، يرقب المدخل . لم يفهم ما كان يحدث . دارت كل أنواع الخواطر فى رأسه ، لكنه قرر التركيز فى مهمة واحدة : أن يظل مراقبا حذرا ، أن يشاهد وينتظر حتى يظهر أحدهم .

لماذا ؟ لأى غرض ستكون هذه المراقبة ؟ أليس من الأفضل له أن يقفل عائدا للبيت وينام ؟

صمم أن يعرف الحقيقة أخيرا .

لكنه حقا يريد أن يعرف الحقيقة ؟ هل يتمنى أن يعرف بعيدا عن أى شك أن روزينا تنام مع كليما ؟ أم أنه ، على العكس ، لم يكن يتوق للعثور على برهان لبراءة روزينا ؟ بل فى إطار عقله المرتاب ، أكان يثق فى مثل هذا الدليل .

لم يعرف فعلا ماذا يرتقب . كان يعرف فحسب إنه جاهز للمراقبة منذ وقت طويل ، الليل بطوله إن أمكن ، وحتى ليال عديدة . إن الشخص الغيور يجد الوقت ينداح بمثل هذه السرعة غير المعقولة . تملأ الغيرة عقله بالكامل أكثر من أى مهمة ذهنية تستحوذ عليه . ولا دقيقة واحدة خالية ، فإن ضحية الغيرة لا يعرف الملل طريقا إليه .

ظل فرانتا يذرع الطريق على امتداده ، بحوالى مئة خطوة بعيدا عن مدخل رشموند هاوس حيث كان يراقب . هنا وهناك يسير جيئة وذهابا فى طريقه طول الليل، بينما ينام كل الآخرين ، قدره أن يسير ويسير حتى انبلاج النهار ، حتى بداية القسم التالى.

لماذا لم يجلس على الأقل؟ هناك صفوف من المقاعد بمحاذاة رشموند هاوس!

ليس باستطاعته الجلوس . فإن الغيرة مثل ألم الأسنان الحاد . فهى لا تدع أى امرىء يتمكن من فعل أى شىء، حتى أن يظل جالساً . عليه أن يسير وحسب، جيئة وذهابا، جيئة وذهابا.

(٢٧)

تتبع جاكوب وأولجا الطريق الذى اتخذه من قبل كل من برتلف وروزينا : صعدا السلالم إلى الدور الثانى ، ثم على طول السجادة الموبرة الحمراء حتى نهاية الممر . مدخل شقة برتلف فى الأمام مباشرة ، وغرفة جاكوب إلى اليمين.

وكانت الغرفة التى خصصها د. سكريتا لكليما على اليسار . فتح الباب ثم أدار النور ، واعياً بلمحة كاميلا الواثبة للتفتيش عبر الغرفة . كان يعرف هذه اللمحة : تفتش عن آثار امرأة . يعرف كل شىء عنها . يعرف أن العاطفة التى تظهرها له ليست صادقة ، وأنها جاءت للتجسس عليه، وأنها على وشك التظاهر

بأنها جاءت لتهب له مفاجأة سارة . وقد عرف هذا من أفعالها ، كانت تعى تماماً مزاجه الردىء وقد اقتنعت بأنها أفسدت له علاقة غرامية سرية.

قالت «عزيزى ، هل أنت واثق أنك لم تتضايق من مجيئى؟».

«ولماذا أتضايق؟».

«ظننت أنك قد تكون وحيداً هنا».

«كانت نوعاً من الوحدة بدونك. واستحسنت أن أراك هناك وسط الجمهور، تصفقين لى».

«تبدو متعباً قليلاً . أم هل يزعجك شىء؟»

«لا ، لاشىء يزعجنى. أنا تعبان فقط، وهذا كل شىء».

«أنت متوتر لأن باقة من الرجال كانت تحوطك، وهذا يحبطك دائماً . لكنك الآن مع امرأة جميلة . ألا تعتقد أنى امرأة جميلة؟»

رد كليما «نعم ، أعتقد هذا طبعاً» ، وتلك كانت أول الكلمات الصادقة التى قالها لها ذلك اليوم . كانت كاميلا بهية الجمال، وقد آلم كاميلا بشدة أن يتعرض مثل هذا الجمال لمحنة أخلاقية . لكن مثال الجمال هذا يسخر منه الآن ، وهو يبدأ فى التعرى . كان يحدق فى جسمها البازغ وكأنه على وشك أن يقول لها وداعاً إلى الأبد . الثديان ، الثديان البديعان ، الصافيان، الكاملان ، الخصر الدقيق ، الوركان الأملسان ، واللذان تحررا تواً من سراويلهما . حدق فيها بحزن ، وكأنها ذكرى ، وكأنه يراها من وراء الزجاج ، وهى بعيدة . بدا عريها شارداً عنه حتى أنه لم يشعر بأدنى استثارة . ورغم ذلك كان يلتهمها بعينيه. احتسى شراباً فى صحة عريها كرجل محكوم عليه أن يستنزف كاسه الأخيرة . احتسى عريها كرجل يحتسى ماضيه المفقود ، حياته المفقودة .

تسحبت كاميلا بالقرب منه . « مالك ؟ ألن تخلع ملابسك ؟ »

لم يبق له خيار سوى أن يتعرى ، وأحس بحزن مرير.

«التعب ليس عذراً ، ياسيدى . لقد جئت كل هذه الطريق إلى هنا لمجرد أن أبقى معك. وعندى مزاج للغرام».

عرف أن هذا ليس صحيحاً . عرف بأن كاميلا ليس لديها أدنى رغبة فى ممارسة الحب وأنها تجبر نفسها على التصرف بهذه الاستثارة لمجرد أنها تدرك كآبته وتعزوها إلى حبه المحيط لامرأة أخرى . لقد عرف (ياالله المجيد ، كم كان يعرفها جيداً!) بأن سلوكها المغوى هذا كان مجرد تصرف لاختبار مدى قوة اهتمامه بارتكاب هذا الفعل فى مكان آخر، وكى تعذب نفسها بلامبالاته .

قال «أنا بالفعل مجهد» .

عانقته ثم قادت به إلى السرير. قالت «سترى كيف أنى سأجعلك تحس بالعافية سريعاً» ، وهى تبدأ العبث بجسمه العارى.

تمدد على الفراش وكأنه على طاولة عمليات جراحية . عرف أن كل جهود زوجته سوف تبوء بالفشل . انكمش على نفسه . وكانت رطوبة فم كاميلا تنزلق عليه بالكامل ، عرف بأنها تريد أن تعذب نفسها وتعذبه ، فكرهها . لقد كرهها بكل ضخامة عشقه لها: كان هذا خطؤها، غيرتها، تجسسها، شكها ، زيارتها المفاجئة التى أفسدت كل شىء، والتى سببت لزواجهما أن يتعرض للخطر بقنبلة متفجرة تعشش فى بطن امرأة غريبة ، قنبلة موقوتة ستنفجر بعد سبعة أشهر وتحيل كل شىء إلى شظايا. هى السبب، بقلقها المجنون بخصوص الحب، والذى دمرها تماماً.

قربت فمها من حجره وأحست بعضوه ينسحب من جراء ملاطفتها، يفر منها، ينكمش ويصير جباناً. وقد عرف بأن كاميلا تفسر اعتراضه الجسدى عليها كعلامة على افتتانه بامرأة أخرى. عرف أنها كانت تقاسى بشدة ، وكلما قاست أشد واصلت شفتاها الرطبتان تعذيب جسمه العاجز أكثر .

(٢٨)

إن آخر شيء يريد أن يفعله هو ممارسة الحب مع هذه الفتاة . كان شغوفاً بأن يجعلها سعيدة وأن يحيطها بكل الحنان ، لكن هذا الحنان لا يجدى شيئاً عموماً مع الحب الجسدى، فى الحقيقة كان يصد الرغبة الجنسية ، لأنه يتوق لكونه نقياً، غير أنانى، ينفصل عن أى متعة.

لكن ماذا عليه أن يفعل الآن؟ هل يرفض أولجا لصالح دوام النقاء فى نزعته الخيرية؟ عرف أن هذا سيكون خطأ؛ فإن رفضه سيؤذى مشاعر أولجا، وقد يخلف ندوباً دائمة. أدرك أنه لابد أن يحتسى كاس الحنان حتى آخر رشفة .

وعندها ، فجأة، رآها تقف عارية أمامه فقال لنفسه إن وجهها نبيل وطيب. لكن هذا التشجيع القليل كان يعنى القليل بمجرد أن فهم أن هذا الوجه مرتبط بباقى الجسد، والذى بدا مثل ساق نحيلة طويلة لزهرة مزغبة، كبيرة جامحة.

لكن مهما كانت الصورة التى بدت عليها، فقد أدرك چاكوب أن لا مهرب له هناك. وبالإضافة، شعر أن جسده (جسده السلافى) يرفع مرة أخرى رمحه الكريم. وبدا له، عموماً، أن هذه الإثارة تحدث فى جسد غريب عنه، بعيد عنه، خارج نفسه ، وكأنه يُستثار دون مشاركة خاصة منه، وهو يزدرى هادئاً كل ذلك . كانت روحه بعيدة عن جسمه، تتأمل السم فى حقيبة يد امرأة غريبة، وتعى بوهن فحسب مطاردة الجسد الأنانية العمياء التى يرثى لها لاحتياجاته المبتذلة.

مرت ذكرى متلاشية فى بال چاكوب : كان فى حوالى العاشرة من عمره حين عرف لأول مرة كيف يأتى الأطفال للعالم، واستحوذت فكرة عملية الولادة عليه أكثر وأكثر وهو يكتسب تدريجياً معرفة صلبة ومفصلة عن تشريح الأنثى . كان يحاول دائماً تصور ولادته . تخيل جسمه الصغير وهو ينزلق من نفق معتم ضيق ، فمه وأنفه يمتلئان بمادة رغوية . هذا المخاط يلطخه ، ويميزه . نعم ، كانت هذه

الإفرازات الأنثوية تخترقه بعمق طوال حياة چاكوب حتى أنها مارست قواها الباطنية عليه، تستدعيه عند اللزوم وتتحكم فى آليات جسمه الملغزة والمتنوعة. وكان يحس دوماً بنفور من هذا الخزى، ويقاومه على الأقل لآخر مدى حتى أنه لم يهب روحه أبداً لامرأة ، وبهذا صان حريته وعزلته، وعليه فقد حصر «منطقة المخاط» هذه إلى ساعات محدودة معينة من حياته . نعم ، قد يكون هذا هو السبب الذى جعله يحب أولجا كثيراً : وبالنسبة له، فقد كانت كائناً برمته ما وراء حدود الجنس، ولا يذكره أبداً جسمها بسلوك ميلاده المخزى.

كان يلاحق داخله هذه الأفكار لطردها، حيث كان الموقف فى هذه الأثناء على الكنبة يتطور بسرعة، فقد كان على وشك أن يخرقها ، ولم يكن يود أن يفعل هذا وسط هذه الخواطر البغيضة التى تدور على باله . ذكر نفسه بأن هذه المرأة التى تنفتح له هى الكائن الذى خصص له مجرد الحب الخالص فى حياته ؛ وغرضه الوحيد فى ممارسة الحب معها الآن هو أن يجعلها سعيدة، وأن يهبها اللذة ، وأن تكون مبتهجة وواثقة بالنفس .

وهو داخلها حدثت مفاجأة : فقد وجد نفسه/طافياً فوقها وكأن تموجات من إنسان كامل تحمله . أحس بأنه سعيد . وتطابقت روحه فى دعة مع نشاط جسمه، وكأن ممارسة الحب ماهى إلا تعبير جسدى عن مشاعر صافية ، عاشقة، حنون ، نحو كائن آخر . كل العقبات تلاشت ، وانكشف الزيف كله. احتضن كل منهما الآخر بوثوق واختلطت أنفاسهما . .

كانت هذه لحظات بديعة ، طويلة ، وبعدها همست أولجا بكلمة فاحشة فى أذنه. همست بها مرة، ومرة أخرى، مستثارة بجرأتها .

تراجعت تموجات الإنسان الكامل على الفور، ووجد چاكوب نفسه مع الفتاة يجنحان فى صحراء.

كان هذا رد فعل غير عادى بالنسبة لچاكوب . وعموماً ، فهو عندما يمارس الحب لا يكون لديه أدنى اعتراض على الكلام الفاحش . حقاً ، فهو يستميل

إحساسه وعنفيته، ويقصى المرأة بأمان عن روحه أثناء ما يجعلها مرغوبة بالتذاذ إلى جسده . لكن أن تخرج من فم أولجا، فقد دمرت هذه الكلمة الجلفة أوهامه بشكل كامل . نبهته من حلم . تبخر ضباب الحنان العاشق وظهرت الفتاة فى ذراعيه كما كان يراها منذ البداية: زهرة كبيرة كرأس على قمة ساق نحيلة واجفة كجسد . كان هذا المخلوق البائس يتصرف باستثارة بغيّ ، دون أن يكف عن كونه بائساً، ولهذا بدت كلماتها المقترحة سخيفة ومحزنة.

لكن چاكوب عرف بأن ليس ضرورياً أن يكشف خطأ أى شىء هنالك؛ وعليه أن يواصل أداء اللعبة، عليه أن يداوم استنزاف كاس حنانه اللاذعة حتى آخر رشفة، لأن هذا العناق العبثى كان غرضه الخيِّر الوحيد ، ادعاءه المنفرد بالافتداء (وهو لم ينس لحظةً حبة السم)، هو خلاصه الفرد .

(٢٩)

مثل لؤلؤة كبيرة تلمع فى محارة رمادية رخوة ، كانت شقة برتلف المرفهة محاطة من كلا الجانبين بغرف بسيطة متواضعة خصصت لچاكوب وكليما . كانت هذه الغرف تغط بالفعل فى سلام آمن منذ وقت طويل ، بينما روزينا لا تزال سعيدة وهى تنشج آخر نوبات لهاثها الملتذ بين ذراعىْ برتلف .

ثم رقدت بهدوء جنبه وهو يدلّك وجهها بنعومة . بعد لحظة انفجرت فى البكاء. بكت لمدة طويلة، ورأسها مدفون فى صدره.

ضمها برتلف مثل بنت صغيرة وهى شعرت بالفعل أنها طفلة . صغيرة كما لم تكن (لم تحاول مطلقاً أن تخسر نفسها على صدر أى امرىء من قبل). وكبيرة أيضاً كما لم تكن (لم تشعر أبداً بمطلق هذه السعادة من قبل) . وكل نوبة نشيج كانت باسم جديد لإحساسها بالنعمة الذى لم تخبره قبلاً.

أين راح كليما الآن، بل وأين راح فرانتا؟ كانا بمكان ما في غمام بعيد، أجسام خفيفة كالريش، تطير نحو الأفق. وأين راح حنيتها الحرون للخلاص من أحدهما واصطياد الآخر؟ أين راح غضبها ، صمتها المحزون الذى كانت تلفّ به نفسها كالشرنقة ؟

كانت نوبات نشيجها ترسب بينما ظل هو يدلك وجهها . قال لها أن تنام . فلديه سريره الخاص فى الغرفة الملحقة . فتحت روزينا عينيها ونظرت عليه : عارية، ذهب برتلف إلى الحمّام (صوت الماء الجارى كان مسموعاً) ، ثم عاد ، فتح خزانة ، شدّ بطانية ، ثم غطّاها فى رقة .

شاهدت روزينا الأوردة المعقودة فى ربلتى ساقيه . وحين مال عليها لاحظت أن شعره الرمادىّ المسترسل كان خفيفاً وأن صلعته تبين من خلاله . نعم ، كان برتلف فى الخمسينيات من عمره ، وله كرش إلى حد ما ، لكن روزينا لم تبال . بل على العكس ، طمأنها عمره ، استجلب شبابها فى نور ذاهل جديد لم تعد تحس معه بالكآبة أو التشوه لكن أفعمها حسّ بالحيوية ، حسّ جعل رحلة حياتها وكأنها تبدأ حالا . فى وجوده أدركت الآن أن شبابها لن يشحب لمدة طويلة ، ولا حاجة بها للاستعجال ، لاحاجة للخوف من مرور الزمن . جلس برتلف مرة أخرى جنبها، حضنها ، وأحسّت أنها لم تكن تلتمس الدفء بأمان فى عناق ذراعيه اللطيف فحسب ، بل فى عناق أعوامه المطمئن .

أعتم وعيها ثم أسلمت نفسها للعبة التخيلات الذاهلة . ثم تنبهت فبدا لها أن الغرفة بكاملها يحمّمها نور مزرقّ خاص . وهى لم تر مثل هذا الوهج الغريب من قبل . ماذا كانت طبيعته ؟ هل هَلّ القمر على الأرض ملفوفا فى ردائه المزرقّ ؟ أم أنها تحلم وعيناها صاحيتان .

ظل برتلف يبتسم لها ويدلك وجهها .

أخيراً أحكمت عينيها ، وحملها الحلم بعيداً .

اليوم الخامس

(١)

كان الوقت لازال ليلا ، وتنبّه كليما من نوم خفيف للغاية . أراد أن يلحق روزينا قبل ذهابها للعمل . لكن كيف يفسّر لكاميلا حاجته للخروج قبل الفجر ؟

نظر إلى ساعته : الخامسة بالضبط . عرف بأنه لو لم ينهض بسرعة فلن يلحق روزينا ، لكنه لم يستطع التفكير فى أى عذر . كان قلبه يخفق بالانفعال . ولا سبيل أمامه . نهض ثم بدأ يلبس ، بهدوء حتى لا تصحو كاميلا . وحينما زرّر جاكته سمع صوتها . كان مرتفع النبرة ، نصف نعسان ، واهنا : « على أين العزم ؟ »

خطا إلى سريرها وقبّلها فى خفة على الفم . «عودى للنوم ، فلن أغيب . »

«أذهب معك » قالت كاميلا ، لكنها انجرفت عائدة إلى النوم .

خرج كليما بسرعة من الباب .

(٢)

هل هذا ممكن ؟ أظلّ يراقب سائرا جيئة وذهابا ؟

نعم . لكنه توقف الآن . فقد رأى كليما وهو يخطو خارجا من رشموند هاوس، انتظر لحظات قليلة ثم تتبعه بهدوء نحو ماركس هاوس . مرّ عبر الردهة (كان البواب نائما) ثم اختفى فى ركن الممر متوجها إلى غرفة روزينا . رأى عازف البوق يطرق بابها . وظل الباب مغلقا . طرق كليما مرات أكثر قليلا ، ثم دار للسير مبتعدا .

تتبعه فرانتا وهو يخرج من المبنى . رآه يذرع الطريق الطويل نحو الحمامات ، حيث من المفروض على روزينا أن تبدأ ورديتها بعد نصف ساعة . جرى إلى ماركس هاوس ، قرع باب روزينا ، ثم همس بصوت عال فى ثقب المفتاح : « إنه أنا ! فرانتا ! لا تنزعجى ! افتحى ! »

لم يصله أى ردّ .

وبينما كان يغادر ، بدأ البواب صحوته .

سأله فرانتا «هل روزينا بالداخل ؟ » .

ردّ البواب « لم تعد منذ الأمس » .

خرج فرانتا إلى الشارع . وعلى مبعدة رأى كليما وهو يدخل الحمّام العمومى.

(٣)

استيقظت روزينا كالمعتاد فى الخامسة والنصف . لم تنم أى وقت زيادة هذا الصباح ، رغم أنها راحت فى النوم تحت ضغط ظروف منعّمة . نهضت ، لبست ، وعلى أطراف أصابعها سارت إلى الغرفة الملحقة .

كان برتلف راقدا على جنبه ، يتنفّس بعمق ، وشعره الذى كان ممشّطا بأناقة فى العادة قد صار أشعث، كاشفا عن رقعة من رأسه الصلعاء ، وهو نائم ، ظهر وجهه أكبر ورماديا أكثر . على منضدته الليلية مجموعة من الأدوية ذكّرت روزينا بالمستشفى . لكن لاشىء من هذا ضايقها . حدقت فيه فأحسّت بالدموع تنهلّ من عينيها . لم تعرف أبدا ليلة أشدّ جمالا من هذه . جاءتها رغبة غريبة فى الركوع أمامه . لم تفعلها ، لكنها مالت عليه وقبّلته بخفة على الجبهة .

وحين اقتربت من الحمّامات رأت فرانتا يذرع المكان إليها .

منذ يوم سالف ، كانت هذه المجابهة تبعث فيها الاضطراب . ورغم أنها في حالة حب مع عازف البوق ، فقد كان فرانتا يعني لديها الكثير . هو وكليما يشكّلان زوجا لايتجزأ : أحدهما يشير إلى الحقيقة اليومية والآخر إلى الحلم ؛ أحدهما يريدها والآخر لا يريدها ؛ تريد أن تهرب من أحدهما وتشتاق للآخر . كل منهما يقرّر معنى وجود الآخر . وقرارها بأن والد طفلها هو كليما لم يفصل فرانتا عن حياتها . بل على النقيض : كان فرانتا بالتحديد هو الذي دفعها إلى هذا القرار . وهي تتقلب فيما بينهما وكأنهما قطبا وجودها ؛ كانا قطبي الشمال والجنوب للكوكب الوحيد الذي تعرفه .

لكنها فجأة أدركت ذلك الصباح أن هذا الكون يحتوي عوالم أخرى ، وأنها من الممكن أن تعيش بدون كليما وبدون فرانتا أيضا . أدركت أن لاحاجة بها للاستعجال ؛ فهذا رجل ناضج حكيم باستطاعته أن يقودها إلى عالم به زمن أكثر حنانا وإلى شباب لا يذبل سريعا .

« أين كنت الليلة الماضية ؟ » كان فرانتا يجلدها .

« ليس هذا شغلك . »

«كنت في بيتك . لم ترجعي . »

قالت روزينا «ليس من اختصاصك أن تعرف أين كنت » ، وبدون أن تقف سارت إلى بوابة الحمام العمومي . « وكفّ عن ملاحقتي . »

ظل فرانتا يقف بمفرده أمام المبنى ، ولأن ساقيه كانتا تؤلمانه من سهره طول الليل فقد جلس على مقعد يتيح له النظر على المدخل .

أسرعت روزينا تصعد السلالم ثم دخلت غرفة الانتظار الكبيرة في الدور الثاني والتي تصطفّ فيها مجموعة من المقاعد والكراسي لراحة المرضى . وكان كليما يجلس قرب باب مغادرتها .

«روزينا ! » نهض ناظرا إليها بعينين يائستين . « أرجوك ! أرجوك ، كونى عاقلة . تعالى معى ! هيا نذهب هناك معا ! »

كان قلقه عاريا ، مجردا من قشرة رباطة الجأش التى تظاهر بها فى بداية الأسبوع .

قالت روزينا : « أنت فقط تريد أن تتخلّص منى . »

أفزعه هذا . « لا ، لا أريد أن أتخلّص منك . على العكس . أريد لكلينا أن يقدر على محبة الآخر أكثر . »

«كُفَّ كذبك عنى .»

«روزينا ، من فضلك ! كل شىء سيتحطم إن لم تأت !»

« من قال إنى لن آتى ؟ لا زال أمامى ثلاث ساعات . الساعة الآن السادسة بالضبط . عُد إلى نومك . فإن زوجتك فى انتظارك . »

أغلقت من خلفها الباب ، وانزلقت فى معطف أبيض ، ثم قالت لزميلتها متوسطة العمر : « هل تؤدين لى خدمة . يجب أن أذهب فى التاسعة . هل بإمكانك أن تنوبى عنى لمدة ساعة ؟»

«أرغموك أخيرا على فعل هذا » قالت صديقتها مؤنبة .

ردّت روزينا« لم يرغمنى أحد على شىء . بل وقعت فى غرام جديد .» .

(٤)

خطا چاكوب إلى النافذة وفتحها . فكّر فى الحبة الزرقاء الباهتة ولم يستطع أن يصدّق أنه قد سلّمها بالفعل فى اليوم الماضى إلى تلكم المرأة . حدّق فى السماء الزرقاء واستنشق الهواء المنعش فى بواكير ذلك الصباح الخريفى . الدنيا عادية خارج النافذة ، هادئة ، كأمر واقعى . وبدا له ذلك الذى تم مع الممرضة فى هذه اللحظة عبثياً وغير محتمل.

لقط التليفون وضرب نمرة الحمام العمومى. طلب روزينا الممرضة فى قسم النساء . انتظر طويلاً . أخيراً ردت امرأة . كرر الكلام إنه يريد الممرضة روزينا . رد الصوت : روزينا الممرضة مشغولة الآن فى الحمام ولن تتمكن من المجىء للتليفون . شكرها ثم وضع السماعة.

شعر بحس هائل من الراحة : روزينا لا تزال حية . فإن الأقراص التى يحتويها ذلك النوع من الأنابيب تؤخذ عموماً ثلاث مرات يومياً : فلابد أنها قد أخذت إحداها فى الليلة الماضية وهذا الصباح . ولابد أنها ابتلعت قرصه منذ وقت قليل بالضبط . صار كل شىء واضحاً تماماً له : إن الحبة الزرقاء الباهتة التى يحملها فى جيبه كضامن لحريته كانت زائفة . وقد منحه إياها صديقه كوهم على الموت فحسب.

لماذا لم يفكر فى هذا من قبل؟ استدعى مرة أخرى ذلك النهار الفائت من زمن حين طلب من أصدقائه السم . لقد تحرر من السم تواً، والآن ، فى تأمله ماحدث ، أدرك أن طلبه ذلك يبدو مجرد شىء متكلف، لمحة مسرحية مصممة للفت الانتباه إلى تلك المعاناة التى يتحملها. وافقه سكريتا بدون تردد، وبعد عدة أيام أعطاه حبة زرقاء باهتة، ولامعة. نعم ، لم يكن محتاجاً لأن يتردد، لم يحاول أن يثنيه عن مطلبه : تصرف سكريتا بحكمة ، بحكمة أكثر كثيراً من الآخرين، الذين رفضوا حجة چاكوب. إن سكريتا قد أعطاه ببساطة وهماً غير مؤذٍ بالسكينة والثقة، واكتسب عرفان چاكوب له مدى الحياة فى صفقة.

كيف لم يخطر هذا قط على باله من قبل؟ حقاً، بدا ذلك حينها غريباً بدرجة طفيفة أن يمنحه سكريتا السم فى شكل قرص مميكن ، عادى . عرف چاكوب أن سكريتا العليم بالكيمياء الحيوية له صلة مباشرة بالمواد السامة ، لكن بدا غريباً أنه لديه جهاز لصنع الأقراص فى حوزته. لكنه لم يعط ذلك أهمية تذكر . ورغم أنه يرتاب فى كل شىء بهذا العالم ، فإن ثقته فى الحبة كانت كثقته فى المسيح.

والآن ، بهذه اللحظة من الراحة الهائلة ، كان ممتناً بالطبع لصديقه على خديعته . أسعده أن المرضة تعيش وكل تلك القصة العبثية بذلك اليوم السابق هى مجرد حلم ردىء، لايدوم شىء بشرى طويلاً، على العموم، وأن الموجات المنسحبة من الراحة المنعمة يتبعها رقرقات من الأسى.

كم أن هذا سخيف! فإن الحبة التى فى جيبه منحت كل خطوة له عواطف درامية، وقد مكنته من أن يحيل حياته لأسطورة نبيلة! كان مقتنعاً أن هذه القطعة الصغيرة من ورق المناديل تحتوى على الموت، وهى تحتوى فحسب على ضحكة خرساء لسكريتا.

وفى التحليل الأخير، أدرك چاكوب أن صديقه قد فعل الشىء الصحيح، لكن على حد سواء بدا له أن سكريتا الذى يحبه قد انكمش فجأة وصار شخصاً عادياً، متوسط القيمة ، دكتوراً مثل آلاف غيره . إن السلوك غير المرتاب ، العرضى، الذى عهد به للسم قد جعل سكريتا يبدو وكأنه كائن مختلف تماماً عن كل معارف چاكوب . فهو لم يتصرف ببساطة على الطريقة التى فعلها الآخرون. هناك شىء غير محتمل فيه . لم يكن يبالى بإمكانية أن يسىء چاكوب استخدام الحبة فى حالة من الهستيريا أو الاكتئاب . لقد تعامل مع چاكوب وكأن لديه ثقة كاملة توحى بأنه سيد نفسه وأن ليس لديه أى نوازع ضعف بشرية. تعامل كل منهما مع الآخر كربَّين مجبرين على المعيشة وسط البشر، وكان ذلك بديعاً . يبدو أن ذلك لن يُنسى، وقد انتهى الآن تماماً.

حدق چاكوب فى أزرق السماء وهو يفكر : هذا اليوم، منحنى سكريتا راحة وسكينة . وسلب منى صورتى عنه.

(٥)

حار كليما من المفاجأة السارة بإذعان روزينا ، لكن لم يثنه شيء للتحول عن غرفة الانتظار. فقد كان اختفاء روزينا غير المفهوم فى اليوم السابق يذبل فى ذاكرته ، قرر أن ينتظر مباشرة هناك ، ليتأكد من عدم محاولة أى واحد تغيير رأيها أو تبديل حماستها.

بدأت المريضات فى المجيء والذهاب ، يندفعن عبر الباب الخلفى الذى اختفت منه روزينا ، بعضهن ظل هناك ، وعادت الأخريات إلى غرفة الانتظار ليجلسن على الكراسى المصطفة إلى الحوائط. كن ينظرن باستفهام كلهن على كليما ، لأن هذا قسم النساء ولم يكن يسمح للرجال عموماً بالبقاء فى غرفة الانتظار.

هلت امرأة ممتلئة فى معطف أبيض من أحد الأبواب وحدجته بنظرة فاحصة ، ثم اقتربت منه وسألته إن كان ينتظر روزينا . تهلل ثم أومأ برأسه . «غير مسموح لك بالجلوس هنا . فهى لن تخرج قبل التاسعة» قالتها بألفة متطفلة، وبدا لكليما أن كل النساء فى الغرفة قد سمعنها وفهمن ما تعنيه .

حوالى التاسعة إلا ربعا خرجت روزينا ، وهى ترتدى ملابس الخروج. أخذها فى ذراعه ودون أن يتبادل معها كلمة سارا خارجين من المبنى . كانا غارقين فى أفكارهما ولم يلحظ أحدهما فرانتا وهو يتتبعهما ، فقد كان رابضاً خلف أشجار الحديقة.

(٦)

لم يبق أمام جاكوب أى شيء ليفعله عدا توديع أولجا وسكريتا ، لكنه أراد أولا أن يتنزه فى الحديقة (للمرة الأخيرة) ويلقى نظرة حنين على الشجر المتوهج.

حين خطا خارجا من الممر كانت امرأة شابة تغلق باب الغرفة المقابلة ، أسره قوامها الطويل ، وعندما رآها أذهله جمالها .

فخاطبها «أنت صديقة د. سكريتا ، أليس كذلك؟».

ابتسمت المرأة فى حبور : «كيف عرفت؟».

قال جاكوب «إن الغرفة التى غادرتها للتو واحدة من التى يخصصها د. سكريتا لأصحابه» ، ثم قدم نفسه .

ردت «أنا مسز كليما» ، «كان الدكتور كريماً وهو يمنح زوجى هذه الغرفة . وأنا أفتش عنه الآن حالاً . قد يكون مع الدكتور . هل عندك فكرة أين بإمكانى أن أجدهما»؟

حدق جاكوب فى وجه المرأة الشابة بلذة شرهة وصدمه (مرة أخرى!) أن هذا هو يومه الأخير ، الذى يضفى على كل حدث نكهة خاصة ويحيله إلى بشارة رمزية.

لكن ما الذى تعنيه هذه البشارة؟

قال «سأكون سعيداً أن آخذك إلى د. سكريتا» .

«هذا من لطفك».

نعم ، ما الذى تعنيه هذه البشارة؟

بادىء ذى بدء ، فهى مجرد رسالة، لا شىء أكثر . فخلال ساعتين سيرحل جاكوب، ولسوف يضيع منه هذا المخلوق البديع إلى الأبد. كشفت هذه المرأة نفسها لجاكوب كشىء مرفوض؛ حيث قابلها فحسب ليعرف أنها لن تكون أبداً له. لقد قابلها كصورة لكل شىء على وشك أن يهجره برحيله.

«غريب» قال . «قد تكون هذه هى المرة الأخيرة فى حياتى التى سأكلم فيها د. سكريتا ».

لكن الرسالة التى تحملها هذه المرأة أخبرته بشيء آخر، أيضا . فقد كانت سفيرة الجمال للحظة الأخيرة . نعم ، الجمال، أدرك چاكوب منذ البدء أنه لا يعرف شيئاً بالفعل عن الجمال ، أنه كان يشرف عليه ولم يعش من أجله مطلقاً . إن جمال هذه المرأة قد فتنه . شعر فجأةً أن كل قراراته السابقة مشوهة بسبب من السهو، وأنه كان يسهو عموماً عن شيء ما . بدا أنه لو عرف هذه المرأة فإن قراره سيكون مختلفاً.

«لماذا هى المرة الأخيرة»؟

«أنا مسافر للخارج، ولمدة طويلة».

ليس لأنه لم يكن لديه نساء فاتنات ، بل لأن سحرهن كان يحيط به على الدوام، ما يدفعه ناحية النساء هو عطش الانتقام ، أو الحزن وعدم الرضا ، أو العاطفة والشفقة ، تزامنَ معه العالم الأنثوى بدراما حياته اللاذعة فى بلاده ، حيث كان كلاً من الضحية والجلاد وحيث قد خبر العديد من الصراعات المريرة والقليل من المسرات. لكن بدا أن هذه المرأة بعيدة عن ذلك كله ، بعيدة عن حياته، وأنها هلت من خارجها، ظهرت خارجة من مكان ما، لم تظهر فحسب كامرأة جميلة بل كالجمال ذاته وجعلته يفهم أن بإمكانه – هنا والآن – أن يعيش بشكل مختلف ولأهداف مختلفة ، هذا الجمال كان أفضل من العدل ، أفضل من الحقيقة، واقعياً أكثر، يقينياً أكثر، نعم ، ويمكن إحرازه أكثر، أنه قد يتجاوز كل شيء عداه وكل هذا ضاع منه إلى الأبد . كشفت نفسها إليه فى اللحظة الأخيرة فقط لتجعله يرى كم كان أحمق وهو يفكر أنه عرف كل شيء وذاق كل الحياة التى عرضت له.

قالت «إنى أحسدك» .

عبرا إلى الحديقة معا ، كانت السماء زرقاء ، والأشجار صفراء وحمراء ، وخطر لچاكوب مرة أخرى أن هذه هى صورة النار التى تستنفد كل الأحداث ،

والذكريات ، وفرص ماضيه.

«لاشيء يثير الحسد. الآن فقط يبدو لى أنه لا يجب أن أغادر على الإطلاق».

«لم لا؟ هل أثار المكان لوعتك فجأة؟».

«أنت التى أثارت لوعتى . تعجبيننى جدا ، جدا . فأنت فائقة الجمال».

خرجت هذه الكلمات منه قبل أن يدرك مايحدث ، وخطر له على الفور ، بإمكانه أن يحكى لها كل شيء حيث سيرحل بعد ساعات قليلة وأن كلماته ستكون بلا عواقب ، لا له ولا لها . إن اكتشافه الحرية فجأة قد أذهله.

«كنت أعيش أعمى . رجل أعمى . والآن ، للمرة الأولى ، أدرك أن هناك شيئاً اسمه الجمال . وأننى أدعه يمر بى».

استدعت إلى عقل جاكوب ذلك العالم الذى لم يقتحمه، عالم الموسيقى والفن؛ فهى لا تندمج مع الأوراق المشتعلة التى لم يرها من قبل كرسالة للنار أو رمز فحسب بل كنشوة للجمال، نبهها مجد خطواتها ، ورنين صوتها .

«سأبذل أى شيء فى هذا العالم كى أفوز بك . أود أن أرمى كل شيء بعيدا وأعيش حياتى كلها بشكل مختلف، بسببك ومن أجلك . لكنى لا أستطيع ، حيث أننى ماعدت هنا بالفعل . كان من المفروض أن أرحل الليلة الماضية ، وأنا اليوم هنا فقط مثل ظل لعوب».

آه نعم ، فهم الآن لماذا وهب لقاءها . هذا اللقاء كان يحدث خارج دنياه، فى مكان ما بعد مصيره، فى الجانب العكسى من حياته . جعل ذلك الكلام معها أيسر كثيراً ، حتى أدرك أنه رغم هذا، فلن يتمكن أبداً من أن يحكى لها كل شيء يريد أن يقوله.

لمس ذراعها وأشار مباشرة للأمام : «هذا هو مكتب د. سكريتا . وعليك الصعود إلى الدور الثانى».

حدجته مسز كليما بنظرة طويلة ، فاحصة ، واحتسى چاكوب نظرتها ، ناعمة ورطبة مثل أفق غائم. لمس ذراعها مرة أخرى، واستدار ، فسار مبتعداً.

نظر وراءه فرأى مسز كليما تقف فى سكون ، تنظر عليه . استدار مرات عديدة أخرى، وكانت لاتزال هناك، تعيد نظرتها عليه.

(٧)

كانت غرفة الانتظار تمتلىء بعشرين من المتوترين . ولم يجد روزينا وكليما مكاناً للجلوس . الحوائط مزينة بملصقات كبيرة صممت لتنصح النساء بالعدول عن عمليات الإجهاض. (مامى، لماذا لا ترغبين فى مجيئى؟) عبارة كتبت فوق وليد مبتسم فى مهد . أسفل جزء فى الملصق يظهر بوضوح قصيدة يرجو فيها طفل لم يولد بعد أمه ألا تحذف وجوده . كان الطفل يعد بسعادة لا حد لها فى المقابل : (ذراعا من سوف يحتضنانك حين الوفاة ياأمى ، إن لم تلدينى؟).

عرضت ملصقات أخرى صوراً لأمهات باسمات فى حبور وهن يدفعن عربات الأطفال، مع صور لأولاد صغار يبولون . (دهش كليما من أن طفلاً يبول كان حجة لا تقاوم لإنجاب الأطفال . ومرة رأى جريدة السينما وهى تعرض ولداً صغيراً حيياً يبول بسعادة ، فحفّت صالة السينما أجمعها بتنهدات نسوية سعيدة).

بعد انتظاره لحظة، قرر كليما أن يطرق باب حجرة الفحص . برزت رأس ممرضة ، فذكر كليما اسم د. سكريتا . ظهر الدكتور بعد عدة لحظات ، وسلم كليما استمارة ليملأها، ثم طلب منه أن يتمهل لحظة أخرى.

أسند كليما الاستمارة على الحائط وبدأ تسديد المعلومات المطلوبة : الاسم، تاريخ الميلاد، مكان الميلاد . ساعدته روزينا . ثم وصل لسطر به : (اسم الأب) . فأجفل. اضطرب وهو يرى هذه المقولة المخزية أمامه بالأسود والأبيض ، وأن يوقع باسمه عليها .

شاهدت روزينا يد كليما ولاحظت أنها ترتعش ، منحها ذلك راحة كبرى ، قالت «ها ، اكتب!» .

«اسم من أكتبه؟» همس كليما .

وجدته جباناً ورعديدا ، فامتلأت بالاحتقار له . كان يخاف من كل شيء، يخاف من المسئولية ، ويخاف حتى من مجرد توقيع اسمه .

قالت «ماذا تقصد؟ أعتقد أنه واضح تماماً الاسم الذى يجب أن تسجله » .

قال كليما«كنت أظن أنه لا يهم» .

وهو لم يعد يهمها كذلك ، فقد كانت مقتنعة تماماً بأن هذا الرجل الجبان قد جرحها؛ وأسعدها أن تعاقبه. قالت «إن كنت ستتحول إلى كاذب، فمن الأفضل لك ولى أن نفض شركتنا» ، وبعد أن وقع باسمه أضافت بحسرة : «لست متأكدة تماماً ماذا يجب علىّ أن أفعل ، عموماً...»

«ماذا تقصدين؟».

نظرت إلى وجهه المرتعب . «حتى يخلصوننى منه ، لاتزال عندى فرصة لتغيير رأيى».

(٨)

كانت تجلس فى كرسى فوتيه ، تمدد ساقيها على مائدة ، وهى تحاول أن تقرأ قصة بوليسية اشترتها لأجل إقامتها المملة المتوقعة فى النبع. لكنها لم تستطع التركيز فى الكتاب، لأنها لا تزال تفكر فى الكلمات والأحداث التى دارت الليلة السابقة. سرها كل شيء قد حدث ، وكانت سعيدة بشكل خاص من نفسها . وأخيراً استدارت إلى الشخص الذى أرادت دائماً أن تكونه : ليس ضحية رغباتها

للذكور، بل خالق تاريخها الخاص . كانت تنبذ تماماً دور الوصي البرىء، الذى خصصه لها چاكوب ؛ بل على العكس، فقد حولت چاكوب لينسجم مع رغباتها الخاصة.

تفكر الآن فى نفسها كشىء رائع ، مستقل ، جرىء . تأملت ساقيها الممدودتين على المائدة، محبوكتين فى چينز ضيق ، وحينما سمعت طرقاً على الباب ردت بمرح : «ادخل، أنا فى انتظارك!».

دخل چاكوب ، يبدو تعساً .

قالت : « مرحباً! » ، وهى تأخذ وقتها قبل تغيير وضع ساقيها . بدا چاكوب مرتبكا، وأسعدها هذا . نهضت وقبلته بخفة على خده . «هل تبقى قليلا»؟

«لا» رد چاكوب بصوت حزين . « هذه المرة وداع حقيقى . سأرحل خلال وقت قصير . أظن يجب أن أسير معك إلى الحمامات للمرة الأخيرة».

قالت أولجا «جميل» بابتسامة مبتهجة «وسأستمتع بنزهة قصيرة».

(٩)

امتلأ چاكوب إلى الحافة بالصورة الجميلة لمسز كليما . إن قضاء الليلة مع أولجا قد تركه فى اضطراب وحيرة، وكان عليه أن يتغلب على نفوره من أن يجئ لتوديعها. لكنه لن يكشف عن هذه المشاعر لصالح أى شىء فى هذا العالم. أخبر نفسه بحاجته للتصرف فى لباقة غير عادية، ولا يجب أن ينالها أى تلميح بمقدار المتعة والبهجة القليل الذى وجده فى ممارستها للحب . لن يسمح لأى شىء بإفساد ذكراها عنه . فارتدى قناعاً جاداً ، وبسط أكثر العبارات اعتياداً فى نبرة حزينة ، بينما ظل يلمس ذراعها ، ويدلك شعرها، وحين نظرت له فى عينيه حاول أن يسبغ عليها تعبيراً مكتئباً بقدر الإمكان.

اقترحت أن لازال لديهما وقت للركون فى أحد الأماكن واحتساء بضع كاسات من النبيذ، لكن چاكوب أراد أن يجعل وداعهما قصيرا قدر المستطاع لأنه وجد هذا تجربة بالية . قال «القيام بالتوديع شىء محزن . ولا أريد الإطالة فيه».

حين وصلا لمدخل الحمامات تناول كلتا يديها وحدق عميقاً فى عينيها.

قالت أولجا : «كان لطيفاً منك أن تجىء لترانى، ياچاكوب . الليلة الماضية كانت بديعة. وأنا سعيدة أنك قد كففت أخيراً عن تمثيل دور أبى وعدت إلى چاكوب. كان شيئاً فظيعاً، هه. ألم يكن فظيعاً؟».

فهم چاكوب أنه لا يفهم شيئاً . هل من الممكن أن هذه الفتاة الحساسة قد اعتبرت ممارسة الحب فى الليلة الماضية مجرد تسلية؟ وأن حافزها لديها هو فرط الحسية، دون أية مشاعر؟ أن الذكرى السارة لليلة حب واحدة تفوق حزن عمر كامل من الانفصال؟

قبّلها . تمنت له رحلة سعيدة ثم استدارت إلى بوابة الحمامات العريضة.

(١٠)

كان يعدو جيئه وذهاباً أمام العيادة لمدة ساعتين تقريباً ، وقد نفد صبره. وكان يذكر نفسه دائماً بأنه لا يجب أن يختلق إشكالاً، لكنه أحس أن طاقته على التحكم الذاتى توشك أن تنتهى.

دخل المبنى . النبع مكان صغير وكل امرىء يعرفه . سأل البواب إن كان رأى روزينا . أومأ البواب قائلا إنها قد ارتقت المصعد. كان المصعد يتوقف فقط فى الدور الأعلى، الرابع، أما الطابقان السفليان فهما موصولان بسلم . تمكن فرانتا من تضييق نطاق بحثه على الممرات فى الدور الرابع . على أحد الجانبين مكاتب، أما الجانب الآخر فقد كان يشغله عيادة أمراض نساء . سار فى الممر الأول (حيث

لا وجود لذيل إنسان)، ثم فتش بعدها فى الممر الثانى، ولديه إحساس حزين أن الرجال لا يرحبون بمقدمه هنا. رأى ممرضة وجهها مألوف لديه فسألها عن روزينا. أشارت إلى باب فى نهاية الصالة. كان مفتوحاً ، ويتجمع عدد من الرجال والنساء حوله . دخل فرانتا، فرأى المزيد من النساء يجلسن بالداخل ، لكن عازف البوق وروزينا لم يكونا هناك .

«هل رأيت بالصدفة امرأة شابة، شقراء؟»

أشارت امرأة لباب المكتب : «لقد دخلا».

قرأ فرانتا (مامي، لماذا لا ترغبين فى مجيئى ؟) ورأى الملصقات الأخرى بصور الأطفال الباسمين والأولاد الذين يبولون . صار الأمر واضحاً لديه كالشمس.

(١١)

وسط الحجرة يشغله منضدة طويلة. جلس كليما وروزينا فى صف واحد، وقبالتهما د. سكريتا محصوراً بين سيدتين فى وسط العمر، ضخمتين.

حدق د. سكريتا فى طالبى الكشف وهز رأسه بلمحة من الاعتراض . «حين أنظر إليكم أمرض من أعماق قلبى . هل عندكم أدنى فكرة عن قدر المتاعب التى ننالها ، ونحن نحاول استعادة الخصوبة للنساء الراغبات فى الإنجاب؟ وها أنتم هنا – ناس أصحاء ، ناضجون، شباب – وترغبون طوعاً فى التخلى عن أثمن شىء فى الحياة. وأريده أن يكون واضحاً لديكم أن الغرض من هذه المهمة ليس تشجيع عمليات الإجهاض بل تنظيمها».

دمدمت المرأتان البدينتان بالموافقة واستأنف د. سكريتا دهشته من طالبى الكشف . كان قلب كليما يدق. خمن أن تعليقات د . سكريتا لم يكن هو المقصود

بها بل أفراد العملية زميلتيه الاثنتين ، الكارهتين للنسوة الشابات اللاتى ينشدن الإجهاض بكل الطاقة المهيبة فى بطونهن الأمومية . لكن كليما كان مفزوعاً خشية أن تلين هذه الكلمات من عزم روزينا . ألم تلمح منذ قليل بأنها لم تتخذ قرارها بعد؟

واصل د. سكريتا «لأجل أى شىء تريدون مواصلة الحياة؟ فإن الحياة بدون أطفال مثل شجرة دون أوراق . ولو كانت عندى السلطة لكنت منعت عمليات الإجهاض بتاتاً. ألا يعنيكما أن معدل نمو السكان عندنا فى هبوط سنة بعد سنة؟ وليس هناك من بلد فى العالم يولى عناية بأمهاته وصغاره أكثر من هنا! وليس هناك طفل حديث الولادة فى أى بلد فى العالم يؤمن على مستقبل آمن أكثر من هذا!».

غمغمت المرأتان مرة أخرى بالموافقة وواصل د. سكريتا : «صديقنا هذا متزوج وهو قلق الآن من تحمل عواقب هذا الاتصال الجنسى غير المسئول . لكنكما قد فكرتما فى هذا من قبل، يارفيقتىّ ! »

سكت د. سكريتا لحظات قليلة ، بعدها استدار ثانية إلى كليما : «ليس عندك أطفال . والآن قل لى بأمانة : ألم يخطر لك أن تسأل نفسك إن كان بالإمكان أن تطلق زوجتك ، لصالح هذا الطفل الذى لم يولد بعد؟».

رد كليما «مستحيل» .

تنهد د. سكريتا «أعرف ، أعرف . لقد استلمت تقريراً نفسياً عن الأثر الذى ستعانيه مسز كليما من نزعاتها الانتحارية . فإن ميلاد هذا الطفل سوف يعرض حياة امرىء للخطر، ويدمر زيجة ، ويخلق مشكلة أخرى لدى امرأة غير متزوجة أصلا . ماذا نفعل؟» تنهد مرة أخرى ، ثم أمسك قلماً ووقع الاستمارة، ثم دفع بها نحو البدينتين ، واللتين تنهدتا كذلك ثم وقعتا باسميهما فى أسفل الاستمارة.

«تحددت إجراءات تنفيذ العملية يوم الاثنين الأسبوع القادم في الثامنة صباحاً» أعلن هذا د. سكريتا، ثم أومأ لروزينا أنها حرة في المغادرة.

استدارت إحدى البدينتين إلى كليما «ابق أنت هنا لحظة». وبعد أن غادرت روزينا، قالت: «الإجهاض ليس أمراً سهلاً كما تتخيل. فهو يشتمل على نزف دم كثير. ومن خلال انعدام مسئوليتك فسوف تسلب الزميلة روزينا دمها، ومن العدل فحسب أن تدفع مقابله». ودفعت باستمارة ما أمام كليما قائلة: «وقع هنا».

أطاع عازف البوق ذاهلا.

«هذا طلب للتبرع بالدم طواعية. فاذهب للحجرة التالية وسوف تتبرع بدمك على يد الممرضة هناك الآن».

(١٢)

مرت روزينا وهي تسرع من حجرة الانتظار بعينين حزينتين ولم تر فرانتا حتى صاح عليها في الممر:

«ماذا كنت تفعلين هناك؟»

ارتعبت من نظراته الملتهبة فسارت أسرع.

«إني أسألك ماذا كنت تفعلين هناك»؟

«ليس هذا شغلك».

«أعرف ماذا كنت تفعلين!».

«لو كنت تعرف فلماذا تسأل».

كانا ينزلان على السلالم بينما تسرع روزينا، تريد الزوغان من فرانتا وحديثه.

«ذلك لإجراء عملية إجهاض. أعرف. وتريدينهم أن ينزلوا الطفل!».

«سأفعل ما يحلو لى».

«لن تفعلى ما يحلو لك ! فأنا متورط ، أيضاً».

كانت روزينا مندفعة، تجرى تقريباً، وفرانتا خلفها مباشرة . وحين وصلا لبوابة الحمامات، قالت له : «ألا تكف عن متابعتى . فأنا فى عمل ، ولا تضايقنى الآن».

فرانتا كان مستثاراً : «ألن تخبرينى ماذا ستفعلين!»

«ليس لك الحق فى مضايقتى!»

«وليس لك الحق فى صدّى!»

اندفعت روزينا إلى المبنى، وفرانتا ملتصق بكعبيها.

(١٣)

كان چاكوب سعيداً أن انتهى الأمر ويبقى شىء واحد فقط له كى يفعله : أن يودع سكريتا . وبطيئاً ، بدأ سيره عبر الحديقة إلى ماركس هاوس .

ومن الاتجاه المضاد ، على طول متنزه الحديقة العريض ، جاءت مجموعة من صبيان المدارس ، حوالى عشرين ، بقيادة معلمتهم . بيدها نهاية حبل أحمر، وكان الأطفال يسيرون فى صف واحد ، وهم ممسكون بالحبل . كانوا يسيرون الهوينى ، وتشير لهم المعلمة نحو شجيرات وأشجار متنوعة . توقف چاكوب ، لأنه لم يدرس العلوم الطبيعية ولا يتذكر بالمرة شكل جار الماء أو شجر البتولا.

قالت المعلمة «هذه شجرة الزيزفون» ، وهى تشير لشجرة مصفرة، مدغلة.

تفحص چاكوب الأطفال . كلهم يرتدى معاطف زرقاء وكابات حمراء. يبدون مثل إخوة وأخوات صغار . أنعم البصر فى وجوههم وبدا له أنهم يشبهون بعضهم البعض ليس فقط فى الملبس بل فى الملامح أيضاً. وهناك سبعة على الأقل تميزهم أنوف كبيرة وأفمام عريضة . يبدون على شاكلة د. سكريتا.

استدعى ذلك طفل حارس النزل كبير الأنف . هل من المحتمل بأن حلم تحسين النسل لدى سكريتا كان أكثر من مجرد خيال؟ أن هذه المنطقة قد عمّرها بالسكان فعلاً ذلك الأب الأكبر ، سكريتا؟

وجد چاكوب هذه الفكرة عبثية . فإن هؤلاء الأطفال متشابهون لأن كل الأطفال فى العالم متشابهون.

لكن الفكرة عاودته ثانية: افترض بأن سكرتيا قد أحال فعلاً خطته الغريبة إلى واقع ؟ فماذا سيمنع مثل هذا المخطط الشاذ أن يتحقق ؟

«وتلك الشجرة التى هناك، ماذا نسميها؟»

«الخيزران!» جاوب سكريتا صغير . نعم، كان سكريتا بقضه وقضيضه، لم يكن بأنف كبير وحسب، بل ويرتدى نظارة وله ذلك الصوت الحاد الذى يجعل كلام صديق چاكوب مؤثرا بشكل كوميدى.

قالت المعلمة «صح، أولدا !» .

خطر لچاكوب أنه خلال عشر أو عشرين سنة فسوف يسكن البلاد آلاف من نوعية سكريتا . وقد غمره مرة أخرى إحساس غريب أنه يعيش في وطنه دون أن تكون لديه أدنى فكرة حقيقية عما كان يحدث . لقد كان يعيش ، كما يقولون ، فى مركز الأحداث ، وشارك فى الحوادث الجارية . كان يشتغل بالأمور السياسية وكلفه ذلك حياته بالفعل . وحتى بعد أن طردوه، فقد واصل مع التطورات السياسية . كان يفكر دائماً أنه يستمع إلى دقات قلب بلاده . ولكن ما الذى كان يسمعه حقا ؟ نبض الأمة؟ قد تكون ساعة ، منبه قديمة، منبه قديم مهجور، يقيس الوقت المغلوط . ألم تكن كل هذه الكفاحات السياسية مجرد وهم كان يصرفه عما هو مهم فعلاً فى الحياة ؟

قادت المعلمة صغارها تحت إمرتها قدما عبر دروب الحديقة بينما لم يستطع چاكوب التخلص من صورة المرأة الجميلة بعيداً عن باله . ظلت ذكرى جمالها

تعذبه بأسئلة مستعادة: أكان يعيش فى عالم مختلف كلية عما كان يفترض ؟ هل كان يرى كل شئ بالمقلوب؟ افترض بأن الجمال كان يعنى ماهو أكثر من الحقيقة، افترض أنه كان بالفعل ملاكا وقد جلب لبرتلف زهرة داليا؟

ثم سمع صوت المعلمة «وما هذه ؟»

«شجرة قيقب» جاوب سكريتا مصفر، ذو عوينات.

(١٤)

جرت روزينا تصعد السلالم ، وهى تحاول ألا تنظر من كتفها للوراء . صفقت الباب المؤدى لشقتها وأسرعت لغرفة الملابس ، أسدلت معطف التمريض الأبيض على جسمها العارى ، ثم خرجت منها آهة ارتياح عميقة . إن بغضها لفرانتا قد أزعجها، رغم أنه بطريقة غريبة قد طهرها من القلق . بدا كل من فرانتا وكليما ، الآن ، بعيداً وغير مألوف.

خطت إلى الصالة المصطفة بالأسرّة التى تستريح عليها النسوة المريضات بعد حمامهن . كانت زميلتها متوسطة العمر تجلس على منضدة قرب الباب . قالت ببرود «هل وافقوا على العملية؟»

قالت روزينا «نعم، بفضل التوسط» وهى تستبق لفرش المريضة التالية بمفتاح دولابها وملاءتها النظيفة.

لم تكد ترحل المرضة الأكبر سناً حتى فتح الباب وأطلت رأس فرانتا .

«غير صحيح أن هذا ليس من شغلى ! فهو يخص كلاً منا . ولدى شئ آخر أقوله لك، أيضاً !»

«امش !» هسهست له. «هذا قسم النساء! امش الآن وإلا سأجعلهم يطردونك!»

توهج فرانتا من الغضب وأحنقه تهديد روزينا كثيراً حتى أنه أقحم نفسه فى الحجرة ثم صفق الباب. «لا يهمنى ما ستفعلين ! لا يهمنى أبداً !» هكذا صاح.

قالت روزينا «أقول لك يجب أن تخرج من هنا على الفور !» .

«إنى أدرك مساعيك ! كله من جراء ذلك الوغد ! نافخ البوق! هى مهزلة بطبيعة الحال، مجرد عملية شد وجذب ! لقد هيأ الأمر مع ذلك الطبيب، فهما زملاء بفرقة چاز كبيرة! لكنى أعى الأمر كله ولن أدعك تقتلين طفلى ! فأنا الأب ولدى ما أقوله! وأنا أمنعك من قتل طفلى!»

كان فرانتا يصرخ بينما تتقلب المريضات تحت بطانياتهن وهن يرفعن رؤوسهن من الفضول.

صارت روزينا مستثارة للغاية، لأن فرانتا قد خرج عن طوره ولم تعد تعرف كيف تتحكم فى الموقف.

قالت «ليس طفلك على الإطلاق» ، «وأنا لا أعرف من أين جاءتك هذه الفكرة . فهو لا يخصك أبداً»

«ماذا ؟» ناح فرانتا ، ثم تقدم أكثر فى الحجرة ، خطا يحاذى المنضدة ثم صار وجها لوجه مع روزينا «ليس طفلى ؟ ماذا تقصدين بحق الجحيم ؟ أعرف باللعنة أنه لى !»

عند هذه اللحظة خرجت امرأة من الحمام ، عارية وتقطر ماء ، وكان من المفترض أن تجففها روزينا ثم تضعها فى الفراش . أجفلت المريضة حين فوجئت بفرانتا، والذى كان يقف على بعد عدة خطوات منها ، يحملق فيها بعينين لا تريان.

الآن، تم إنقاذ روزينا. فقد وثبت إلى المرأة ، ألقت عليها بملاءة ، ثم قادتها للفراش.

سألتها المريضة «ماذا يفعل هذا الرجل هنا ؟» ، وهى تنظر ثانية على فرانتا.

قالت روزينا «مجنون! مجنون هائج فعلا ولا أعرف كيف أطرده من هنا . لا أعرف بالضبط ماذا ينبغى أن أفعل معه» ، وهى تلف المريضة فى بطانية دافئة.

«أنت يا أستاذ !» نادت عليه امرأة أخرى كانت ترتاح «ليس لديك شغل هنا ! اخرج !»

رد فرانتا محنقا «بل عندى شغل هنا» ، وهو يرفض أن يتزحزح . حين رجعت روزينا ، لم يكن متوهجاً بل شاحباً . تحدث بهدوء ، مصمماً: «سأقول لك شيئاً: إن تركتهم يجهضونك، فسوف يدفنوننى فى الوقت نفسه . لو قتلت ذلك الطفل فسوف تجرمين بحق حياة شخصين»

تنهدت روزينا وهى تفتح درج منضدتها. كان فيها حقيبة يدها بأنبوب الحبوب الزرقاء الباهته . هزتها لتسقط واحدة فى راحة يدها ثم ألقت بها إلى فمها.

لم يعد فرانتا يصرخ بل يلتمس: «أرجوك، يا روزينا. أرجوك . لا أستطيع الحياة من غيرك . سأقتل نفسى».

عند هذه اللحظة شعرت روزينا بغصة من الألم فى معدتها وكان فرانتا يرقب وجهها وهو يتشوه من الكرب، صار غير معروف ، عيناها تحدقان عمياوين، ورآها تتلوى ، تضغط يديها على بطنها، ثم تسقط على الأرض فجأة.

(١٥)

كانت أولجا ترش الماء حولها فى الحمام وفجأة سمعت ... ماذا سمعت بالفعل؟ صعب أن تقول . امتلأت الصالة فجأة بالفوضى . صعدت النسوة حولها من الحمام ثم انضممن إلى الحجرة الملحقة ، والتى يبدو أنها استحالت إلى دوامة

تشفط كل شئ إليها . وجدت أولجا كذلك نفسها مأخوذة بالدفع الذى لا يقاوم ، ودون تفكير، يقودها الفضول المتوتر فحسب، فتبعت الأخريات .

رأت قرب الباب جمعاً من النساء . كانت ظهورهن لها، عارية ومبتلة ، ينحنين بمؤخراتهن بارزة فى الهواء . ورأت شاباً يقف على أحد الجوانب.

جاءت نساء عاريات أكثر ينضغطن فى الحجرة وحينما اقتربت أولجا أكثر رأت الممرضة روزينا راقدة دون حراك على الأرض . سقط الشاب فجأة على ركبتيه بالقرب منها وهو يصرخ: «قتلتها ! أنا! أنا القاتل!»

كانت النسوة يقطرن ماءً. انحنت إحداهن على جسم روزينا المنبطح وحاولت أن تجس نبضها . لكن هذه اللمحة كانت عبثاً ، لأن الممرضة ماتت ولم يعد أحد يشك فى ذلك . انضغطت أجسام النساء العارية المبتلة للأمام بنفاد صبر كى يلقين نظرة حميمة على الموت، كى يشهدن وجوده على وجه مألوف.

لازال فرانتا راكعا على الأرض . ألقى ذراعيه حول روزينا ثم قبّل وجهها .

بدت النسوة على وشك الوقوع فوقه . رفع فرانتا بصره عليهن وكرر: «أنا قتلتها ! امسكونى!»

قالت واحدة: «لنفعل شيئاً!» وجرت أخرى إلى الصالة وبدأت تصرخ فى طلب النجدة . جاءت اثنتان من زميلات روزينا تجريان، تبعهما طبيب فى معطف أبيض.

عند ذلك فقط خطر لأولجا أنها عارية ، وأنها كانت مدفوعة وسط نساء أخريات عاريات ، أمام رجلين غريبين ، شاب وطبيب . أدركت عبث الموقف . لكن عرفت أولجا كذلك أن هذا الإدراك لن يغير من الأمر شيئا ، وأنها ستواصل الدفع وشق طريق بمرفقها لوهلة أخرى كى تحدق فى الموت، وهو ما فتنها وكان يسحرها .

أمسك الطبيب برسغ روزينا فى محاولة يائسة كى يحس نبضها، بينما ظل فرانتا يكرر: «أنا قتلتها . هاتوا البوليس . امسكونى» .

(١٦)

لحق چاكوب صديقه وهو يعود لمكتبه من العيادة . امتدح أداء سكريتا على الدرامز واستماحه عذراً حيث لم ينتظر ما بعد الحفل.

قال د. سكريتا «آسف على رحيلك المبكر» ، «كان الأمس هو يومك الحافل الأخير هنا ويعلم الله أين ستعتكف بنفسك . لدينا أشياء كثيرة لمناقشتها . وأسوأها أن قد تقضى وقتك مع تلك الفتاة المهزولة . إن العرفان بالجميل شعور خطير.»

«ماذا تقصد ، بعرفان الجميل؟ لماذا ينبغى أن أحس بعرفان الجميل نحوها؟»

«كتبت لى أن أباها كان فى منتهى العطف معك»

لم يكن لدى سكريتا فى ذلك اليوم أى ساعات للمكتب وكانت طاولة الفحص التناسلى تلوح مهجورة بظهر الحجرة . أراح الصديقان نفسيهما فى كرسيين من الفوتيه.

«لا، لا تستطيع أن تفعل شيئا مع عرفان الجميل» استأنف چاكوب «أريد منك أن تأخذها تحت جناحك وأبسط شئ خطر على بالى هو أن أقول إننى مدين بعنقى لوالدها . لكن الحقيقة بالفعل مختلفة تماماً . وأنا أسدل الستار الآن على ذلك الجزء من حياتى ، ولهذا أحكى لك القصة الحقيقية . فقد أرسلونى للسجن بمباركة كاملة من أبيها . وحقاً ، فكر والدها بالفعل أنه سيرسلنى إلى حتفى . وبعد ستة أشهر أعدموه هو نفسه ، بينما كنت محظوظاً ونفذت برقبتى.»

قال د. سكريتا «بعبارة أخرى ، كانت ابنة ذلك النذل» .

استهجن چاكوب «كان يعتقد أننى عدو الثورة . كل الناس قالت ذلك عنى ، وهو صدّقه»

«إذن لماذا قلت لى إنه كان صديقك؟»

«تصادقنا مرة . وذلك كان السبب فى افتخاره بضم صوته معهم للحكم على . وبرهن هذا على أنه يضع المثاليات فوق الصداقة . وعندما وصمنى بخيانة الثورة ، كان يظن أنه يُخضع اهتماماته الشخصية لشئ أعلى ، واعتقد بأن هذا هو أفضل تصرف له فى حياته»

«وذلك كان السبب فى أنك تحب هذه الفتاة البشعة ؟»

«ليس لها يد فى ذلك . فهى بريئة»

«هناك آلاف من البريئات الأخريات. ولأنك اخترت هذه الاستثنائية فقد يكون لأنها ابنة أبيها».

هز چاكوب كتفيه، فواصل د. سكريتا: «هنالك نفس الخط المنحرف فيك كما كان فيه. ويبدو لى بأنك، أيضا ، تعتبر صداقتك مع هذه الفتاة أفضل تصرف فى حياتك. فأنت تنكر كرهك الطبيعى، وتقمع نفورك الطبيعى، لمجرد أن تثبت لنفسك كم أنت نبيل. هذا مؤثر، لكنه أيضا غير طبيعى وغير ضرورى بالمرة».

واجهه چاكوب « أنت مخطىء. وأنا لا أريد أن أقمع أى شىء وليس عندى أوهام بخصوص نبلى. ببساطة ، كنت أحس بالأسف عليها. بمجرد أن وضعت عليها عينىّ فهى كانت مجرد طفلة حين طردوها من بلدتها الأم ، وكانت تعيش مع أمها فى قرية جبلية حيث يخشى الناس من أى تصرف يفعلونه معهم . ومنعت من الدراسة لفترة طويلة ، رغم أنها كانت موهوبة . ومن المفزع حقاً أن نضطهد أطفالاً بجريرة آبائهم السياسية . هل كان من المفترض ، كذلك ، أن أكرهها بسبب من أبيها ؟ كنت أحس بالشفقة عليها. أسفت لها لأنهم قتلوا أباها ، وأسفت لها لأن أباها وجد أنه ضرورى أن يرسل رفيقا إلى حتفه».

رن التليفون. رفع سكريتا السماعة وأنصت. بدا متوترا وقال: «أنا مشغول

بالفعل الآن . هل تحتاج لى حقاً ؟» وبعد سكوت آخر قال: «آه، طيب . أنا قادم.»وضع السماعة وهو يدمدم بشتمة.

قال چاكوب «إذا كان وراءك عمل، فلا تدعنى أقيم ، فإنى على وشك الرحيل بأية حال» ، وهو ينهض من كرسيه.

قال سكريتا «اللعنة» ، «لم ننل فرصة للكلام عن أى شىء. هناك ما أريد أن أناقشه معك اليوم، والآن فقدت الخيط . كان شيئا مهما، كذلك. كنت أفكر فيه منذ الصباح. هل عندك فكرة عما قد يكون؟».

قال چاكوب «لا.»

«اللعنة. وهم يريدوننى الآن فى الحمام العمومى ... »

«هذه أفضل طريقة للوداع. بالضبط فى منتصف الحوار» قال چاكوب، وهو يضغط يد صديقه.

(١٧)

كان جسد روزينا مسجى فى حجرة صغيرة تحجز عادة للأطباء فى المناوبة الليلية. يحوم كثير من الناس حول الحجرة، وصل مفتش شرطة تواً، كان يحقق مع فرانتا، ويدوّن أقواله. والتمس فرانتا مرة أخرى أن يقبضوا عليه.

سأله المفتش «هل أنت الذى أعطاها الحبة؟» .

«لا.»

«إذن كف عن القول بأنك قتلتها».

قال فرانتا «كانت تهدد دائما أنها ستقتل نفسها.»

«لماذا؟»

«قالت إنها ستقتل نفسها إن لم أكف عن ملاحقتها. قالت لا تريد الطفل، والأفضل من أن يكون لديها طفل أن تقتل نفسها أولاً»

دخل د. سكريتا . تبادل تحية طيبة مع المفتش ثم خطا مباشرة إلى الفتاة الميتة، رفع جفنها ثم فحص الغشاء المبطن للجفن.

سأله المفتش «دكتور، كنت المشرف على هذه المرضة؟».

«نعم».

«هل تظن بأنها كانت تستخدم سما متاحا بمهنتك؟»

استفسر سكريتا عن تفاصيل وفاة روزينا. ثم قال: «لايبدو أنه شبيه بأى دواء يمكنها تناوله من مكتبنا. لابد وأنه نوع من المركبات شبه القلوية. والذى يتقرر عادة عند تشريح الجثة».

«كيف تحصلت على مثل هذا الدواء؟».

«إن أشباه القلويات مواد تستخرج من نباتات معينة. وليس عندى أدنى فكرة عما كيف تحصلت على مستحضر شبه قلوى».

قال المفتش «يبدو كل شيء ملغزاً» ، «حتى الحافز على ذلك . لقد شرح هذا الشاب أنها حامل بطفل منه هو وأنها كانت تخطط لإجراء عملية إجهاض».

صرخ فرانتا «هو الذى جعلها تفعل هذا!».

سأله المفتش «من؟» .

«عازف البوق ! كان يريد إبعادها عنى، وقد أجبرها على التخلص من طفلى! كنت أتابعهما. لقد قدما طلبا لإجراء عملية الإجهاض!».

قال د. سكريتا «وأستطيع أن أؤكد هذا» ، « اليوم ناقشنا هذه المرضة بالفعل فى طلب الإجهاض».

سأله المفتش « وكان ذلك العازف معها؟»

قال سكريتا «نعم» ، «وضعت المرضة روزينا اسمه كأب لطفلها».

صرخ فرانتا «هذا كذب! الطفل منى أنا!».

قال د. سكريتا «لا أحد يشك فى هذا» ، «لكن كان على الممروضة روزينا أن تضع اسم أب متزوج بالفعل، حتى توافق اللجنة على إجراء عملية الإجهاض».

«إذن أنت تعرف بأن هذا كله محض كذبة قذرة!» صرخ فرانتا فى د. سكريتا.

«طبقا للقانون ، فإن المرأة لها القول الفصل. أخبرتنا روزينا أنها تحمل طفلاً من كليما، وكليما وافقها، فليس من حق أحد أن يتحدى قرارها».

«لكنك لاتصدق الادعاء بأبوة السيد كليما؟» سأله المفتش.

«لا.»

«كيف توصلت إلى هذا القرار؟»

«بالإحصاء، زار السيد كليما نبعنا هذا مرتين فقط، وفى كل مرة كانت زيارته قصيرة. وليس من المحتمل أبداً أن يكون قد حدث اتصال حميم بينه وبين روزينا. فإن نبعنا صغير للغاية وليس صعبا على أخبار من هذا النوع أن تظل سرية لوقت طويل . كما من المحتمل أكثر، أن أبوة السيد كليما المزعومة هى مجرد تمويه، وأن الممرضة روزينا قد أقنعت السيد كليما بأن يتفق معها حتى تمنحها اللجنة الموافقة على الإجهاض . وكما قد تخمن، فإن هذا الرفيق المتواجد هنا سيكون متعاوناً بصعوبة.»

لم يعد فرانتا يتابع كلام سكريتا. صار عقله خلاء، ظل فقط يستمع إلى كلمات روزينا : «ستدفعنى للانتحار، ستدفعنى إليه بالتأكيد». وكان مقتنعا أنه سبب وفاتها، رغم أنه لم يفهم تماماً لماذا، ولم يخرج بإحساسه عن ذلك كله. كان يقف كبدائى وجها لوجه أمام معجزة، مثل رجل أذهلته أحجية، فصار أبكم وأصم لأن حواسه لم تعد قادرة على تلمّس شئ يصعب فهمه.

(فرانتا البائس ، لسوف تمضى فى حياتك دون فهم ، ستعرف فحسب أن حبك قد قتل امرأة تحبها ، لسوف تمضى بعلامة سرية من القدر على جبينك ، قابيل الذى لا يعى، رسول الكارثة) .

كان شاحباً ، فى جمود كعمود من الملح ، ولم يلحظ رجلاً قد دخل الحجرة وهو منفعل ، اقترب من الفتاة الميتة ، وحدق فيها طويلا ، ثم مسد شعرها .

همس د . سكريتا : «انتحار ، سم.»

أدار الرجل الذى وصل حديثاً رأسه بحدة «انتحار ؟ أعرف من كل روحى وقلبى أن هذه المرأة لم تتحمل حياتها . فلو أنها ابتلعت السم فيجب أن نعتبر هذا جريمة قتل» .

نظر المفتش إلى الرجل فى اندهاش . كان برتلف ، بعينين تشتعلان بنار حانقة .

(١٨)

أدار چاكوب مفتاح التشغيل ثم قاد مسرعاً . واجتاز على الفور آخر ڤيلات النبع فوجد نفسه فى خلاء ريفى . كانت الحدود على مبعدة أربع ساعات ، ولم تكن لديه الرغبة فى الاستعجال. إن معرفته بأنه لن يرى هذه البلاد مرة أخرى جعلت الأرض تتخذ وضعية أثيرة . بدا له أنه لم يتعرف عليها ، وأنها تختلف عن الطريقة التى يتذكرها عليها ، ومن الأسى أنه لن يمكث طويلا بعد .

هذا وقد أدرك أن تأجيل رحيله ، ولو ليوم أو سنة ، لن يبدل من الأمر شيئاً ، فهو لن يعرف البلاد أكثر حميمية من هذا ، مهما طالت المدة التى يبقاها . لابد أن يكون فى سلام مع الحقيقة المحزنة بأنه يغادر موطنه دون أن يتعرف عليه ، دون

أن ينتفع من كل ما يمكن أن تقدمه له ، وأنه كالمدين الذى لم يف بالتزاماته أو كالضامن الذى فشل فى تسديد دينه .

ثم فكر فى الفتاة التى أعطاها السم الزائف وقال لنفسه إن مهمته كقاتل كانت أقصر مهمة فى حياته . وابتسم : كنت قاتلاً لمدة ثمانى عشرة ساعة .

ثم رد على نفسه ذهنياً : لا ، ليس صحيحاً أنه كان قاتلاً ولو لمجرد زمن قصير – فهو مازال قاتلاً ، ولسوف يظل على هكذا لباقى عمره . لأنه ليس مهماً إن كانت الحبة الزرقاء الباهتة تحتوى على سم حقيقى أم لا ، ما يعنيه أنه كان مقتنعاً بقوتها المميتة وقد سلمها لغريبة دون أى محاولة جادة منه لإنقاذها .

فكر ملياً فى ذلك برباطة جأش رجل يعتقد بأن أفعاله ما هى إلا مجرد تجارب بلا أى عاقبة تجر عليها فى العالم الحقيقى .

إن فعلة القتل كانت غريبة لديه : قتل دون واعز . لا شىء تكسبه من جرائه . إذن ما هو الشعور الذى يجلبه ؟ بوضوح ، كان الشعور الوحيد هو أن يجعله يرى نفسه قاتلاً .

القتل كتجربة ، كفعل من وحى ذاته ، هذه قصة شائعة : قصة رسكولينكوف (*) . لقد قتل لكى يجيب على سؤال نفسه : هل للإنسان الحق فى قتل أى كائن بشرى أدنى منه ، وهل هو قوى بدرجة تكفى لتحمله العواقب ؟ القتل كان سؤالاً فرضه على نفسه .

(*) هو بطل رواية (الجريمة والعقاب) لدستويفسكى ، والمعنى الروسى لكلمة رسكولينكوف (المنشق) ولعل دستويفسكى كان يشير به إلى انشقاق بطله عن آراء وتوجهات مجتمعه ، كما كانت التخطيطات الأولى للرواية بعنوان (يوميات رسكولينكوف) . (م)

نعم ، كـان هناك شىء بخـصـوص تصـرف چاكـوب يربطه بشـخـصـيـة رسكولينكوف : فقدان مغزى القتل ، بنوعيته النظرية . لكن هناك فروقاً ، أيضاً : كان رسكولينكوف يتساءل إن كان للشخص غير المدفوع الحق فى التضحية بموجود أدنى لصالح ميزاته الخاصة . لكن حينما سلم چاكوب الأنبوب للممرضة ، لم يكن عنده مثل هذا التفكير فى باله . لم يكن چاكوب مهتماً بالكشف عن السؤال عما إذا كان لأحد الأشخاص الحق فى التضحية بحياة آخر . بل على النقيض ، فقد كان چاكوب مقتنعاً أنه ليس لدى أى امرىء الحق فى ذلك . وفى الحقيقة ، فإن السهولة التى يخول بها رجال كثيرون ونساء لأنفسهم مثل هذا الحق كانت تفزعه . كان چاكوب يعيش فى عالم حيوات الناس فيه مدمرة فعلاً لصالح أفكار مجردة، وقد خبر وجوه هؤلاء الرجال والنساء المتعجرفين : فهى ليست شريرة بل فاضلة ، تتوهج بحماسة أخلاقية أو تشرق برفقة مرحة ، وتعكس وجوههم براءة مناضلة . ولا يزال الآخرون يتميزون بجبن ورع ، وأعذار قاتلة ، رغم معرفتهم أن تنفيذ الإعدامات بحذق فى الناس أمر عنيف وظالم . خبر چاكوب هذه الوجوه وكان يكرهها . وبالإضافة لهذا ، كان چاكوب يعرف أن كل البشر تتمنى سراً موت إحداهم ، ويمنعهم شيئان عن تحقيق رغبتهم : الخوف من العقاب والمصاعب البدنية لارتكاب جريمة قتل . عرف چاكوب أنه لو كان لكل إنسان على وجه الأرض الحق فى القتل سراً وبمعدل واسع ، فلسوف تنقرض البشرية فى ظرف دقائق معدودات . ولهذا كان يعتبر أن تجربة رسكولينكوف غير حيوية بالمرة .

إذن لماذا سلم الممرضة هذا السم ؟ هل كان ذلك مجرد صدفة ؟ عموماً ، قضى رسكولينكوف وقتاً طويلاً وهو يفكر فى خطته ويتجهز لها ، بينما كان يتصرف وفقاً لنزوة لحظة واحدة . وأدرك چاكوب ، أيضا ، أنه كان يتجهز منذ سنين عديدة وهو لا يدرى ، ولحظة أن سلم السم لروزينا صارت كالصدع فى كل

حياته الماضية ، بكل اشمئزازه من الناس ، ويمكن له الإقامة فيه واكتساب المناعة .

حين كان رسكولينكوف على وشك ارتكاب جريمة القتل فى المرابية العجوز، أدرك أنه على حافة عتبة مفزعة ، وأنه تحت إمرة رب خاطىء ، ورغم أن المرأة العجوز كانت مخلوقاً بشعاً ، فهى مع ذلك من صنع الله . لم يشعر چاكوب بمثل رعب رسكولينكوف . فبالنسبة له ، لم يكن الناس من مخلوقات الله . لقد أحب چاكوب النبل والصفاء ، ولكنه تعلم أن هاتين الصفتين ليستا من طبائع البشر. كان يعرف الناس جيداً ، ولهذا لم يحبهم . لقد كان نبيلاً ، ولهذا أعطاهم السم .

إنى أنا القاتل لأنى نبيل الروح ، هكذا قال لنفسه ، وبدا له هذا مضحكاً وحزيناً .

وبعد قتل المرابية العجوز ، لم يتمكن رسكولينكوف من السيطرة على عاصفة التأنيب الجبانة التى انفجرت فى وعيه . بينما چاكوب كان مقتنعاً بعمق أن ليس من حق أى كائن بشرى التضحية بحيوات الآخرين ، ولم يحس بأى غصة ندم على الإطلاق . ومع ذلك فإن المرضة التى سممها كانت مخلوقاً أفضل بكثير من شمطاء رسكولينكوف المرابية .

حاول اختبار نفسه بالادعاء أن المرضة كانت ميتة فعلاً، لا ، وقد فشلت هذه الفكرة أن تشبعه بأى إحساس من الذنب ، فكان چاكوب يسوق بهدوء وسكينة عبر ضواحى الريف المبهجة التى لّحت له بوداع لطيف .

عانى رسكولينكوف من فعلة قتله وكأنه فى مأساة ، وكان يترنح تحت وطأة جريرته . أما چاكوب فقد سره أن يجد جريرته بلا وزن ، سهلة الحمل ، خفيفة كالهواء . وكان يتعجب أن ليس هناك احتمال للرعب فى هذه الخفة أكثر من نوبات الكرب وآلام الالتواء التى عاناها ذلك البطل الروسى .

كان يسوق ببطء ، وهو يقاطع أفكاره بين فينة وأخرى بالتحديق فى مشاهد الطبيعة . قال لنفسه إن دراما الحبة ليست سوى لعبة ، لعبة بدون عواقب ، تماماً مثل حياته كلها ، والتى لم تخلف له أى أثر ، أى جذور ، أى علامة بهذه الأرض - الأرض التى يغادرها الآن مثل نفثة ريح .

(١٩)

كان كليما ينتظر بنفاد صبر مقدم د . سكريتا فى حجرة الانتظار لديه ، بعد أن خف وزنه بمقدار ربع لتر من الدم . لم يرغب فى مغادرة النبع دون وداع الدكتور ودون أن يطلب منه مراعاة روزينا . (حتى يأخذوه بالفعل منى ، فلا يزال بإمكانى أن أغير رأيى) - استمرت كلمات روزينا هذه ترن فى أذنيه وتفزعه . كان يخشى منذ أن تركها ولم تعد روزينا طوع بنانه أن قد تغير رأيها فى اللحظة الأخيرة .

ظهر د . سكريتا أخيراً . اندفع كليما لمصافحته ، لتوديعه ، ولامتداحه على العزف الباهر الذى أداه على الدرامز .

قال د . سكريتا «كانت ليلة جميلة» ، «كنت عظيماً . ليس عندى شىء أفعله أفضل من إقامة حفل آخر مثله بالضبط . وقد نرتب عروضاً فى ينابيع أخرى» .

«أتمنى ذلك ، فلقد استمتعت حقاً بالطريقة التى كنت تسندنى بها !» قالها عازف البوق بحرارة ، وأضاف : «هناك خدمة واحدة أطلبها منك : من فضلك اعتن بروزينا . أخشى أن تزحف فكرة حمقاء إلى رأسها . فإن النساء لا يمكن التنبؤ بأفعالهن» .

قال د . سكريتا «لا شىء سيزحف إلى رأسها فيما بعد ، فلا تقلق» «روزينا ماتت» .

لم يستطع كليما أن يلمح بالضبط ما قصده سكريتا ، وكان على الدكتور أن يشرح ما حدث . ثم قال : «إنه انتحار ، لكن يبدو ملغزاً إلى حد ما . كل الأفكار الغريبة تأتى للناس – وأنت تعرف ، فهى قتلت نفسها بعد ساعة من مثولها أمام لجنة الإجهاض . لكن رجاء لا تهتم». وأمسك عازف البوق من ذراعه حين رآه يترنح . «ولحسن الحظ ، فإن ممرضتنا هذه كان لها شأن مع ميكانيكى شاب ، وهو مقتنع بأن الطفل من صلبه . وأنا أعلنت أنك لم تلتق روزينا بشكل حميم أبداً وأنها تكلمت معك فى أداء دور الأب لأن قوانين اللجنة ترفض الإجهاض إن كان كلا الفردين غير متزوج . فقط أريدك أن تستعد ، فى حالة ما لو سألوك أى أسئلة. فأنا أرى أعصابك متوترة جداً وهذا مما يرثى له . عليك أن تلم شتات نفسك ، فهناك الكثير من الحفلات أمامنا!» .

فقد كليما التعبير كلية ، فقط ظل يضغط على يد د . سكريتا .

وكانت كاميلا تنتظره بحجرته فى رشموند هاوس . احتضنها كليما بشدة ثم بدأ يقبلها بحماسة – على وجهها كله أولا ، ثم ركع أمامها وقبل فستانها لأسفل حتى الحافة.

«ماذا جرى لك ؟»

«لا شىء . فقط سعيد بوجودى معك . سعيد جدا بوجودك هنا» .

حزما أمتعتهما وحملاها إلى السيارة . قال إنه متعب وطلب منها أن تتولى القيادة.

كانا بالسيارة فى صمت . كليما مستنفد ، رغم ارتياحه بدرجة كبيرة . وكانت فكرة التحقيق معه قد أربكته إلى حد ما . خشى أن تعلم كاميلا شيئاً بتلك الطريقة . لكنه ردد لنفسه كلمات د . سكريتا . وحتى لو استفهموا منه ، فلسوف ينتحل دور الجنتلمان البرىء (وهو ما ليس شائعاً فى بلاده) الذى يتظاهر بالأبوة

لخدمة سيدة شابة فقط . لا أحد سيلومه على تصرفه الفروسى هذا ، ولا حتى كاميلا .

نظر إليها . كان جمالها يملأ مساحة السيارة الصغيرة كعطر أخاذ . أحس بفرط السعادة والرضى أن يتنفس مثل هذا العطر حتى نهاية أيامه . واستمع فى خياله لصوت نفير ناعم شارد وقرر أن يعزف فقط لإسعاد هذه المرأة حتى نهاية أيامه ، حبيبته الأثيرة ، حبه الأوحد والوحيد .

(٣٠)

حين جلست وراء عجلة القيادة ، أحست فوراً أنها أقوى وأكثر استقلالاً . لكن فى هذه المرة لم يكن دور السائق هو الذى منحها الثقة بالنفس ، بل كلمات ذلك الغريب الذى قابلته فى ردهة رشموند هاوس . لم تستطع إبعاد هذه الكلمات عن بالها . ولا استطاعت نسيان وجهه ، كان ذكوريا للغاية أكثر من خدى زوجها الناعمين . وصدم كاميلا أنها لم تتعرف بالفعل على رجل حقيقى .

ومن زاوية عينها لمحت طلعة عازف البوق المجهدة ، والتى بدت مرتخية بفعل ابتسامة راضية بشكل ملغز بينما كانت يده تدلك كتفها .

لم يسعدها إفراط الرقة هذا ولا استثارها ، فإن باعثها المحير أكد شكها فحسب من أن عازف البوق كان يحفظ سراً ما بعيداً عنها ، وأنه كان يحيا وجوداً مختفياً منفصلاً يبعدها دائماً عنه . وهذه المرة ، عموماً ، لم تتصرف بألم بل دون مبالاة تامة .

ماذا قال ذلك الرجل ؟ إنه سيغادر إلى الأبد . كان قلبها حزيناً ، بلوعة متمهلة رخية . ليست اللوعة لهذا الرجل فحسب ، بل على الفرصة الضائعة ، لا هذه المرة فقط بل الفرصة بشكل عام . تفجعت على كل الفرص التى أضاعتها ، خسرتها ، لم تبال بها ، وحتى تلك التى لم تكن لها على الإطلاق .

قال الغريب إنه كان يحيا كرجل أعمى ولم يدرك أبداً أن هناك شيئا بمثل هذا الجمال . كانت تفهمه . ألم يكن هذا نفس ما حدث لها ؟ فهى ، أيضا ، كانت تحيا فى عماء. حفظت عينيها على مجرد شخص واحد ، تثيره بذبذبات قوية من الغيرة. فماذا لو انطفأ هذا المشعل الكهربى ؟ هناك آلاف من الشخوص الأخرى سوف تنحو إلى الضوء نهاراً ، وأن الرجل الذى حسبته أعجوبة يستحيل إلى مجرد رقم بين كثيرين ببساطة .

وهى تمسك بعجلة القيادة ، أحست بالثقة فى النفس والجمال ، ثم خطر لها : هل كان هو الحب حقاً ذلك الذى ربطها بكليما - أم أنه الخوف على فقدانه ؟ وحتى لو كان فى البداية ذلك الخوف هو شكل من الحب متوتر ، أفلم يشحب الحب (مجهداً ومستنفداً) ، غير مخلف سوى شكل فارغ ؟ قد يكون كل ما خلفه بها هو الخوف نفسه ، الخوف دون الحب ؟ وماذا كان سيبقى إن هى خسرت ذلك الخوف ؟

بحذائها ، كان عازف البوق يبتسم ثانية لغير ما سبب ظاهرى . لمحته فحكت لنفسها ماذا لو فقدت غيرتها مرة ، فلن يتبقى أى شىء على الإطلاق . اندفعت للأمام ، وعرفت فجأة أنه فى مكان ما بالأمام هناك مفترق طرق . وللمرة الأولى منذ زواجها بعازف البوق ، لم تترك فكرة الانفصال عنه أى قلق مهما كان قدره .

(٢١)

دخلت أولجا شقة برتلف وهى تبرر لنفسها : «من فضلك لا تغضب منى لأنى أقحمت نفسى بهذا الشكل عليك . لكنى فى حالة عصبية لم تجعلنى أحتمل بقائى لوحدى . هل أنت واثق من أنى لن أزعجك؟» .

كان مفتش الشرطة أيضا فى الحجرة ، مع برتلف وسكريتا . أجاب : «لا ، لن تزعجينا . نحن نتقصى أمراً رسمياً ونثرثر فحسب.» .

أوضح د . سكريتا لأولجا «إن المفتش صديق قديم لى» .

«لماذا بحق السماء قد فعلت هذا ؟» .

«كان لديها صراع مع عشيقها . وفى وسط النقاش أخرجت شيئاً فجأة من حقيبة يدها ثم ألصقته بفمها . ذلك كل ما نعرفه ، وأخشى أن يكون كل ما سنعرفه » .

«من فضلك ، سيدى » قال برتلف بإصرار «إنى أستحثك أن تتحمل فى بالك ما قلته لك بنص عبارتى . وهو أن روزينا قد قضت ليلتها الأخيرة معى فى هذه الحجرة . وقد يكون أنى لم أوضح لك ذلك بدرجة كافية : كانت ليلة رائعة ، وروزينا سعدت بها للغاية . إن هذه الفتاة العادية البسيطة كانت تحتاج فحسب للتحلل من قيود بيئتها الفاترة غير الودودة معها لكى تصبح كائناً مختلفاً بالمرة – كائن مشع مفعم بالحب ، والنبل ، والرقة . ولست تدرى أى شخص بديع كانت تحبسه داخله. وأنا أكرر : فى الليلة الماضية فتحت لها باباً لنوع من الحياة جديد ، وهى كانت متعطشة لتبدأ الحياة على هذه الشاكلة . لكن شخصاً قطع علىّ الطريق .» سكت برتلف ، ثم أضاف بهدوء : «لابد أنها قوى الجحيم » .

قال المفتش «حين يصل الأمر إلى منطقة الظلام ، فأنا أخشى أن يكون هذا خارج نطاق الشرطة» .

تجاهل برتلف التعليق التهكمى . «إن حكم الانتحار سيكون مجرد هراء فى هذه الحالة ، حاول أن تفهم ذلك من فضلك ! فليس من المحتمل أن تقتل نفسها بمجرد أن تبدأ الحياة ! وأقول لك مرة أخرى إننى لن أسمح لأى واحد أن يتهمها بالانتحار» .

رد المفتش : «عزيزى ، لم يتهمها أحد بالانتحار . لسبب وحيد ، الانتحار ليس جريمة . وليس هناك مخرج به أمام قاضى الجنايات . ليس هذا اختصاصنا » .

«نعم» قال برتلف «أنت لا تعتبر الانتحار جريمة لأن الحياة فى نظرك تعنى الوجود فى شكله البسيط . لكن بالنسبة لى ، ياسيدى ، فليست هناك خطيئة أكبر من الانتحار . فهو أسوأ من القتل . يمكن أن يكون باعث القتل هو الانتقام أو الجشع ، بل حتى الجشع فهو نوع فاسد من حب الحياة . لكن من يقتل نفسه يطوح ببهبة الله إلى التراب مع ضحكة هازئة . الانتحار بصقة فى وجه الخالق . لقد قلت لك إنى سوف أفعل أى شىء بإمكانى كى أبرهن على براءة هذه الفتاة . أنت تزعم بأنها قتلت نفسها . لكن ما تبريرك . ماذا يكون هناك من باعث محتمل لديها لتفعل هذا ؟» .

«إن بواعث الانتحار شىء يقترب دائماً من اللغز» قال المفتش . «وعلاوة عليه ، فليست مهمتى أن أفتش عنها . ليس لك أن تغضب منى لالتزامى الصارم بواجباتى . فلدى الكثير وليس عندى الوقت الكافى لمجرد هذه الحالة . ملف القضية لم يغلق بعد ، لكن بإمكانى أن أخبرك مباشرة والآن أننى لا أتوقع أى تطورات درامية لاحقة .»

«أنت تدهشنى ، سيدى» قال برتلف فى نبرة صوت ثلجية تماماً . «إنى مندهش لاستعدادك السريع لوضع نهاية لقصة حياة بشرى» .

لاحظت أولاً أن وجه المفتش قد توهج بالغضب . لكنه تحكم فى نفسه بعدها ، ثم قال بعد سكوت قصير وبصوت كان مهذباً تقريباً : «حسنا إذن . دعونا نفترض بأنك على حق وأن جريمة قتل قد حصلت . دعونا نحاول تخييل ما قد حدث . فى حقيبة يد الفقيدة عثرنا على أنبوب مسكنات . دعونا نفترض أن روزينا كانت تريد تناول حبة من الأنبوب ، ولكن شخصاً أبدلها بحبة مختلفة تبدو شبيهة بها ولكنها تحتوى على السم» .

«أنت تظن أن السم الذى ابتلعته روزينا قد خرج من أنبوب المسكنات؟» سأله د . سكريتا .

«طبعاً ، وقد يكون السم راقداً فى حقيبة اليد بشكل منفصل . بذلك تكون هناك قضية لو قيدناها انتحاراً . لكن لو افترضنا أننا نتعامل مع جريمة قتل ، فهناك احتمال واحد فقط : أن يكون هناك شخص قد وضع حبة مسمومة فى الأنبوب ، حبة لها نفس شكل ولون المسكن » .

قال د . سكريتا : «أرجو أن تفرق . فليس من السهل تحويل شبه القلوى إلى قرص له شكل أملس . لابد أن الذى فعلها شخص له باع فى ميكنة الأقراص ، وليس هنا أحد مخول لهذه المكانة» .

«هل تزعم باستحالة وجود امرىء فى هذه المنطقة بإمكانه تحضير مثل هذه الحبة ؟» .

«ليس مستحيلا . لكنه صعب تماماً .»

قال المفتش «وفقاً لمرماى ، يكفى أن توجد هذه الإمكانية» ، ثم واصل : «والآن دعونـا نفحص السؤال عمن لديه الرغبة فى أن يرى الفتاة ميتة . فهى لم تكن ثرية ، إذن بإمكاننا الحكم بالجشع ، ونستطيع أن نقلل من أهمية البواعث السياسية أو الجاسوسية . والآن يتبقى أمامنا بواعث الطبيعة الحميمة . من هم المشبوهون المحتملون إذن ؟ بادىء ذى بدء عشيقها ، الذى كان يتشاجر معها بحرارة قبل أن تموت . هل تظن بأنه هو الذى أسقط لها السم ؟» .

لم يرد أحد على سؤال المفتش ، فواصل : «لا أعتقد هذا . فذلك الولد كان لا يزال يقاتل للاحتفاظ بالفتاة . يريد أن يتزوجها . وهى حامل بطفلها منه ، ولو كان الطفل من صلب شخص آخر ، فإن المهم هو أنه مقتنع تماما بكونه الأب . ولحظة أن اكتشف رغبتها فى الإجهاض صار يائساً . لكن ضعوا فى بالكم ، رجاء ، أن روزينا كانت عائدة من سماع ، لا من إجهاض فعلى ! وطالما كان بطلنا اليائس متورطاً ، فهو لم يفقد الخيط بعد . لأن الجنين لازال حياً فى جسمها وهو

على تمام الاستعداد لفعل أى شىء لإنقاذه . سيكون الأمر عبثاً ونحن نفكر أنه قد سممها ، حيث أنه كان شغوفاً ليصير زوجها ووالد طفلها . وبالإضافة ، فإن د . سكريتا قد شرح لنا تواً أنه ليس سهلاً لشخص عادى أن يحضّر سماً له شكل الحبة العادى . إذن كيف توصل أخونا هذا للحصول على هذه الحبة ، فهو ولد ساذج ليس له صلات اجتماعية ؟ هل يمكن لأحدكم أن يشرح لى هذا ؟» .

ظل المفتش مستديراً إلى برتلف والذى هز كتفيه .

«حسناً إذن . دعونا نذكر مشبوهين آخرين . هناك عازف البوق الذى جاء من المدينة . لقد تعرف على الفقيدة منذ عدة أشهر . ولا نعرف قدر الحميمية الذى كانا عليه ، ولن نعرفه أبداً . على أية حال ، فقد صار ودوداً بدرجة كافية مع الفقيدة حتى أحست بالصراحة أن تطلب منه ادعاء أبوة الطفل وأن يصحبها أمام لجنة الإجهاض . لماذا طلبت ذلك منه ولم تطلبه من أحد المقيمين هنا ؟ هذا يسهل تخمينه . فإن أى متزوج يعيش فى هذه المنطقة سوف يخشى من النميمة والمتاعب المنزلية . فقط شخص يعيش فى مركز بعيد هو الذى بإمكانه أن يؤدى لها هذه الخدمة . وفوق ذلك ، فإن إشاعة أنها حامل بطفل من فنان شهير كانت تطرى غرور المرضة ، وليس من المحتمل بأن تؤذى سمعة عازف البوق . فيمكن إذن افتراض أن السيد كليما لم يتردد فى إنجاز هذه الخدمة . لماذا إذن يقتل المرضة البائسة ؟ وكما أخبرنا د . سكريتا من قبل ، فليس من المحتمل أن يكون السيد كليما هو والد طفلها الجنين . لكن ولصالح النقاش دعونا نختبر حتى هذا الاحتمال . دعونا نفترض أن كليما هو الأب ، وأن ذلك كان لا يسره بالمرة . لكن أخبرونى ، لماذا بحق السماء يقتلها وهى وافقت على الخضوع لفكرة الإجهاض وأن هذه الخطوة قد تمت الموافقة عليها رسمياً ؟ ما هو السبب المعقول ، ياسيد برتلف ، لكى نعتبر كليما هو القاتل ؟» .

رد برتلف بهدوء «أنت لا تفهمنى» ، «لست مهتماً بإرسال أى امرىء إلى المشنقة . أنا أرغب فقط فى تبرئة روزينا . لأن الانتحار هو أكثر الخطايا فحشاً . حتى أشد المعاناة قد يكون لها فائدة سحرية ، والحياة على حافة الموت قد تكون بديعة . فإن من لم ير الموت على الوجوه لا يعرف هذا ، ولكنى أعرفه ، ياسيدى . وذلك هو السبب فى إصرارى على بذ ل ما فى وسعى للبرهنة على أن هذه الفتاة بريئة » .

قال المفتش «أشاطرك الرأى ، صدقنى » ، «وعموماً ، هناك مشبوه ثالث يحسُن وضعه فى الاعتبار . السيد برتلف ، رجل الأعمال الأمريكى . وكما اعترف هو بنفسه ، إن الفقيدة قد قضت ليلتها الأخيرة معه . قد تعارض أن القاتل يتطوع بهذه المعلومة بصعوبة . لكن هذا الاعتراض غير ملزم . كان برتلف يجلس جنب روزينا فى حفل موسيقى مزدحم ، ورآهما الجميع بوضوح يغادران سويا . وقد يدرك السيد برتلف أنه فى مثل هذه المواقف يحسن التطوع بإبراز الحقيقة بنفسه. يحكى لنا السيد برتلف أن هذه كانت أسعد ليالى روزينا طراً . ولم لا ؟ فالسيد برتلف ليس رجلا فاتناً فحسب ، بل هو علاوة على الجميع رجل أعمال أمريكى معه أكداس من الدولارات وجواز سفر أمريكى يمكنه من السفر عبر العالم كله . كانت روزينا تلتصق بهذا المكان الصغير ، وتنشد الخلاص فى يأس . لها عشيق يريد أن يتزوجها ، لكنه ميكانيكى ساذج من هنا . وإن تزوجته فستختم على مصيرها للأبد ولن تجد لها مخرجاً للهروب . ولم يكن هناك غيره فظلت معه . لكنها قاومت الانضواء تحت لوائه بشكل محتوم حيث لم تكن تريد أن تتخلى عن كل الأمل فى أن تعيش حياة مختلفة . ثم ظهر فجأة رجل دنيوى ، زئر نساء ، على الساحة ، أدار رأسها تماماً . حلمت أن قد يتزوجها ويرحل بها إلى أرض بعيدة . وكسيدة متحفظة فى البدء ، صارت تدريجياً متطلبة له أكثر وأكثر . وكان واضحاً

لديها أنها لن تتخلى عنه أبداً فبدأت تبتزه . برتلف متزوج وأفهم أن زوجته على وشك الوصول غداً من أمريكا . وكما نما لعلمي ، فهو يحب زوجته ، أم طفله الناشيء. وبرتلف مستعد لأن يفعل أى شيء كي يتجنب الفضيحة . هو يعرف أن روزينا معتادة على حمل أنبوب المسكنات ، ويعرف شكل أقراصه . وهو رجل ثرى له صلات ممتدة بالخارج . ويسهل عليه أن يجلب شخصاً يصنّع حبة سم على شكل مسكنات روزينا . أثناء تلك الليلة البديعة ، وبينما كانت حبيبته نائمة ، أولج الحبة المسمومة سراً فى الأنبوب . هذا هو ظنى ، ياسيد برتلف» ثم رفع المفتش من صوته بشكل درامى «وذلك لأنك الشخص الوحيد الذى لديه الواعز والوسيلة التى يقتل بها المرضة روزينا . وأنا أدعوك للاعتراف » .

هدأت الحجرة . ونظر المفتش مباشرة إلى برتلف ، والذى أعاد تحديقه فيه ببرود مماثل . لم ينم وجهه عن الصدمة أو الضيق . وقال أخيراً :

«لست مندهشاً لحكمك الأخير . وذلك لعدم مقدرتك على إيجاد القاتل ، وعليك أن تجد شخصاً يقر بذنبه . فمن مساخر الحياة أن يكون على البريء الذى استدعيته حمل ذنب كل الآثمين . امسكنى ، إن رأيت ذلك ضرورياً ».

(٢٢)

كان فجر ناعم يغلف ضواحى الريف . توقف چاكوب فى قرية على مبعدة من الحدود بعدة كيلو مترات . أراد الاستمتاع بلحظاته الأخيرة فى وطنه الأم . فخرج من السيارة وسار عبر الشارع القروى .

لم يكن الشارع جذاباً . حُفر نكدة وإطارات جرار قديم تحف على الأفنية كانت قرية مهجورة ، دميمة . وظن چاكوب أن الخردة الصدئة كالكلمة البذيئة التى تبصقها أرضه الأم فى وجهه بطريقة التوديع . كانت نهاية الشارع فى القرية

خضراء . وهناك بركة صغيرة وسط الخضرة ، والبركة مهملة ، كذلك ، نما عليها الطحلب بغزارة . برز قليل من الإوز عند الحافة ، ويحاول ولد أن يهشها بعيداً عن الماء بسوط في يده .

وحينما كان چاكوب على وشك العودة إلى السيارة لمحت عينه ولداً يقف في نافذة أحد البيوت. عمر الولد حوالى خمس سنوات ، وكان يحدق من زجاج النافذة نحو البركة . لربما كان يراقب الإوز ، لربما كان يراقب ذلك الولد الذى يكنس الإوز بسوطه ، ولم يستطع چاكوب إبعاد عينيه عن وجهه . كان وجه طفل ، لكن ما جذب چاكوب هو النظارة . يرتدى الولد الصغير نظارة كبيرة بها عدسات كثيفة بدون شك. رأس الولد صغير والنظارة ضخمة . كان يحملها كالقضبان، كالمصير. وكان يحدق من إطاراتها وكأنه ينظر من خلل قضبان سجن إلى ما يعطى للحياة معنى . أعاد چاكوب تحديقه فى عينى الولد ، فأحس بأسى كبير يملأه .

كان هذا الشعور غير متوقع ، كاندفاعة ماء مفاجئة بعد انهيار سد . ولم يكن چاكوب قد أحس بمثل هذا الحزن منذ سنين ، وسنين . قد عرف المرارة ، الإخفاق، لكن ليس الحزن . وها هو ينفجر الآن فيه ، فلم يستطع الحركة .

رأى الطفل يرتدى سجنه ، شعر بالإشفاق على الولد وعلى بلاده كلها ؛ وبدا له أنه قد تخلى عن بلده ، وأنه أحبها بشكل بائس ، وأن حبه هذا المخفق واللامبالى قد جعله يحس بالحزن .

وبعد ذلك خطر له أنه هو الفخر ذلك الذى قد حجزه عن حب بلاده ، الفخر الذى تولد عن النبل والصفاء ، فخر أحمق جعله يكره زملاءه البشر وجعله يبغضهم لأنه كان ينظر إليهم باعتبارهم قتلة . وتذكر مرة أخرى أنه قد وهب السم لغريبة ، وأنه هو بنفسه قاتل . كان قاتلا ، وفخره راقد فى التراب . صار واحدا منهم ، صار أخا لكل هؤلاء القتلة البائسين .

ظل الولد ذو النظارة واقفا فى النافذة كتمثال حجرى ، لازال يحدق فى البركة . وخطر لجاكوب أن هذا الولد لم يؤذ أحدا ورغم ذلك حكم عليه بحدود نظارة بائسة يرى منها الحياة . مرت فكرة فى باله بأنه يلوم الناس على شئ ليس فى مقدورهم ، فهناك شئ مولودون به ، شئ عليهم تحمله ، كعبارة يتعذر تغييرها . ثم خطر له أن ليس لديه ادعاء ضمنى بالنبل ، وأن أكثر الأشياء نبالة هى حب الناس حتى ولو كانوا قتلة .

فكر فى الحبة الزرقاء الباهتة ، وظهر له أنه قد أسقطها فى دواء تلك الممرضة البغيض ، كرسالة ، كذريعة ، كابتهال إلى بشر عاديين كى يقبلوه بينهم رغم أنه كان يرفض دوما أن يعد واحدا منهم .

سار منتعشا وهو يعود للسيارة، فتح الباب ، جلس وراء عجلة القيادة ، وبدأ يسوق تجاه الحدود . ظن فى اليوم السابق أن هذه ستكون لحظة راحة، وأنه سيسعد بالرحيل . وأنه سوف يترك مكانا ولد فيه بالصدفة، ولم يكن ينتمى إليه فعلا، لكنه عرف الآن أنه سيترك وطنه الوحيد ، ولم يعد له سواه.

(٢٣)

قال المفتش «لا تتخل عن آمالك» ، «فإن السجن لن يكون فيه صلبك ، إننا لن نفتح بواباته المجيدة لك . لم أصدق لحظة أنك قد تكون قاتل هذه المرأة الشابة . فقط اتهمتك لأوضح لك عبثية فكرتك بأنها قد قُتلت .»

«يسعدنى أنك لم تأخذ الاتهام على محمل الجد» قالها برتلف بنبرة استرضاء «وأنت محق . فلقد كانت حماقة منى أن أسعى للفوز بتبرئة منك لروزينا» .

قال د. سكريتا «يسعدنى أن تهدأ نوازعك» ، «على الأقل لدينا الآن سلوى واحدة : لا يهم كيف ماتت روزينا ، فإن ليلتها الأخيرة على الأرض كانت بديعة».

قال برتلف : «انظر إلى القمر ، فهو مشرق كليلة الأمس ، وهو يحيل هذه الغرفة إلى حديقة . في أقل من أربع وعشرين ساعة كانت روزينا لا تزال تتحكم في هذه الحديقة الساحرة كملكة الجنيات»..

قال د. سكريتا: «لا يجب أن نضع الحمل كبيرا بالفعل على العدالة . فالعدالة ليست بشرية. هناك عدالة بمخالب عنيفة عمياء ، وقد تكون هناك عدالة أعلى، ولكنى لا أفهمها . يتملكنى دائما الإحساس بأننى أعيش فيما وراء العدالة» .

«ماذا تقصد ؟» سألته أولجا ، مندهشة .

رد د. سكريتا «العدالة لا تعنينى» ، «فهى شئ من خارجى وفوقى. وفى أى قضية ، هناك شي همجي . وأنا لن أتعاون أبدا مع هذه القوة الغاشمة» .

جاوبته أولجا : «هل تحاول أن تقول إنك لا تقر أية أعراف كونية ؟»

«إن الأعراف التى أقرها لا تجدى مع العدالة» .

سألت أولجا «اضرب مثلا ؟» .

«المثل، هو رفقة الحزب» رد د. سكريتا ، بهدوء .

لبث الجميع فى الصمت ، ونهض المفتش ليرحل . فى هذه اللحظة عبرت فكرة فى خيال أولجا . سألت «على فكرة ، مالون الحبوب التى كانت تحملها روزينا ؟».

رد المفتش «أزرق باهت» ، وهو يضيف باهتمام مضطرم من جديد : «لكن لماذا سؤالك ؟»

خشيت أولجا أن يقرأ المفتش ما فى عقلها ، فحاولت أن تضوئ سؤالها : «آه ، فقط رأيت مرة أنبوب الحبوب فى محفظتها . وكنت أتساءل إن كان هو نفس الأنبوب ....»

لم يقرأ المفتش ما فى عقلها . كان متعبا ، ودعا الجمع بليلة طيبة .

بعد رحيله ، قال برتلف لسكريتا : «زوجاتنا ستصل الآن . هل نذهب إلى المحطة لاستقبالهما ؟»

«هيا نذهب . بالمصادفة ، أوصيك بتناول جرعة دوائك المعتادة مضاعفة هذه الليلة» قالها د. سكريتا باهتمام .

اختفى برتلف فى الحجرة الملحقة ، وقالت أولجا لسكريتا :

«أنت أعطيت چاكوب مرة حبة سم . حبة زرقاء باهتة . وكان يحملها دائما فى جيبه . أعرف أمرها» .

«هذا محض هراء . فأنا لم أعطه أى شئ من هذا النوع» قالها د. سكريتا بحزم مؤكد .

بعدها رجع برتلف من الحجرة الأخرى ، مرتديا ربطة عنق مختلفة ، ثم غادرت أولجا بعدها الرجلين .

(٢٤)

سار برتلف ود. سكريتا فى متنزه تحفه أشجار الحور نحو محطة السكة الحديد .

قال برتلف : «أنظر فحسب إلى ذلك القمر !» ثم «صدقنى ، كانت تلك الأمسية معجزة بالفعل وكذلك الليلة التى قضيناها سوية بالأمس» .

«أصدقك ، لكن لا يجب أن تعول على مثل هذه المصادفات . فإن إفراط العاطفة خطر جدا على صحتك» .

لم يرد برتلف . وشع وجهه بتعبير فخر سعيد .

قال د. سكريتا «يبدو أن مزاجك متألق» .

«أنت على حق . فلو أنى نجحت أن أجعل ليلتها الأخيرة فى الحياة تجربة بديعة ، فلدى سبب قوى للسعادة» .

«هل تعرف» قال د. سكريتا فجأة «إن هناك شيئا انتظرت طويلا أن أطلبه منك ولم تطاوعنى نفسى . لكن يبدو هذا اليوم أن به شيئا غير عادى يمنحنى الشجاعة أن ...»

«قل ، يا دكتور ، مهما كلفك الأمر !»

«أريد منك أن تتبنانى كابن لك .»

توقف برتلف مندهشا ، واستبقه د. سكريتا لتوضيح أسباب طلبه هذا .

قال برتلف «سأفعل أى شئ فى العالم من أجلك ، وأنت تعرف هذا» ، «إنى أتساءل فقط ماذا ستقول زوجتى . سيبدو هذا لها نوعا من الحمق . فهى ستكون أصغر بخمسة عشر عاما من ابنها . ألن يطرح هذا مسألة قانونية ؟»

«ليس هناك شرط قانونى يمنع الابن بالتبنى أن يكون أكبر من والديه . وعموما ، فهو ليس ابنا حقيقيا ، بل وبالضبط كما يقال ، ابن بالتبنى» .

«هل أنت متأكد فعلا ؟»

قال د. سكريتا ، وهو مرتبك نوعا «لقد طرحت هذه المسألة على محامين من فترة طويلة» .

قال برتلف «أنت أدرى ، فهو أمر غير عادى بالمرة ، وأنا أخذت على حين غرة» ، «لكنى اليوم تملأنى بهجة من نوع خاص وأود لو أسعد العالم بكامله . ولو يجعلك هذا سعيدا ... ابنى ...»

وتحاضن الرجلان وسط الشارع .

(٢٥)

كانت أولجا راقدة في الفراش (والراديو صامت في الحجرة المجاورة) . صار واضحا لديها أن چاكوب هو الذى قتل روزينا وهى فقط والدكتور سكريتا من يعرفان ذلك . وليس من المحتمل أن تكتشف لماذا فعل هذا . جلدها يخزها بالرعب ، لكنها أدركت عندئذ مع الدهشة (نحن نعلم أنها ممتازة في مراقبة نفسها) أن هذا الوخز كان يسرها والرعب يملأها فخرا .

لابد أن عقل چاكوب في الليلة السابقة كان يشتمل على أشد الأفكار فزعا وهي تسحبه في إعزاز إلى نفسها ، وأن هذه الأفكار لهذا السبب قد صارت جزءا منها .

لماذا لا يضايقني هذا ؟ سألت نفسها . ولماذا لا أبلغ عنه للشرطة (وإن أفعلها)؟ هل لأنى ، أيضا ، أحيا فيما وراء العدالة ؟

لكن وبينما كانت تواصل امتحان نفسها ، ظل يملأها وبشكل متزايد ، فخر غريب ، سعيد . أحست بأنها فتاة انتُهكت وفجأة أوثقتها بهجة مخدرة ، بهجة تنمو أقوى كلما استنكرتها ...

(٢٦)

وصل القطار إلى المحطة وبرزت منه امرأتان .

تبدو الأولى في حوالى الخامسة والثلاثين وقد تلقت قبلة من د. سكريتا . أما الثانية، فكانت أصغر ، ملابسها متأنقة ، وتحمل طفلا في ذراعيها ، وقد قبلها برتلف .

قال د. سكريتا « خلّونى أرى طفلكما الصغير» ، «هذه هى نظرتى الأولى الحقيقية عليه .»

«لو لم أعرفك جيدا لاتهمتك بالخيانة الزوجية» وضحكت مسز سكريتا . «انظر هنا ، على شفته العليا ! فلديه وحمة بالضبط فى نفس المكان الذى عندك .»

نظرت مسز برتلف بحذر على وجه سكريتا ثم انفجرت بالكلام : «صحيح ! لم ألحظ أبدا ذلك طوال الوقت الذى قضيته هنا بالمنتجع !»

قال برتلف : «هى مصادفة ملحوظة تجعلنى أحس بحرية أن أصفها كمعجزة . فإن د. سكريتا ، والذى يراعى صحة النساء ، ملاك ، وقد ترك علامته الملائكية على الأطفال الذين ساعد فى جلبهم إلى الدنيا . إذن فهى ليست وحمة عادية بل وحمة ملاك .»

أسعد تفسير برتلف الجميع وساعد فى رفع منسوب الضحك بطبيعته .

ثم استدار برتلف إلى زوجته الجذابة. «بالإضافة لذلك ، فلقد أعلنت بشكل مهيب منذ دقائق قليلة ، وبموجب هذا، أن د. سكريتا قد صار أخا لابننا الصغير چون . ولهذا أجد أنه مناسب تماما لهما كأخين أن يتشاركا فى علامة مميزة» .

«إذن فعلتها أخيرا ...» وتنهدت مسز سكريتا وهى سعيدة .

قالت مسز برتلف «أنا لا أفهم . من فضلكم وضحوا لى !» .

قال برتلف «سأحكى لك كل شئ . فلدينا الكثير لنحكيه اليوم ، وسنحتفل كثيرا . لازال أمامنا عطلة أسبوع مذهلة» ، وهو يأخذ بذراع زوجته . سار الأربعة إلى نهاية رصيف المحطة المضاء بالنيون وبسرعة خلّفوا المحطة وراءهم .

روايات الهلال تقدم :

الوقائع الغريبة فى اختفاء سعيد أبى النحس المتشائل

بقلم

إميل حبيبى

تصدر : ١٥ مايو ١٩٩٨

رقم الايداع : ١٩٩٨/٤٥٩٨
I. S. B . N
977 - 07 -0584- 5

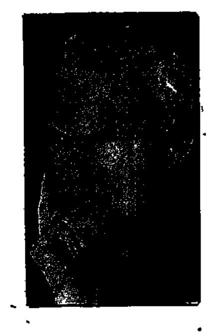
هـــذه (الـروايـــة

يفاجأ عازف البوق بممرضة تخبره أنها حـامل منه ، تتـولد الازمـة ، يطلب منهـا التخلص من الجنين لكن المرأة ترى أن الوليد المنتظر يخصـهـا ، اثناء مـحاولات طويلة بين العازف «كليما» وحبيبته ، نعرف ان الرجل متزوج من امرأة أخرى يحبها ، لكنها لا تنجب الاطفال ، لكن ، تحدث مفاجأة مثيرة ، حين تموت الممرضة ..

لسنا أمام رواية بوليسية ، يكتبها روائى متميز مثل ميلان كونديرا ، لكننا أمام عمل ابداعى راقٍ ، يتسم شخوصها باطار معرفى راقٍ ، بالاضافة الى قدرة الكاتب على الخوض فى أعماق النفس البشرية بمشرط متفهم واع بكل تجارب البشر ، وهواجسهم وسعيهم المخلص نحو الحرية والمعيشة بطريقة تسمو فيها الانسانية على الطغيان والديكتاتورية والاذلال السياسى فى مجتمع لا يعبأ بخصوصية الانسان .

روايتنا هذه يلهث فيها القارئ وراء الاحداث ، وتنتعش بالجدل المثمر حول : هل هناك امكانية للعيش فى حياة أفضل ؟ .

فازت هذه الرواية بجائزة أحسن رواية «مونديللو» فى ايطاليا عام ١٩٧٨ .



ميلان.كونديرا

- روائى تشيكوسلوفاكى يعيش فى فرنسا منذ عام ١٩٧٥ .
- مارس العديد من الاعمال ، ومنها عزف البوق فى فرقة موسيقى الجاز . ثم عمل استاذا فى معهد الدراسات السينمائية ببراغ .
- تعرض للقهر من حكومته عقب اشتراكه فى أحداث براغ ١٩٦٨ .
- من أعماله فى تشيكوسلوفاكيا «المزاح» ، «غراميات مرحة» . ثم هناك رواياته المنشورة فى فرنسا مثل خفة الكائنات التى لا تحتمل» ، «الحياة فى مكان آخر» ، «البطء» .
- نال العديد من الجوائز الادبية فى أوروبا والولايات المتحدة ، ونال التكريم باعتباره من الذين يؤمنون بنشر الحرية على المستوى العالمى .
- مرشح لنيل جائزة نوبل منذ سنوات عديدة .

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من: أدب، وقصة، ودراسة، وسير، وبحوث، وفكر، ونقد، وشعر، وبلاغة، وعلوم وتراث، ولغات، وقضايا، وتاريخ، واجتماع، وعلم نفس، ورحلات، وسياسة... إلخ

صدر من هذه السلسلة :

- الإنسان الباحث .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الحياة مرة أخرى .	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسي .	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب .	محمد حسن الألفي
- من شرفات التاريخ جـ ١ .	د. محمد رجب البيومي
- أم كلثوم .	مجدي سلامة
- المرأة العاملة .	سوزان عبد الحميد آغا
- قادة الفكر الفلسفي .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأجنحة الخفية (جبران ومي) .	لوسي يعقوب
- عبد الحليم حافظ .	مجدي سلامة
- الفراش رجال .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المتطورة .	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب .	مجدي سلامة
- الشخصية السوية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المبدعة .	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات .	لوسي يعقوب
- ساعة الحظ .	محمد حسن الألفي
- سيكولوجية الهدوء النفسي .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإعلام والمخدرات .	د. نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ .	د. محمد رجب البيومي
- الشخصية المتحجبة .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول .	مجدي سلامة
- ظلال الحقيقة .	طيبة أحمد الإبراهيم
- شعرة معاوية، وملك بني أمية .	عرفات القصبي قرون
- مذكرات خادم .	طيبة أحمد الإبراهيم

0333962

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع [illegible]